عيد إبراهيم عبدالله

الصوفية دين الحب

الكتـــــــــاب: إلصوفية دين الحب

المـــؤلـــــف: عيد إبراهيم عبدالله

تصميم الغـــلاف: شادي هشام Artology

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2016 / 25957

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 135 - 9

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

عيد إبراهيم عبدالله

الصوفية دين الحب

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

الإهداء

إلى نور النور وأصله.... أمي

إلى الحبيب والسند.... أبي

إلى الحضن الرحْب.... زوجتي

إلى عبدالله ورُها... أتمنى أن أكون أبًا يليق بمكانتكما في قلبي

إلى حبات المسبحة... أخوتي

بدونكم جميعًا لا وجود لي

إهداء خاص

إلى سيدي الحبيب صلاح الدين التيجاني – حفظه الله

والسادة الكرام عبدالرحيم كمال، حمدي النورج، حسن خليل، عصام توفيق، ناصر عبدالرحمن، وجميع السادة التيجانية والرفاعية الكرام.

أحبكم جميعًا في الله

وقفة

الحب أسرار

والصوفية أسرار

والحب الإلهي أسرار

والزهد في الدنيا أسرار

والعطش إلى الحقيقة أسرار

والعشق والتبتل والعلم أسرار

والرغبة في الفوز برضا الحبيب أسرار

واكتشاف الصوفية والنهل من معينها متعة لا تضاهيها متعة ونعمة؛ لأن متعة فك الطلاسم والأسرار هي أم المتع، وما بالك بفك طلاسم الحب والقرب من الديَّان...

هذا ما أردناه ونبتغي به وصل الحبيب.

الفصل الأول
الصوفية دين الحب

تقدمة

يا من يرى مد البعوض جناها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى نياط عروقها في مخها والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبـــد تاب من زلاتـه ما كان منه في الزمان الأول

*****

ما إن صار عارفًا حتى غرق في بحار الحيرة... حيرةٌ في حيرةٍ.... لا بداية ولا نهاية...

من مقولة العطار تلك حاولت إماطة اللثام عن بعض أفكار الصوفية منسوبة لمصادرها، محاولاً من خلالها إزالة الغموض واللبْس عن الصوفية وأفكارها، والحيرة التي تنتاب الكثيرين حول الصوفية، والصراعات التي تُحاك حولها وحول أقطابها وعلمائها سواء قديمًا أو حديثًا، وهجوم البعض على الصوفية بأنها تتعارض مع صحيح الدين.

إذ يتهم أناسٌ كثيرون، سواء بقصد أو بدون، الصوفية بأنهم خارجون على الإسلام، لما يسمعونه مما هو منسوب إليهم من خرافات وأساطير تشويهًا لهم ولمسيرتهم على يد آخرين ليس لديهم أي علم بحقيقة الأمور، وبدلائل كلام الصوفية، ولقد حاولت من خلال هذا الكتاب استبيان الحقيقة بعد الاستعانة بالله تعالى، ولا أقصد من هذا إلا وجهه تعالى، رغبة في تحري الدقة في كل ما يكتب عن الصوفية؛ مستعينًا فقط بالحقائق الثابتة، والتي تؤكدها الأبحاث والدراسات والمشاهدات، والهدف من هذا البحث هو محاولة التقريب بين الآراء المتعارضة في الصوفية، والتي حاول بثها أعداء الإسلام والذين لا يريدون للمسلمين وحدة ولا تجمعًا أبدًا.

ولا يخفى على الجميع أنه لا يمكن أن نحاكم أمرا أو قيمة بسبب سوء تطبيق منتسبيها لأفكارها ومبادئها، فالمسلم إن التزم بمبادئ الإسلام فهو مسلم كامل الإسلام، وإن أخل قاصدًا أو مُنكرا خرج عن الإسلام.

ومنه يتبين أن الإسلام في أصوله وأحكامه وخصائصه ثابت لا يتغير، والمنتسبون إليه يتغيرون ويختلفون، فمنهم الكامل، ومنهم دون ذلك، ومنهم المفرط، ومنهم من ليس له من الإسلام إلا الاسم. وهكذا كل ملة ونحلة قد ثبتت أصولها واستقرت: لا تتغير. وأهلها يتغيرون

ويتفاوتون بحسب تطبيقهم لأصولها وفروعها.

والتصوف فكرة قديمة، موجودة منذ بداية الإسلام، أصولها وأحكامها معروفة مستقرة ثابتة، بإقرار كافة الباحثين، من متصوفة وغير متصوفة ومستشرقين، والمنتسبون إليه منهم المتحقق بالتصوف، ومنهم دون ذلك، ومنهم من ليس له إلا الاسم دون الحقيقة.

وبناء على هذا: إن أردنا التعرف على دين أو نحلة أو فكرة ما، فعلينا أن نعتمد مصادرها التي منها نبعت وظهرت واستقرت، منها نفهم حقيقة الفكرة كما هي، ولا يصح أن نلجأ إلى المنتسبين فنعتمدهم مصدرا، إذ يتفاوتون في الالتزام والتحقق، كما يندر أن تكون جميع حركاتهم مردها اتباع قواعد الفكرة:

- فالإسلام مثلا: لا تعرف حقيقته كما هي إلا من خلال القرآن والسنة، أما محاولة معرفة ذلك من خلال ما يصدر من المسلمين فهو محض الخطأ، فليسوا كلهم يطبقون الإسلام كما هو، وليس كل ما يصدر منهم بالضرورة يكون عن تطبيق لتعاليم الإسلام، إذ الإنسان في طبعه اقتراف الحسنة والسيئة.

- وكذلك التصوف لا يمكن معرفة حقيقته كما هي إلا بالوقوف على

مصادره الأصلية، وهو الذي نشأ وتأسس واستقر في الثقافات القديمة، بشهادة كافة الباحثين، أما الاعتماد على المنتسبين المقلدين من المسلمين فخطأ منهجي، فليسوا كلهم يطبقون التعاليم كما هي، وليس كل ما يصدر منهم بالضرورة يكون عن التزام بالتصوف.

فقد جاء في "حقائق عن التصوف" لعبدالقادر عيسى صفحة ٣٠ أن الصوفية "يُرجعون أصل التصوف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على العبادات واجتناب المنهيات ومجاهدة للنفس وكثرة لذكر الله إلى عهد رسول - الله محمد صلى الله عليه وسلم- وعهد الصحابة – رضوان الله عليهم-، وأنه يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية، وكوجهة نظر أخرى، يرى بعض الناس أن أصل التصوف هو الرهبنة البوذية، والكهانة المسيحية، والشعوذة الهندية فقالوا: هناك تصوف بوذي وهندي ومسيحي وفارسي. بينما يرفض الصوفية المسلمون تلك النسبة ويقولون بأن التصوف ما هو إلا التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب".

وكان الشعر هو أهم بوابة يعبر فيها الصوفيون عن أفكارهم وطبيعتهم، وكان الشعراء هم أكثر المروجين للفكر الصوفي، وهم

أكثر الناس الذين تعرضوا للظلم عن طريق اتهامهم اتهامات تتعلق بالكفر والزندقة، كما حدث مع ابن رشد (القطب الصوفي الكبير) والذي مثل أمام محكمة انعقدت خصيصًا له في حلب في اتهامات تتعلق بالمروق والخروج عن الملة.

ولم يتوقف الأمر عند ابن رشد وحده؛ بل طالت الاتهامات معظم أقطاب الصوفية أمثال الحلاج والسهروردي وابن عربي، والذين لقوا حتفهم عن طريق إعدامهم بأساليب وطرق مختلفة يعرفها القاصى والداني وتوضحها الصفحات التي يتكون منها البحث الذي بين أيديكم.

ولست أرى هذا البحث سوى محاولة متواضعة واجتهاد بسيط من الباحث علّه يلقي الضوء على الجوانب المُختَلَف فيها في شخصية كل قطب من أقطاب الصوفية، ونظرة العامة والساسة لهم، وطبيعة أفكارهم واجتهاداتهم، وفي الوقت نفسه يلقي الضوء على كتابات هؤلاء الصوفة الذين حظوًا بمكانة كبيرة بين العامة قديمًا وحديثًا، وخاف السلاطين والملوك والزعماء على عروشهم من تأثيرهم ومكانتهم بين العامة، مما حدا بأعدائهم المقربين من الملوك بأن يحيكوا لهم المؤامرات والدسائس التي ساهمت بشكل أو بآخر في إعدامهم جراء جرائم لم يرتكبوها، وعقائد لم يقصدوها لا بكلامهم ولا بأفعالهم.

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مليئة بالشواهد على حب الله وحب رسوله، ونحن حينما نتكلم في هذا الكتاب فإننا نتكلم عن الحب، لأن الحب يكون لله، لذا فإننا في هذا الكتاب نتحدث بشيء من التفصيل عن الحب الإلهي وكيفية تتبع آثاره ودلائله في كتابات الصوفية، ويتركز الهدف الأساسي من هذا البحث في تقصي طبيعة الحب في الصوفية، وكيف أن الحب بلغ مبلغًا كبيرًا لدى شعراء الصوفية وأقطابها، وكيف أن الحب –الشخصي والإلهي- كان بوابة يُستمال من خلالها قلوب العامة للتأثر بالأخلاق الصوفية، وطبيعة الحب التي يتم الترويج لها بين العامة سواء بالقول أو بالفعل، من خلال إلقاء الضوء على ما جادت به قريحة أقطاب الصوفية من أشعار تناولت الحب الإلهي والشخصي على حد سواء.

وإننا هنا حينما نستخدم لفظ الصوفية والمتصوفة فإننا نتحدث عن الصالحين منهم الذين حافظوا على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يبتدعوا في الدين، ولم يُقدسوا شيوخهم حد التأليه، بل إننا نقصد كل من ينتسب لهذه الطائفة الكريمة عن حق، ويهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينبذ كل ما يخالف شرع الله جل وعلا، فلا يُنكر أحد دور علماء الصوفية في الدعوة الإسلامية

وفي العلم وفي حركة النهضة التي شهدتها العصور التالية للإسلام أمثال الفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، والجُنيد، وغيرهم ممن سار على نهجهم.

قد تم تقسيم هذا الكتاب في فصول علَّه ييسر على القارئ الانتقال بين النقاط التي يتضمنها؛ فيتناول الفصل الأول الصوفية دين الحب، ونتناول فيه إلقاء الضوء على مفهوم الصوفية وحقيقتها وما يُثار حولها، والحب الإلهي في الصوفية بين الابتداع والاقتناع، والصراع الحقيقي والوهمي بين الصوفية والسلفية.

ويتناول الفصل الثاني ترجمة وسيرة الحلاج؛ المجني عليه والذي تم إعدامه بطريقة لم تكن معروفة في عصره، نظرًا لالتفاف العامة حوله وتأثيره الواسع في الناس مما دعا قاضي القُضاة أن يستغل مقولات الحلاج لدى العامة حتى أُعدم الحلاج بشكل لم يحدث من قبل، كما يلقي الضوء على أشعار الحلاج التي تم جمعها على يد تلامذته وأساتذته.

ويستعرض الفصل الثالث سيرة سلطان العاشقين عمر ابن الفارض الصوفي المصري، وبيان منهاج الحب الإلهي في أشعاره، حيث إن كل أشعاره مرشحة بمفردات الحب والجمال والغزل والهيمان، فعلى يديه

اشتهر شعر التصوف وقد كوَّن تيارًا فريدًا في الشعر الإلهي.. وكما أسس مدرسة من مريديه عملت تحولاً في دنيا الأدب الصوفي.

ويحاول الفصل الرابع إزالة اللبْس الذي يحدث لدى القراء الذين يتناولوا سيرة السهروردي، وهل أن السهرودي شيخ صوفي واحد أو أكثر من شيخ، فضلا عن تناول أشهر ما قاله شعراء الصوفية واشتهر بين العامة والشعراء على حد سواء والذي نستخلص من خلاله الأفكار العامة لهؤلاء الشعراء كالسهروردي وغيره.

وفي الفصل الخامس أوردنا مقتطفات من شعر الصوفية الذي تتجلى فيه عناصر الحب الإلهي وروحه، وكيف قام شعراء الصوفية بتجسيد هذا الحب من خلال أشعارهم.

ونحن إذ نبتغي بهذا البحث وجه الله عز وجل، ونجتهد أن يكون هذا الكتاب حجرًا في بناء الفهم العام والوعي المجتمعي للقارئ حول الصوفية، وإزالة الغموض الذي يكتنف أقطابها وكلامهم وأشعارهم، محاولين بذلك الوصول إلى قلب وعقل القارئ، وإثراء المكتبة العربية بمحاولة بحثية كتبت بأصل عربي وذلك لندرة هذا في المكتبة العربية واقتصار الأمر على أعمال الترجمة والنقل والتي يقوم بها المستشرقون.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الصوفيّة

مفهومها - حقيقتها

تنازعت الآراء في الصوفية، لأنها بالنسبة للكثيرين عالمٌ تحيط به الأسرار، ويكتنفه الغموض، وتحُومُ حوله الشبهات، فكثرت فيها الأقاويل، ونُسبت إليها الأحكام والإشارات والتعليقات، بشكل ساهم في تنْفير الناس منها، بل ورمْيها بأبشع التهم؛ وهي الزندقة والخروج على الإسلام.

ما رسالة الصوفية؟ وما رأي المؤيدين والمعارضين فيها وفي أقطابها وعلمائها؟ وهل أتت الصوفية بما ليس في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة كما يقول المعارضون؟ أم أنها روح الإسلام وشفافيته كما يقول المؤيدون؟ هل هي مجموعة من الخرافات التي ساهمت في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وأعطت انطباعات خاطئة عن الدين، وتتحمل المسئولية الكبيرة في تخلف العالم الإسلامي كما

يقول المعارضون؟ أم هي التي ساهمت في إحياء الشريعة الإسلامية وحراستها وفهم مكنونها وكُنهها كما يقول المؤيدون؟ هل تساهم في إحياء الدين وإحياء جوهر الدين وشعائره وفهم حقيقة الدين كما يقول المؤيدون؟ أم ساعدت على لجوء الشباب المسلمين إلى الانعزالية والاتكالية والهروب من مواجهة مشكلات المجتمع والمساهمة في تطوير المجتمع الإسلامي كما يقول المعارضون؟

أسئلة كثيرة نحاول من خلالها الوقوف على حقيقة الصوفية من خلال ذكر الآراء المؤيدة والمعارضة، محاولين بشتى الطرق التزام الحياد البحثي والأكاديمي، حتى لا نُتهم بالركون إلى فئة دون أخرى، قاصدين بذلك تنقية الإسلام من الشوائب، ونبذ روح الفرقة من بين الطوائف الإسلامية، مما يساهم في التفرغ لمواجهة أعداء الدين بدلاً من التركيز على الاقتتال والاختلاف الداخلي بين المسلمين، وسنحاول المرور على كل الدلائل التي تؤيد ما يذهب إليه كل فريق من الفريقين.

ليس التصوُّف حيلةً وتكلفـًا وتـقـشُّـفًـا وتـواجـدًا وصـيـاحـا

ليس التصوف كذبة وتظالُما وجـهـالـةً ودعـايـةً وفـراحـا

بل عفة ومـروءة وفتـوَّة وقـنـاعـة وطـهـارة وصـلاحـا

تلك حقيقة الصوفية كما أوردها وصاغها الحسين بن منصور الحلاج؛ فقد تعددت الأقوال في اللفظة التي اعتمد عليها الناس في تعريف الصوفية وبيان كُنهها، فمن الناس من قال إن الصوفية مشتقة من الصوفة، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى.

ومنهم من قال: إن الصوفية من الصِّفَة، أي من اتصاف الشخص بالمحاسن وبُعده عن الرذائل، ومن الباحثين من أرجع الصوفية إلى صفاء النية وحسن السريرة ونقاء القلب، وقد عبر أبو الفتح البستي رحمه الله عن هذا التنازع في تعريف الصوفي، وعدم اتفاق الناس على اشتقاق وأصل واحد تعود إليه الصوفية.

ويقول أبو العباس أحمد بن زروق وهو علم من أعلام الصوفية في كتابه "قواعد التصوف" إنه قد تعددت الأقوال في اللفظة التي اشتق منها كلمة التصوف، وأمسى ذلك بالحقيقة خمسة:

الأول: قول من قال: من الصوفة، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.

الثاني: أنه من صوفة القفا، للينها، فالصوفي هيّن ليّن كهي.

الثالث: أنه من الصفة، إذ جعلته اتصاف بالمحاسن، وترك الأوصاف المذمومة.

الرابع: أنه من الصفاء، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقًّا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمى الصوفي

الخامس: أنه منقول من الصفة، لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه.

وقد عرج عبدالرحمن بدوي في كتابه: "تاريخ التصوف الإسلامي" على معنى الصوفية وذكر عدة آراء فيها على سبيل العرض والتحليل، ومنها رأي السراج والذي لا يُخرج الصوفية عن المفاهيم التالية:

- أن اسم الصوفية مشتق من الصوف، بوصفه اللبسة الغالبة على هؤلاء.
- وأنه اسم قديم، قد وجد حتى قبل الإسلام.

• إنهم لم ينسبوا إلى حال معينة أو علم معين، لأنهم يتخلقون بكل الأخـلاق الفاضلة ويتسمون بكل الأحـوال الشريفة، فلا محل لتمييزهم بحال دون حال، ولا بخلق دون خلق.

ويرى عبد الرحمن الجامعي أن أول من حمل اسم "صوفي" هو أبوهاشم الكوفي، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، ويرى أن هذا الاسم انتشر قبل سنة مائتين للهجرة (٧١٥م).

أمـا الآراء الأخـرى الـواردة في المصادر العربية فبعيدة الاحتمال، ونذكر أهمها هنا على سبيل الاستقصاء:

الصفة: وهي "المقعد"، حيث سموا بذلك نسبة إلى أهل الصفة، وكان لقبًا أُعطي لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول (ص) ممن لم تكن لهم بيوت يأوون إليها، فأمر الرسول (ص) ببناء فناء ملحق بالمسجد من أجلهم، وهذا يوضح ادعاء المتصوفة بربط التصوف بعصر النبي (ص) وأنه أقر النواة الصوفية الأولى، مع العلم أن أهل الصفة ما كانوا منقطعين عن الناس لأجل الزهد الصوفي.

الصفاء: ومعناها أن الصوفية صافية من الشرور وشهوات الدنيا، وهذا الاشتقاق غير صحيح لغويًّا فبالنسبة إلى الصفاء: صفوي أو صفاوي أو

صفائي وليس صوفيًّا.

الصف الأول: بعض الصوفية ينسبون أنفسهم إلى الصف الأول من المؤمنين في الصلاة، وهذا التعبير بعيدٌ عن سلامة الاشتقاق اللغوي بالنسبة إلى الصف: صفي لا صوفي.

بني صوفة: بعضهم ينسبون الصوفية إلى بني صوفة وهي قبيلة بدوية كانت تخدم الكعبة في الجاهلية.

الصوفة: والبعض منهم ينسبونها إلى "صوفة" وهي خصلة الشعر على القفا.

الصفوانة: ومنهم ينسبون الصوفية إلى "الصفوانة" وهي نوع من البقل.

وكما لاحظ القشيري فإن هذه الآراء لا يشهد لها اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، وكلها بعيدة من جهة القياس اللغوي.

ومن خلال البحث والتقصي حول تعريف الصوفية واشتقاقها، يظهر أن للصوفية معنيان؛ أحدهما لغوي والآخر اصطلاحي، فالصوفية في اللغة مشتقة من جذر الكلمة "صوف" وهو ذاك النوع الخشن من القماش الذي دأب على ارتدائه بعض المتصوفة ليلاً ونهارًا صيفًا

وشتاءً، خلال ممارسة طقوسهم الصوفية وغيرها، ويؤكد هذا المعنى قول أبو نصر الطوسي رحمه الله أن ارتداء الصوف كان من دأب الأنبياء و"شعار الأولياء والأصفياء" الأنقياء، وأرجع اشتقاق لفظة التصوف من ظاهر اللبس الذي كان يرتديه المتصوفين "المساكين المُتنسكين".

وقد عبر السهروردي المقتول عن الصوفية فقال إن نسبة الصوفية إلى الصوف "أليق وأقرب إلى التواضع" لما فيه من رغبة في التخفي والتواري وعدم التكالب على الدنيا، فصار المتصوفون كما الخرقة "الصوف" البالية التي لا يلتفت إليها الناس لانكسارها وزهدها فيما سوى حب الإله، وقد قال القاضي زكريا الأنصاري رحمه الله إن "التصوف علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية.

وقد أدلى الإمام الجُنيد رحمه الله بدَلْوه في هذا؛ فقال إن التصوف يتمثل في "استعمال كل خلق سُني، وترك كل خلق دنيوي".

وهذا يتفق مع ما قاله البعض من أن التصوف هو الأخلاق، فمن كان متصوفًا كان زائدًا على أقرانه بالأخلاق، وفي تعريف الصوفية يقول

أبو علي الروذباري، حينما سُئل عن الصوفية فقال: من لبس الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفاء، وسلك منهج المصطفى، وسُئل سهل بن عبد الله التستري مَن الصوفي؟ فقال: من صفا من الكور، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والدرر.

وقد أورد الطوسي العديد من التعريفات للصوفية من خلال تتبُّع بعض آراء المتصوفة، فقد نقل عن ذي النون المصري قوله إن الصوفية هو قوم آثروا الله تعالى على كل شيء، فآثرهم الله تعالى على كل شيء، ونقل عن أبي الحسن القناد قوله إن الصوفي "مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل في كل وقت بشرط الوفاء"، وقال الطوسي نفسه عندما سئل عن الصوفيّة إنهم "العلماء بالله، وبأحكام الله، والعاملون بما علمهم الله تعالى، والمتحققون بما استعملهم الله عزّ وجلّ، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا، لأن كل واجد قد فني بما وجد".

أما القشيري فيلقي الضوء على العديد من تعريفات الصوفية لبعض المتصوفين بقوله إن التصوف هو منبع السنة وهو منبع الأخلاق الحميدة وبوابة الخروج من الأخلاق الدنيئة، كما عبر دلف الشبلي

عن التصوف بقوله إن الصوفية هي محاولة الجلوس في حضرة الله تعالى ومعيته بلا هم"، ويعلق الكلاباذي على معنى الصوفيّة بقوله إنما سمّيت الصوفيّة صوفيّة لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، لأن الصوفية هي الصفاء، والصوفي هو من صفا قلبه لله تعالى، وأخرج من قلبه كل هم وحزن وحقد وحسد، وغسل قلبه بماء المحبة.

وهذا هو التعريف والمفهوم الشائع لدى الصوفية عن تعريف التصوف، على عكس ما ورد في العديد من الآثار والتي تقول إن الصوفية سموا صوفية لقرب أوصافهم من أهل الصفة؛ وهم الذين كانوا على عهد رسول صلى الله عليه وسلم ويقطنون جبل الصفة.

ولقد صرح العالم الكبير فخر الدين الرازي في كتابه "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" الجزء الثاني، أن المتصوفة هم قوم يُشغلون أنفسهم بتطوير الفكر الإنساني، ومحاولة انتشال النفس من التعلق بالدنيا والتركيز فقط مع التعلق بالله تعالى من خلال ذكره في سائر تصرفاتهم وأفعالهم، ملتزمين كمال الأدب مع الله، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين قاطبة.

كما أشار الإمام الشاطبي نقلاً عن أبي القاسم القشيري في كتاب

"الاعتصام" أن الصوفية تميزوا بهذا الاسم وأطلق عليهم هذا اللقب ليتميزوا عن أهل البدع، وذلك بسبب ما حدَث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اختلاف للناس وتباين الفرق والمراتب والمقامات، فاهتم صنف من الناس بالاعتناء بالدين والزهد، وظهرت على الجانب الآخر البدع وادعى كل فريق بأن له ما له، فانبرى خواص أهل السنة للدفاع عن الدين، وعلقوا أنفسهم بالله وحفظوا قلوبهم عن الغفلة بالتصوف.

وقد قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى في "الصوفية والفقراء" عن اصطلاح القوم وهم يسيرون بالصوفية إلى معنى الصديق وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون، لا مشاحة في الاصطلاح فمن جَمَعَ بين صفاء العلم في أسمى مرتبة من الشهود الجامع لعلم اليقين وعين اليقين وصفاء العمل في أسمى مرتبة من الإخلاص وصفاء الحال في ذروة الصدق والحب الإلهي والمحبوبية فادعه من الربانيين، أو قُل من الصديقين، أو ادعه صوفيا فلا جناح عليك فالمسمي واحد وان اختلفت الأسماء.

ومن القواعد المهمة لدراسة اعتقاد أئمة الصوفية أن يُلْحَظ تأكيدهم رحمهم الله تعالى على أمر التوحيد والتواصي به، كما ذكر الكلاباذي

في التعرف حيث قال: "فأول ما يلزم العبد: الاجتهاد في طلب هذا العلم وإحكامه على قدر ما أمكنه ووسعه طبعه وقوي عليه فهمه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسنة، وإجماع السلف الصالح عليه"، والسراج في اللمع حيث نقل عن المشايخ إتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصهم في ذلك.

وقد أورد ابن خَفِيف في كتابه "اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات" أورد جملاً من الاعتقاد ثم قال "إلا أنني أحببتُ أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثه طائفة انتسبوا إليهم مما قد تخرصوا من القول مما نـزَّه الله المذهب وأهله من ذلك، وقد قال القشيري في رسالته في الجزء الأول صـ ٢٤: "اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بَنَوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل".

وقد أثنى ابن تيمية في الفتاوى الجزء الثالث صـ ٣٧٧ على متقدمي الصوفية حيث قال: "وهؤلاء المشائخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة، بل كان لهم من الترغيب في أصول أهل السنة والدعاء إليه والحرص على نشرها ومُنابذة من خالفها مع

الدين والفضل والصلاح ما رفع إليه به أقدارهم".

ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي إن التصوف رياضة للنفس ومجاهدة لرغباتها، وتصفية للقلب من أدْران المادة وشوائب الحس، وهو ذوقٌ ووجْد، وفناء عن الإنِيَّة، وبقاء في الذات العلية، والمتأمل في حياة الصوفية يُلاحظ أنها تنطوي في العادة على معنيين رئيسيين، أحدهما معنى عملي يتمثل فيه ما يأخذ به السالك نفسه من ألوان الرياضات وضروب المجاهدات، والمرآة التي تنعكس على صفحتها هذا المعنى، هي المقامات التي تترقى فيها النفس مقامًا بعد مقام، ترقيًا يمكنها في النهاية من الوصول إلى درجة اليقين، والعرفان، وثانيهما معنى ذوقي روحي وهو هذا الذي يحصل في النفس ثمرة لرياضتها ومجاهدتها، فإذا هي تصفوا شيئًا فشيئًا، وتخلص من شوائبها رويدًا رويدًا.

وإذا هي تستحيل آخر الأمر إلى روح صافية نقية كما كانت قبل أن تهبط من عالم الأمر إلى هذا العالم السفلي بما فيه من أكدار المادة وعوامل الفساد، والمرآة التي ينعكس على صفحتها هذا المعنى الذوقي الروحي هي ما يعرض للنفس من أحوال ترد عليها حينًا وتتحول عنها حينًا آخر، وما تزال هذه الأحوال بين إقبال على النفس وإدبار عنها

حتى يستقر منها آخر الأمر حال يغلب عليها ويوجه حياتها الروحية، فإذا هي تشرق بنور الحق، وتعمى عن رؤية الخلق، هنالك تكون النفس قد وصلت إلى أسنى الأحوال، وتكون قد شاهدت بعين البصيرة كل ما في الوجود من آيات الحق والخير والجمال، هذان المعنيان هما أساس كل حياة صوفية.

ومن الصعب بل من المستحيل إلقاء الضوء على جميع ما ورد من تعريفات للصوفيّة وذلك لصعوبة تجميعها، ولا يتسع المقام هنا لذكرها بالتفصيل، لكن الملف للنظر أن كل هذه التعريفات والصفات ترتبط جميعًا فيما بينها برباط واحد وتخرج من مَعِين واحد، وتنصهر جميعًا في بوتقة متميزة تساهم في صرف الذهن إلى دراسة كل ما يتعلق بطبيعة الحب مع الله.

وغني عن التعريف والإشارة أنه ليس كل من لبس الصوف أصبح صوفيًّا، وليس كل من قال أنا "صوفي" أصبح صوفيًّا، فالصوفية لا تهتم باللبس بقدر اهتمامها بحالة الإنسان مع ربه ثم مع الناس، فإن الصوفية تهتم بإيمان الفرد وتقواه واتسامه بالعديد من السمات التي تساهم في وصول الصوفي إلى الإيمان المطلق بالله تعالى.

وقد أورد الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه "قضية التصوف: المدرسة الشاذلية" عن النوري قوله: "ليس التصوف رسمًا ولا علمًا، ولكنه خُلُق، لأنه لو كان رسمًا لحصل بالمجاهدة، ولو كان علمًا لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم".

ويقول الإمام الغزالي في الإحياء: "فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله".

وقد قال ابن عربي في الفتوحات:

"فاعلم أن التصوف تشبيه بخالقنا لأنه خلق فانظر ترى عجبا".

وفي "الإنسان الكامل" يقول الجيلي: "ولهذا أمرنا السيد الأواه فقال: تخلقوا بأخلاق الله؛ لتبرز أسراره المودعة في الهياكل الإنسانية، فيظهر بذلك علو العزة الربانية، ويعلم حق المرتبة الرحمانية".

وجاء في اصطلاحات الصوفية للكاشاني: "التصوف: هو التخلق بالأخلاق الإلهية".

ويعلق أبو حامد الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" على أن طريقة

الصوفية في ممارسة العبادة تتم بعلم وعمل، وكل عملهم يتركز في الانقطاع عن الأخلاق السيئة والتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكره".

كما يضيف قائلاً: إني علمت أن الصوفيّة هم "السابقون لطريق الله تعالى خاصّة، وأن سيرتهم أحسن السّير، وطريقهم أصْوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوّة، وليس وراء نور النبوّة على وجه الأرض نور يُستضاء به".

وقد جاء في كتاب "العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق" للشيخ محمود خطاب السبكي مؤسس الجمعية الشرعية بمصر أن التصوف المتقدم ذكره عُرف أيضًا بتعاريف أُخر منها: أنه الجد في السلوك إلى ملك الملوك مع الأخذ بالأحوط من الأحكام، إلى أن قال: ولذا قالوا الصوفية قعدوا على الدعائم الأصلية، ووقف غيرهم علي الرسوم، ومن هنا فازوا فوزًا عظيمًا، وبلغوا من الكمالات ما لم يصل إليه غيرهم، ولكن لا سبيل لك أيها الإنسان إلى ذلك إلا بمجاهدة النفس ليلاً ونهارًا بهِمَّة قوية.

وأشار الإمام النووي في كتابه "المقاصد في التوحيد والعبادة وأصول التصوف" إلى أن أصول طريق التصوف خمسة؛ تقوى الله في السر والعلن، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

وجاء في كتاب "الصوفية والسلفية" للشيخ إبراهيم اليوسف: ثم تكلم ابن تيمية رحمة الله تعالى عن المتصوفة فقال في المجلد الحادي عشر من الفتاوى الكبرى أن التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلموا على حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم: الصوفي من صفاء من الكدر، وامتلأ من الفكر، وهكذا.

والمتتبع لتراجم وسير مشايخ الصوفية وأقطابها يرى أن معظمهم تحول من عز إلى تواضع وتبتل، وما صدر منهم يؤكد على أنهم سلكوا الطريق الصحيح، واتصفوا بصفات قل أن تجد من يماثلهم فيها في كتاباته المختلفة، فقد وصف يوسف بن الحسين المتصوفة بقوله: "لكل أمة صفوة، وهم وديعة الله الذي أخفاهم عن خلقه، فإن يكن منهم في هذه الأمة فهم الصوفية".

وكان الإمام الغزالي من أروع نماذج الصوفية التي تهتم بأن الصوفية تعني الارتباط بالله والبعد عن كل ما يُغضبه، والسعي بكل الطرق والوسائل إلى نيل محبة الله من خلال التقرب إلى الله بالحب، ولكن كيف لنا أن نصف هذا الحب؛ هذا ما سوف نحاول استكشافه في الصفحات التالية.

ومهما يكن من أمر، فإن التصوف أفضل من أن يتم اختزاله في مجرد اللبس والزهد والتضرع لله تعالى، وتحرِّي العبادة الشكلية، بل يمتد الأمر إلى العلاقة الروحية والحب بين العبد وربه، وهو كُنْه سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والسيرة التي سار عليها صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الأوائل.

ولا يُعرف على وجه التحديد أول متصوف في الإسلام؛ فيقال إن التصوف كان أول ما ظهر في الكوفة بسبب قربها من بلاد فارس، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن أول من عرف بالصوفي هو أبوهاشم الكوفي سنة ١٥٠هـ". وقد بلغ التصوف ذروته في نهاية القرن الثالث، وواصلت الصوفية انتشارها في بلاد فارس ثم العراق ومصر والمغرب، وظهرت من خلالها الطرق الصوفية.

ويذكر أحمد الشرباصي في كتابه "الغزالي والتصوف الإسلامي" أن ابن خلدون قال إن التصوف أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها، والإنفراد عن الخلق، وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

وفي "التصوف الثورة الروحية في الإسلام" يقول أبو العلا عفيفي إنه ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة في بيئة ما إلى عوامل خارجة عنها، فنهمل بذلك العوامل الداخلية، بل يجب النظر أولا إلى البيئة العقلية والدينية والسياسية والاجتماعية التي نشأت فيها تلك الظاهرة الكبرى –التصوف– التي غيرت مجرى تاريخ الإسلام.

أما الشيخ عبدالحليم محمود رحمه الله فيرى أن أبرز ما يُميز الصوفية التجرد إلى الله وإرادة الآخرة، فهم يرون في الناس تطلعًا إلى الدنيا في أيدي الملوك والأمراء وأصحاب السلطان، ويرون تهافت الناس عليهم، وذلتهم في سبيل شهواتهم، وأهوائهم، من جاهٍ أو سلطانٍ أو مالٍ أو منصبٍ، يُراؤون ويتزلَّفون، ويتملَّقون، ويخضعون، ويكذبون، ويُنافقون من أجل عرضٍ زائلٍ أو جاهٍ يفنى، ويحاول الصوفية – في كل زمن– أن

يقودوا الناس إلى الله؛ يقودوا أصحاب السلطان بالوعظ والنصيحة إلى الله، ويقودوا الشعب بالوعظ والنصيحة والقدوة الحسنة إلى إيثار الآخرة على العاجلة – الدنيا-، وخير مثال منهم الفُضيل بن عياض، والذي كان يقول لعامة الشعب: "لئِن يدنو الرجل من جيفةٍ مُنتنةٍ خيرٌ له من أن يدنوَ إلى هؤلاء" ويريد بهم أصحاب السلطان، وكان من طرائف الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد أن قال له الرشيد يومًا، مُتعجبًا من زهده: "ما أزهدك!، فقال له الفضل: أنت أزهد مني، فقال له الرشيد: وكيف ذلك؟ قال: لأني أزهد في الدنيا وهي فانيةٌ، وأنت تزهد في الآخرة مع أنها باقية".

وجاء في عوارف المعارف أن الصوفية راضوا أنفسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، وكم من نفسٍ تُجيب إلى الأعمال ولا تُجيب إلى الأخلاق، فنفوس العُبَّاد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزُّهَّاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون بعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها، فقد أخبرنا الشيخ أبو زرعة، إجازة عن أبي بكر بن خلف، إجازة عن السُّلمي قال: سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت أبا بكر الكنانيّ يقول: التصوف خلقٌ، فمن زاد عليك في الخلُق زاد عليك في التصوف"...

فالصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل في بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه، لأن القلب ينبض بعضه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وبعضه بنور الإحسان واليقين، والسر الأكبر في ذلك أن قلب الصوفيّ بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقي إلى ذكر الذات، ويصير حينئذٍ بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة، والقلب عرشٌ في عالم الأمر والقدرة.

والتصوف من حيث هو –سواء أكان إسلاميا أو غير إسلامي– استبطانٌ مُنظم للتجربة الدينية، ولنتائج هذه التجربة في الرجل الذي يمارسها، فهو ظاهرة إنسانية ذات طابع روحي لا تحده حدودٌ مادية زمانية أو مكانية، وليس وقفًا على أمة بعينها، ولا على لغة أو جنس من الأجناس البشرية.

وكما أن المنهج الصوفي في المعرفة منهجٌ ذاتي لا يعني بالوصول إلى قانون عام، بل إن الشائع عندهم أن الطرق الموصلة إلى الحق هي بعدد الخلق، وقد رأى العديد من العلماء أن ما يُؤخذ على الاتجاه الصوفي لدى بعض الفرق الصوفية عدة أمور من بينها:

• ضعف استدلاله على ما عرض له من مسائل وقضايا، فبسبب اعتماده على التجربة الذوقية أعرض عن الاستدلال بصحيح القرآن والسنة، واكتفى بالمشاعر الوجدانية التي تعقب العمليات التعبدية من راحة النفس واطمئنان اللقب وانشراح الصدر، وهو إذا استدل بغير ذلك ربما يستدل بالخبر الضعيف والموضوع والقصة وما يرونه في باب الكرامات.

• المبالغة في التنقير على النية والتدقيق المفرط في الوسواس والخطرات، فتجد المتصوف من هؤلاء في شكٍّ دائمٍ وترددٍ مستمر فيما إذا كانت نيته خالصة لله عز وجل، وهل نوى النية المناسبة للعمل، ومن أشهر من عرف بذلك الحارث المحاسبي حيث بالغ في مسألة النية في كتابه المشهور "الرعاية لحقوق الله".

• مجاهدة النفس من خلال الأعمال القاسية من الجوع والسهر وأنواع الرياضات التي تهدف إلى إماتة نوازع النفس وشهواتها، ويرى المتصوفة أن هذا الأسلوب إذا أضيف إليه التأمل في الخلوات يفضي إلى نمو الذات وبلوغ مرحلة الكشف، وهذا أسلوب مخالف للمنهج الإسلامي في التعامل مع النفس، لأنه يعتمد على مُصادمة الفطرة، فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن

ذلك حينما علم عن ثلاثة من صحابته أن أحدهم أراد أن يصوم فلا يفطر، وأن الآخر أراد ألا يتزوج النساء، أم الثالث فأقسم أن يقوم الليل فلا ينام، لما علم بذلك صلى الله عليه وسلم قال: "والله إني لأخشاكم لله، وإني لأصوم وأفطر، وأرقد وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

أسباب ظهور التصوف[1]:

بعد انتهاء الخلافة الراشدة، وظهور حكم بني أمية أصبحت السلطة ملكية، واتبع بنو أمية سياستين اقتضاهما الحفاظ على الملك في بيتهم يتوارثونه، فمن جهة كانوا يتبعون سياسة القمع، ويعملون السيف والعسف مع الخارجين عليهم من أهل العراق، وهم يبتلونهم بالجفاة الغلاظ من الولاة والعمال، في حين يُصانعون أشراف الحجاز الذين كانت قلوب الساخطين الناقمين على سياسة بني أمية تتطلع إليهم، فترى الخلفاء يلينون لهم القول ويتجاوزون عن سيئاتهم، ويشجعون حياة اللهو والترف فيهم، بما يغدقون عليهم من العطاء، ليشغلهم عن التطلع إلى الخلافة ومناصب الدولة.

---

(١) جاء ذلك في فصل التربية الصوفية عند الغزالي للكاتب ميلود حميدات، جامعة الأغواط في مجلة حوليات التراث، وقد آثرت نقله كما هو لأهمية ما جاء فيه.

أما ذوو الجاه الذين مد لهم السلطان في الأسباب فظلوا سادرين في لهوهم وترفهم، على حين يئس الآخرون من عامة أهل الحجاز وسواد أهل العراق من كل سبب من أسباب الدنيا، وكان هذا اليأس من المنصب، والحرمان من البر، والفرار من الفتنة التي حدثت في صفوف المسلمين مدعاة لعكوفهم على العبادة والزهادة، فانطووا على أنفسهم، يتذاكرون كتاب الله وسنة نبيه، ويشغلون أنفسهم بقصص الوعظ والزهد، والتصبر بما وعد الله الصابرين من أجر وجزيل الثواب.

عاد هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة النبوية يستخلصون منها نصوص الترغيب في ما عند الله وابتغاء ثواب الآجلة ليجعلوه منهجهم في الدار الفانية، ورأوا الزهد والانصراف إلى العبادة مرقاة الصعود إلى الله، وكسب رضاه، والوصول إلى المعرفة الكاملة لملكوت الله، وهم يقننون أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب التي دنسها حب الدنيا، التي استغرق أكثر همها طلب العاجلة؛ بما فيها من رغد وزينة وجاه وسلطات.

والأصل هو معرفة الله تعالى، ثم سلوك الطريق إليه، فأما أمر الآخرة فيكفي فيه الإيمان المطلق، فإن للعارف المطيع معادا معدا، وللجاحد

العاصي معادا مشقيا، فأما المعرفة تفصيل ذلك فليس بشرط في السلوك، ولكنه زيادة التكميل للتشويق، والتحذير، ويبدو من هذا أن السلبية كانت الطابع العام، ومحاربة النفس كانت الأصل عند أولائك الزاهدين في الدنيا، وزينتها.

ومع دخول الفلسفات والثقافات الهندية والفارسية واليونانية، وجد المسلمون في جمع ذلك التراث، ونقله إلى لسانهم العربي، وعملوا على تمحيصه وتطبيقه على تراثهم مما أدى إلى ظهور تيارات جديدة تناصر الفلسفات الوافدة، أو تمازج بينها وبين ثقافتها، وعظم بذلك سلطان العقل، وطغى الجدل والمناظرات والمشاحنات، وعاد الأمر إلى أولائك الزهاد الذين انصرفوا عن الدنيا وزينتها، ولم تعد السلبية التي كانوا يؤثرونها تقبل منهم في هذا المجتمع المضطرب، فقد أصبح الفكر دعامة كل منهج من مناهج الحياة، سواء كان نظريا أو عمليا، ولذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى فلسفة نظرتهم في الحياة، حتى تنهض أسس تماثل تلك الأسس التي أقام عليها غيرهم سلوكهم في الحياة.

ومع أن التصوف الإسلامي قد ظهر للأسباب الأنفة الذكر، إلا أن التصوف موجود في كل الديانات، وكل المجتمعات قديما وحديثا، بل إن التصوف تجربة إنسانية مثله مثل الفلسفة قد يتجاوز حدود الأديان

والاعتقادات، إنه تجربة وخبرة معرفية وتربوية وأخلاقية عرفها البشر جميعا، ومارسها الناس في عقائدهم المختلفة، إنها سعي إلى تحقيق سعادة الذات، من خلال تجربة روحية ذاتية، تعمل على الاتصال بالمطلق عن طريق حدس الذات، وتسخير الجسد والعقل، لخدمة السمو الروحي.

إن التصوف عملية عبور من المادة إلى الروح، من الجسد إلى النفس، ومنه نستنتج أن التصوف يعبر عن الحس الديني عند المتصوف، ولما كان الحس الديني يمثل غريزة التعلق بالكامل أو الكمال، فإنه أمر موجود عند جميع البشر حتى عند الذين يحاولون إخفاءه أو إنكاره، إنهم دوما يدركون نقصهم وتعلقهم بالمطلق، حتى ولو اختلفوا في طبيعة هذا المطلق، أو أنكروه في الظاهر، إلا أنهم يؤمنون به في الباطن.

الصراع بين الصوفية والسلفية

من وقتٍ لآخر تظهر على الساحة العديد من القضايا القديمة المتعلقة بالصوفية والتي اختلفت حولها الاجتهادات، وتصارعت حولها الآراء، والتي يعبر الناس المؤيدون لها بالحدة تارة وباللين تارة أخرى.. وقد يصمت الجدل حولها فترة لينبعث من جديد، فمن وقت لآخر نجد أناسًا يحاولون إثارة نقاط في الصوفية قد فنَّدها العديد من العلماء من قبل، وأدلوا بدلوهم فيها، سواء كان هؤلاء العلماء من الصوفية أم من علماء السلفية، ولا شك أن كل رأي يجد له مدافعون عنه ومؤيدون له بل ومتعصبون له، الأمر الذي قد يزيد من حدة الاختلاف ويصل إلى مرحلة المغالاة في التعصب بل والتكفير.

ويقول لطف الله خوجة في كتابه "موضوع التصوف" أن الدارسين للتصوف على مذهبين:

الأول: مذهب يرى التصوف أجنبيًّا عن الإسلام في أصله، ونشأته،

وأفكاره، وعليه فهو فكر منحرف كله، وهذا رأي من يرفض التصوف جملة وتفصيلاً.

الثاني: مذهب يرى التصوف إسلاميًّا في أصله، وأفكاره، تلبَّس بالفلسفة لاحقًا، وعليه: فمنه الإسلامي (المعتدل، السني)، ومنه الفلسفي (الغالي، البدعي)، وهذا رأي طائفتين:

الأولى من المتصوفة، والثانية من غير المتصوفة.

وفي مقابل الطائفة الرافضة: طائفة من المتصوفة، ترى كل ما في التصوف حسنًا، وتقول إن "الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق"، وهذا قول ابن عربي في الفتوحات.

ولا يخفى على الجميع أن الإسلام ليس في حاجة إلى مثل هذا الاختلاف المتعصب؛ بل في حاجة إلى الحكمة والموعظة الحسنة فمن ترك المراء والجدال فقد ركن إلى الطريق الصحيح، لكننا في هذا القسم سنعرض آراء المؤيدين والمعارضين على حد سواء، وسنقف منها موقف الحياد، وسنكتفي فقط بإيضاح ما يحتاج إلى توضيح، وسنعرض الآراء التي تؤيد وجهة نظر الطرفين؛ سواء من يقول بأن الصوفية خروج على السنة وصحيح الدين، أو من يقول بأنها إعادة

إحياء للسنة ومتماشية مع الدين القويم.

يقول الإمـام الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" إن الصوفية نصَّبوا لأنفسهم مكانة أعلى بين الناس العاديين من خلال اتسامهم ببعض الصفات التي قلَّ أن يتصف بها بشر؛ فهم الأغنى بالرغم من أنهم لا يملكون شيئًا، وهم الأقوى بالرغم من أنهم كانوا أضعف من أن يدافعوا عن أنفسهم، وكانوا يستبشرون خيرًا بأنهم هم الفئة المسلمة الوحيدة التي حازت على رضا الله، فقد رضي الله عنهم وأحبّهم، وأخلصوا هم من جانبهم لله، وعبدوه عبادة خالصة، وتنكروا للدنيا وما فيها من شهوات، واعتزلوا الدنيا بكل ما فيها من مُغرَيات، ولم يكن لهم فيها أي مطلب، وما صدر من أقوال عن شيوخ الصوفيّة يبيّن لنا أنهم ما سلكوا هذا الطريق إلا عن قناعة، ولم يقولوا كلمة لم يكونوا غير مقتنعين بها، وهذا ما دفع الغزالي ليصفهم بصفات قلّ أن تجدها بين الناس.

لكل رأي مؤيدوه ومناهضوه؛ فطائفة ذمَّت الصوفية وقَدَحَت فيهم وقالوا إنهم مبتدعون وأن بدعهم خارجة عن السنة، ويؤيد هذا الكلام عدد غير قليل من علماء الأمة، وهناك طائفة أخرى ادعت أن الصوفية هم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء والصحابة، ولا مشكلة في الأمر

سوى التعصب للرأي بلا دليل يُعضده، وما خالف السنة لابد أن يتم رفضه بالإجماع ولا مُداراة ولا مُحاباة في ذلك، و"الصواب أن الصوفية (شأنهم شأن أي طائفة أخرى) مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيُخطئ، وفيهم من يُذنب فيتوب أولا يتوب".

لكن تكمن المشكلة في من انتسب للصوفية من أهل البدع والأهواء والزندقة، وتم حسابه عليهم، لكن المحققين من أهل العلم فرَّقوا بين الصوفيين العلماء العاملين بالسنة والمنتسبين لهم، ولذلك يمكن القول إن أهم الانتقادات التي يوجهها الرأي المعارض للصوفية في اتهامهم بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد؛ بمعنى أن الله قد حلّ في كل المخلوقات، أي أن المخلوق هو عين الله تعالى، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، ويرى أهل الصوفية أن هذا الكلام كفر صريح يخالف ما اجتمع عليه أهل السنة والجماعة، وما تعارف عليه المسلمون بعلمائهم وبعوامهم، وأن كل ما يُقال في هذا الأمر مخالف أيضًا لما هو مدون في كتب الصوفية تثبت، ومن غير أن يفهم مرادهم،

وقد تحدث ابن تيمية عن بعض أحوال الصادقين منهم كما جاء في

المجلد العاشر من "الفتاوى الكبرى" أن "الفناء ثلاثة أنواع، نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين:

• فالأول: فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله؛ بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب غيره، وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبو يزيد حيث قال: "أريد أن لا أريد إلا ما يريد".

• وأما النوع الثاني فهو الفناء على جهود السوي؛ وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، ولا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون...

• وأما النوع الثالث: مما قد يسمى فناءً؛ فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهو فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد...

وقد قال الإمام ابن تيمية في مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية، قسم التصوف، الجزء ١١، الصفحة ٧٤ – ٧٥.: "ليس أحدً من أهل المعرفة

باللّه، يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به، وإن سُمع شيء من ذلك منقولٌ عن بعض أكابر الشيوخ فكثيرٌ منه مكذوب، اختلقه الأفَّاكُون من الاتحادية المُباحية، الذين أضلَّهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية"، وفي هذا تبرئة الصوفية من تهمة القول بالاتحاد

كما قال في مجموع رسائل ابن تيمية، صفحة ٥٢.: وأما قول الشاعر في شعره: (أنا مَنْ أهوى، ومَنْ أهوى أنا) فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي، كاتحاد أحد المحبّين بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل؛ وهذا تشابه وتماثل، لا اتحاد العين بالعين، إذا كان قد استغرق في محبوبه، حتى فني به عن رؤية نفسه

وبذلك يتضح موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والمتصوفين وأنه يحارب المُدَّعين المُغالين فقط، ولم يُنكر أحد أن من الصوفية الحق العلماء العاملين، كما جاء في "عوارف المعارف" للسهروردي والذي يقول عن الصوفية إن إيثاره وتفضيله يذهب إلى هَدْي هؤلاء القوم، ومحبته لهم علمًا بشرف حالهم وصحة طريقهم القائم على الكتاب والسنة والبعد عن البدع والأهواء.

وقد تحدث الإمـام ابن عابدين في "الرسالة السابعة، شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل" صفحة ١٧٢ - ١٧٣ عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قِبل أشخاص تزيَّنوا بزِي العلم، وانتحلوا اسم الصوفية، ثم استدرك الكلام عن الصوفية الصادقين حتى لا يُظن أنه يتكلم عنهم عامة فقال: "ولا كلام لنا مع الصُدّقِ من ساداتنا الصوفية المبرئين عن كل خصلة رديّة، فقد سُئل إمامُ الطائفتين الجنيد: "إن أقوامًا يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع الله يفرحون، فإنهم قوم قطّعت الطريقُ أكبادَهم، ومزّق النصبُ فؤادَهم، وضاقوا ذرعًا فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواةً لحالهم، ولو ذُقْتَ مذاقهم عذرتهم في صياحهم".

وعلى الرغم من ذلك فهناك من يقول بأن التصوف بدعة، وأنه ليس من الإسلام في شيء، وأنه لم يرد لفظ "تصوف" عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن التصوف كله باطل، وأن الصوفية زائلة، وأنهم أعداء الدين، وأنهم ليسوا من المسلمين؛ بل من اليونان، وأن فيهم مجوسية وبوذية، وأنهم يُنسبون كل هذه الأقوال إلى علماء من علماء السلفية، مع أن الواقع خلاف ذلك، إذ أن المتتبع لفتاوى علماء السلفية وسادتهم يجد أنهم يعتبرون الصوفية طائفة إسلامية كأي الطوائف الإسلامية

الأخرى؛ فيهم من يُصيب ومن يُخطئ، فيهم الجيد والرديء، فيهم الصالح والطالح، فيهم الصوفي الحق والمدَّعي.

فإننا هنا حينما نستخدم لفظ الصوفية والمتصوفة فإننا نتحدث عن الصالحين منهم الذين حافظوا على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يبتدعوا في الدين، ولم يُقدسوا شيوخهم حد التأليه، بل إننا نقصد كل من ينتسب لهذه الطائفة الكريمة عن حق، ويهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينبذ كل ما يخالف شرع الله جل وعلا، فلا يُنكر أحد دور علماء الصوفية في الدعوة الإسلامية وفي العلم وفي حركة النهضة التي شهدتها العصور التالية للإسلام أمثال الفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، والجُنيد، وغيرهم ممن سار على نهجهم.

ويرى الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابه "فتاوى ورسائل" أن الصوفية والتصوف سندهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم "وإليه ينتسبون" إذ قال "اعلم – أرشدك الله – أن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى الذي هو العلم النافع، ودين الحق الذي هو العمل الصالح، فإذا كان من ينتسب إلى الدين منهم من (يعتني) بالعلم والفقه ويقول به الفقهاء، ومنهم من (يعتني) بالعبادة

وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين (أي الفقه والتصوف)".

وقد أشار الشيخ محمد منظور النعماني في رسالته "دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب" إلى أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب أنهى رسالته بقوله "ولا ننكر الطريقة الصوفية، وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها علي القانون الشرعي"، ولم يكن محمد بن عبدالوهاب وحده، من علماء السلفية وأئمتهم، الذي أشاد بالصوفية الحق، فقد كان العلامة ابن القيم "عالمًا بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، و(كانت) له في كل فن من هذه الفنون (باعٌ طويلٌ)" وذلك حسبما ذكره الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي في "طبقات الحنابلة" في ترجمته للإمام ابن القيم.

وقد قال الإمام السيوطي في "تأييد الحقيقة العلية" صفحة ٥٧: "إن التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبرّي من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليم لله، والرضى به وبقضائه، وطلبِ محبته، واحتقارِ ما سواه.. وعلمتُ أيضًا أنه قد كثر فيه الدخيل من قومٍ تشبَّهوا

بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فوُجّه أهلُ العلم للتمييز بين الصنفين ليُعلمَ أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أرَ صوفيًّا محقّقًا يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاةُ الذين ادّعَوْا أنهم صوفية وليسوا منهم".

وفي "مدارج السالكين" قال أبو عبدالرحمن السلمي إنه سمع الإمام الجُنيد يقول: "إذا أراد الله بالمريد خيرًا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء" فقال له السلمي "إذا صدق المريد وصح عقد صدقه مع الله، فتح الله على قلبه ببركة الصدق، وحسن المعاملة مع الله ما يُغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم".

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، كما ورد في "تأييد الحقيقة العلية" للسيوطي، صفحة ١٣ "صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين؛ سمعتهم يقولون الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل، فقلت يا لهما من كلمتين؛ ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما علي علو همة قائلهما ويقظته".

فيحرص الإمام الشافعي على الاقتداء بالصوفية ويستفيد منهم ويغترف من معينهم، وكان يقول رحمه الله كما ورد في "كشف الخفا

ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس"، للإمام العجواني، الجزء ١ صفحة ٣٤١: "حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف، كما يؤكد للجميع تعظيم واحترام الإمام الشافعي للصوفية ما ورد في "التصوف في تراث ابن تيمية" صفحة ٣٩: أنه "مر طائفة من المتصوفة على أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه في صحن المسجد، فقال الشافعي رضي الله عنه: والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة ما على وجه الأرض في هذه الساعة قومٌ أكرم على الله عز وجل منهم".

فكفى بالصوفية فخرًا إشادة الإمام الشافعي والسيوطي والشاطبي بهم وبأخلاقهم وطباعهم، لكن لا يشك أحدٌ أن الصوفية طالتها العديد من السلبيات والشوائب التي كانت إما بقصد أو بدون قصد، لأن التصوف في جوهره دعوة لإحياء الروح، ومنهج لمجاهدة النفس والسمو بها، أفلا يُعتبر ذلك عاملاً إيجابيًّا يستحق التزكية؟

وكان الإمام الشاطبي قد عقد العزم قبيل وفاته على أن يكتب مؤلفًا لتبيان حقيقة الصوفية ومقاصدها الفعلية فقال قبيل وفاته في كتابه "الاعتصام" الجزء الأول صفحة ٩٠: "وفي غرضي إن فسح الله في

المدة وأعانني بفضله ويسر لي الأسباب أن ألخص في طريقة القوم أنموذجًا يُستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المُثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قومٍ تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادَّعوا الدخول فيها من غير سلوكٍ شرعي ولا فهمٍ لمقاصد أهلها، وتقوّلوا عليهم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم، وأعظم من ذلك أنهم يتساهلون في اتباع السنة، ويروْن اختراع العبادات طريقًا للتعبد صحيحًا، وطريقة القوم بريئة من هذا الخباط بحمد الله".

ولهذا فإن أردنا الوقوف على حقيقة الصوفية، فلابد أن نلقي الضوء على ما قاله علماؤها وساداتها، وهل في كلامهم ما يُناقض كتاب الله وسنة رسوله الكريم، أم أن هناك العديد من الآراء التي أُسيء تفسيرها وحمِّلها عليهم دون وجه حق، أو سبب واضح سوى النيل من الصوفية والمتصوفة.

يقول أبو القاسم الجنيد، وهو من أئمة الصوفية، إن الله سبحانه وتعالى يُيسر على كل من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته، ويفيض عليه بالفتوحات والفيوضات الإلهية التي تسهل له كل

أموره، وتُزيد من تعلقه بالواحد الديَّان فقال: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم"، كما قال في موضع آخر "من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر - أي التصوف – لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"، وسئل الجنيد عن أول مقام التوحيد فقال: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كأنك تراه".

ويقول الصوفي والمؤرخ المشهور، عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥ هـ) في "الرسالة القشيرية" إن الصوفية اعتمدوا الآيات القرآنية لشرح المقامات الصوفية تدليلاً على أن القرآن الكريم والحديث أساس، وذلك من أجل إحكام مبنى الطريق، وبيان صفتها.

وقد جاء في "نور التحقيق" للشيخ حامد صقر، صفحة ٩٦ أن العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء : والذي كان قد أخذ التصوف عن شهاب الدين عمر السهروردي، وسلك على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قال: "قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم، ومما يدلك على ذلك، ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، فلو كان العلم من غير عمل، يُرضي

الحق تعالى كل الرضا، لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات".

وقد جاء في "مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف" صفحة ٢٠ أن الإمام النووي – رحمه الله- قال: أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، الرضى عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء"، وقال النووي في كتابه "المقاصد في بيان العقائد وأصول الأحكام" صفحة ٩٢: "أصول الدّين أربعة الكتابُ والسنّةُ والإجماع والقياس المعتبران، وما خالف هذه الأربعة فهو بدعةٌ ومرتكبُه مُبتدع، يتَعَيّنُ اجتنابه وزجرهُ، ومن المطلوب اعتقاد من علم وعمل ولازم أدب الشريعة، وصحب الصّالحين، وأمّا من كان مسلوبًا عقلهُ أو مغلوبًا عليه، كالمجاذيب، فنسلّم لهم ونفوّض إلى الله شأنهم، مع وجوب إنكار ما يقع منهم مخالفًا لظاهر الأمر، حفظًا لقوانين الشّرع".

ويقول التستي وهو من كبار علماء الصوفية إن منهج الصوفية يقوم على سبعة أعمدة؛ التمسك بكتاب الله، والاقتداء بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال الطيب، والبعد عن الحرام الخبيث،

وكف الأذى عن الناس، وتجنب المعاصي لزوم التوبة، وأداء الحقوق لأصحابها دون نقصان.

من خلال كلامه يتضح لنا أن محبة الله تقتضي أن يحب العبد ما يحبه ربه، ويسير وفق الوحي الذي أنزله على رسوله، ويقطع صلته بكل ما يغضب الله تعالى ويجتنب نواهيه، كما أن من دواعي محبة العبد لله أن يُؤثر العبد رضا الله على رضا نفسه، لأن المحب يُؤثر حبيبه على نفسه، ويلزم كل ما يحبه حبيبه، ويبتعد عن كل ما يُغضبه، وبهذا تكون للمحبة ثمارها حسبما هو منصوص عليه لدى العديد من أئمة الصوفية وعلماؤها.

وفي ذلك يقول سهل بن عبد الله، وهو من كبار الصوفية، إن كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء – أي بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – فهو من هوى النفس، ولا يقبله الله تعالى، كما يقول إمام الصوفية أحمد بن أبي الحواري إن كل عمل لا يُتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطل، ويقول إمام الصوفية الكبير ابن عطاء الله السكندري "من ألزم نفسه آداب السنة، نَوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة (الرسول صلى الله عليه وسلم) في أوامره وأفعاله وأخلاقه"، أي لا دليل يقود الإنسان في طريقه ولا إشارة تدل

على الوصول للطريق القويم سوى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وصفاته.

وهنا يتضح لنا أن أولى الناس بالمحبة بعد الله عز وجل هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فبسُنته أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكانت نبراسًا للناس، وعونًا لهم على عبور الطريق القصير وصولاً إلى الطريق الطويل وهي الدار الآخرة، فحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان، فقال تعالى "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم"، وتظهر آثار محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحب، فلا تجده في مكان ولا موقف لم يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يترك خيرا فعله رسول الله إلا فعله، فكما قال محيي الدين بن عربي "لا يرتجي الوصول من لم يُتابع الرسول صلى الله عليه وسلم".

وقد ورد في صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم "لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليَّ من

نفسي، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم "الآن يا عمر".

ولهذا السبب قال الإمام الغزالي عن الصوفية إن من يسلك سبيل الله وطريقه من الناس قليل، وهناك الكثير من المدعين، لكن إن أردت تمييز الصادق من المدعي فما عليك إلا أن تزن أفعال العبد بميزان الشرع، وهل توافق مصادر التشريع أم لا، ثم أن تزن أفعاله بميزان النوافل، فمن يصل إلى هذا الطريق ينبغي أن يكون محافظًا على الفرائض والنوافل على حد سواء، ولا يصل إلى هذا الطريق من يُهمل أحدهما.

فمن يقول إن محبة الله تقوم على العلاقة القلبية، والصلة بين العبد وربه، ولا دخل للعمل والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في القول والفعل فيها، فلا هم صوفية ولا يُمكن أن نطلق عليهم ذلك، بل هم قومٌ اتبعوا هواهم واتخذوه إلهًا (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ) سورة الجاثية: الآية رقم ٢٣.

ومن كلام علماء الصوفية وأئمتها والتي أوردنا بعضها فيما سبق يتضح لنا أن الصوفي هو من بلغ درجة كبيرة في تقوى الله، والالتزام بأوامره

واجتناب نواهيه، واتباع منهج الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما ما دون ذلك فلا هم صوفية ولا ينتمون لها، بل مجموعة من المدَّعين الذين حاولوا تشكيك الناس في الصوفية لأغراض قد تختلف من طائفة لأخرى، بسبب حب الناس للصوفية وإقبالهم على المتصوفين، فمن يفعل غير ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى وإن كان ممن يدعي الكشف والولاية، فلا طاعة له ولا اقتداء به إن لم يوافق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وللصوفية نصيبٌ من كلام الإمام أحمد بن حنبل، إذ كان – رحمة الله عليه – يُعلي من شان الصوفية ويرفع من قدرهم؛ لأنهم بحسب كلامه أئمة هدى وصلاح وخير لهذه الأمة، ومن أبرز الأدلة على ذلك ما نقله محمد السفاريني الحنبلي عن الإمام أحمد في "غذاء اللباب شرح منظومة الآداب" الجزء ١ صفحة ١٢٠، وأيضًا في "حقائق عن التصوف" صفحة ٣٦٣، إذ قال عن الصوفية: "لا أعلم أقوامًا أفضل منهم. قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة".

وورد عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قبل مصاحبة أبوحمزة البغدادي كان يحذر ابنه عبد الله من صُحبتهم، إذ كان يقول له كما ورد في

"تنوير القلوب" لأمير الكردي، صفحة ٤٣٧: "يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه، فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة".

وأخيرًا بعد هذه الحجج الدامغة من أقوال العلماء الأجلاء الدين يُعتد بشهادتهم، ولا يستغني باحث عن الاستدلال بآرائهم في شتى العلوم المختلفة كالفقه والأصول والتفسير والحديث هل يشك عاقل في نسبة التصوف والصوفية إلى أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بالكتاب والسنة؛ اللهم إلا إذا كان الهوى والتعصب هو الذي يحول بينه وبين البحث العلمي الصحيح والحقيقة.

وأنه إذا كنا نسمع أن هناك خصومةً وتعارضًا بين الصوفية والسلفية فذلك مع أدعياء التصوف وليس مع الصوفية الصادقين؛ لأن الصوفية هم كبار العلماء الذين خدموا الأمة بمؤلفاتهم في مختلف فروع علوم الدين الإسلامي الحنيف، وإذا أردنا أن ننسب أحدًا إلى السلف الصالح فلن نجد غيرهم، فالقول بوجود خلاف بين الصوفية والسلفية غير

صحيح وإنما الخلاف بين من انتسبوا إلى التصوف كذبًا وافتراءً، وبين غيرهم أو ممن يدعون الانتساب إلى السلفية.

لذا كان لابد لكل باحث أن يقوم بمراجعة النصوص التي أوردتها الكتب المختلفة من كتب أئمة السلفية والصوفية، لأن تلك النصوص هي التي تحدد سمات الصوفي الحق، ولا مبرر للهجوم على الصوفية من مجرد ذكر أن اسمها غير مذكور في الكتاب والسنة، فإن صح هذا الهجوم كان لابد من رفض العديد من العلوم الشرعية كالحديث والعقيدة والتوحيد والتجويد وغيرها لأنها لم تكن موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهنا لا تعنينا المسميات كما قال الإمام ابن تيمية "لا مشاحة في الاصطلاح"، وما يعنينا هو الحقيقة والمضمون، وما هي عليه عقيدة هؤلاء الصوفية وآرائهم، وهل يوافق هواهم ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتمع عليه علماء الأمة أم لا.

ولأنني قطعت العهد عل نفسي بعدم مُداراه أو كتمان ما يصلني من علم أو من أبحاث أو من أقوال سواء ضد الصوفية أو معها أن أُوردها هذا الكتاب، فكان لابد أن أفرد بعض الصفحات لتأصيل بحثيّ قام به لطف الله خوجة في كتابه "موضوع التصوف"، علَّ هذا التأصل نجد فيه ما يسد رمق الفكر الجائع لمعرفة المزيد عن الصوفية والصراع بين

الصوفية والسلفية كمذهب، وهل هناك تنافر أم تقارب بينهما، فإلى هذه السطور التالية التي أختم بها الحديث في هذه النقطة.

ظاهرة اتهام أئمة التصوف - للباحث لطف الله خوجة

بدراسة نشأة التصوف يتضح أن هذه الفكرة لم تظهر في صورة مذهب، له حملته، وله أصوله وأفكاره، إلا في نهاية القرن الثاني، وبداية الثالث[1]؛ أي بعد انتهاء القرون الثلاثة المفضلة، فليس من أئمته إذن من هو من التابعين، دع من فوقهم، وفي هذا دلالة على:

- أنه مذهب بدعي حادث، وهذا ما قرره الأئمة الذين أنكروا على ما جاء به المتصوفة[2].

- وأن الذي كان عليه، أولئك المتصوفة الذين سلموا من الفلسفة والغلو، ليس الحالة الكاملة بلا شك، ومثل هذا التقرير نجده في كلام ابن تيمية[3].

---

(١) انظر: مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف ص٤.

(٢) انظر: على سبيل المثال قول أبي زرعة في الحارث المحاسبي في: «تلبيس إبليس». ص١٦٦.

(٣) انظر: الفتاوى ٣٥٨/١٠، الاستقامة ٨٩/١.

وبدراسة تراجم أئمة التصوف، منذ بدايته حتى القرون اللاحقة: نجد فيها حقائق خطيرة. فإن كثيرا منهم تعرض للإنكار من العلماء والأئمة، فمنهم من هجر، وحُذّر منه، ومنهم سجن، ومنهم من هرب، واختفى، ومنهم من تخفى بمذهب آخر:

- ساق ابن الجوزي سنده إلى أبي عبد الرحمن السلمي قال:

- "أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية: ذو النون المصري. فأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم، وكان رئيس مصر، وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر، لما شاع خبره: أنه أحدث علمًا لم يتكلم فيه السلف، حتى رموه بالزندقة.

- قال السلمي: وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق. وقالوا: أنه يزعم أنه يرى الملائكة، وأنهم يكلمونه.

- وشهد قوم على أحمد بن أبي الحواري: أنه يفضل الأولياء على الأنبياء، فهرب من دمشق إلى مكة.

- وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول، حتى أنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: لي معراج كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم معراج. فأخرجوه من بسطام، فأقام بمكة سنتين، ثم رجع

إلى جرجان، فأقام بها إلى أن مات الحسين بن عيسى، ثم رجع إلى بسطام.

- قال السلمي: وحكي رجل عن سهل بن عبد الله التستري أنه يقول: إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، وإن يتكلم عليهم. فأنكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة فمات بها"[1].

هذه القصص يذكرها الصوفية، ويقرون بحدوثها، ويذمون المنكرين: أنهم لم يتوصلوا إلى فهم دقائق كلام الأئمة، فأنكروا عن جهل.

وممن اعتنى بذكر هذه الحكايات، وتفسير ما وقع لهؤلاء الأئمة: السراج الطوسي:

- فذكر ما تعرض له أبو يزيد البسطامي من النكير، لأجل كلمات قالها، مثل قوله: "سبحاني، سبحاني"، ثم شرع يدفع عنه، بما يراه لائقا صوابا، كإنكار أن يكون قاله، أو تأويله – إن كان قاله - بأنه يسبح الله تعالى لا غير[2].

- وقول النوري لما سمع أذان المؤذن: "طعنة، وشم الموت"، ولما سمع نباح الكلاب: "لبيك، وسعديك"، وأن الله تعالى كان معه في البيت،

(١) تلبيس إبليس ص١٦٦.

(٢) اللمع ص٤٧٢-٤٧٣

ورفعه إلى الخليفة الموفق في ذلك، وجوابه عن كلماته تلك، وبكاء الخليفة، وثناؤه عليه، وإخلاء سبيله[1] .

- وما كان يقوله أبو حمزة الصوفي إذا سمع صوتا، مثل هبوب الرياح، وخرير الماء، وصياح الطيور؛ إذ كان يصيح فيقول: "لبيك"، فرموه بالحلول، قال الطوسي: "لبعد فهمهم في معنى إشارته؛ ذلك أن أرباب القلوب، ومن كان قلبه حاضرًا بين يدي الله، ويكون دائم الذكر لله، فيرى الأشياء كلها بالله، ولله، ومن الله، وإلى الله، فإذا سمع كلامه، فكأن ذلك سمعه من الله، ولا يكون ذلك الحال إلا لعبد مجموع على الله"[2].

- قال: "باب ذكر جماعة من المشايخ الذين رموهم بالكفر، ونصبوا العداوة معهم، ورفعوهم إلى السلطان"، فأعاد ذكر علة ذلك؛ أنهم لم يفهموا إشارتهم..!!.

- ثم ما تعرض له ذو النون، لما حمل إلى المتوكل، ثم جوابه، وأنه أعاده معززا مكرما.

- وما تعرض له سمنون، الذي كاد أن يضرب عنقه، بسبب وشاية غلام

(١) اللمع ص٤٩٢-٤٩٣.

(٢) اللمع ص٤٩٥.

الخليل.

-وأبو سعيد الخراز، أنكر عليه جماعة من العلماء، ونسبوه إلى الكفر؛ لألفاظ وجدت في كتاب صنفه، هو: "كتاب السر"، ليس فيه جواب غير قول: "الله".

-وذكر ما تعرض له الحلاج من القتل، بعد أن أخذ كتابا لعمرو بن عثمان المكي فيه شيء من علوم الخاصة، وهرب. فتتبأ عمرو بقتله، وقطع يديه ورجليه، فكان ذلك[1].

-وما حدث لسهل بن عبد الله، الذي نسبه إلى الكفر رجل ينسب إلى العلم والعبادة، فهيج عليه العامة، حتى وثبوا عليه، فخرج من تستر إلى البصرة.

- وأبو عبد الله الحسين بن مكي الصبيحي، الذي تكلم في شيء من الأسماء والصفات وعلم الحروف، فكفره أبو عبد الله الزبيري، وهيج العامة عليه.

(١) صنيع الطوسي هذا، يدل على توليه الحلاج، حيث عده في المشايخ الذين نسبوا إلى الكفر، وما ذكر منهم إلا من ارتضى سيرته.. وقد احتال لذكره، فلم يذكره ابتداء، بل ألحقه بعمرو بن عثمان المكي، الذي لم يذكر عنه تعرضه لشيء من التهمة، بل ذكر كتابه الذي كان سببا في قتل الحلاج. إذن الحلاج هو المقصود بالذكر؛ لأن قصته مناسبة لعنوان الباب، دون عمرو بن عثمان المكي..!!.

- وأبو العباس أحمد بن عطاء، الذي رفع إلى السلطان، ونسب إلى الكفر والزندقة.

- والجنيد، الذي طلب مرارا، وأخذ، وشهدوا عليه بالكفر والزندقة[1].

والقشيري ذكر شيئا من هذا فقال:

- "سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق، يقول: لما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة، أمر بضرب أعناقهم؛ فأما الجنيد فإنه تستر بالفقه، وكان يفتى على مذهب أبي ثور"[2].

يقول المستشرق نيكلسون:

- "ويذهب الجامي إلى أن الجنيد كان أول من صاغ المعاني الصوفية، وشرحها كتابة، وأنه كان يعلم التصوف سرا في بيوت خاصة، وفي السراديب، في حين كان الشبلي يتكلم في مسائل التصوف علانية. ومن هذا نستنتج أن أهل السنة الذين أعاد إليهم الخليفة المتوكل سابق نفوذهم، كانوا أكثر تسامحا، وأقل اضطهادا للصوفية، منهم لرجال المعتزلة. ومما يؤيد ذلك: ما روي من أن ذا النون المصري عندما اتهم بالزندقة، وأرسل إلى بغداد لمحاكمته، مَثَل أمام المتوكل،

(١) اللمع ص٤٩٧-٥٠١.

(٢) الرسالة ٥٠٣/٢.

ووعظه، فعفا عنه، ورده إلى وطنه. بل الجنيد نفسه قد اتهم بالزندقة مرارا، واتهم عدد كبير من الصوفية بهذه التهمة، فيما يعرف بمحنة الصوفية ببغداد، وهو المحنة التي فر على إثرها أبو سعيد الخراز الصوفي إلى مصر[1]" .

والذين لحقهم هذا الحال أكثر ممن ذكر، بل لا تكاد تجد إماما من هذه الطائفة، مشهورا في ناحية، إلا وله قصة مع العلماء والعامة، من هذا القبيل..!!.

فهذه الظاهرة الصوفية؛ تَعَرُّضُ أئمتهم لمثل هذه المواقف الصعبة، والعسيرة. يثير التساؤل: لم هذه الظاهرة مما تميز بها الصوفية ؟. هل يمكن أن يكون ذلك كله تجنيا عليهم ؟!.

مع ملاحظة أن التهمة لعامتهم في عمومها هي من جنس واحد، تدل حول أفكار متقاربة، هي الأفكار نفسها الموجودة في كتب الصوفية، وهي النتائج نفسها التي توصلت إليها هذه الدراسة.

فهذه الأحوال التي تعرضوا لها حَرِّية بدراسة أسبابها، فإن الخط العام الذي كان عليه الناس اتباع السنة، فمن خالفها تعرض للإنكار، فهؤلاء إذن خالفوا الأمة؛ أي أنهم أتوا ببدعة استوجبت هذا النكير، ليس من

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٢٠-٢١.

إمـام واحـد، بل من كثير من الأئمة السنة، ولا في بلد واحـد، بل في كثير من البلاد، ولا في قرن واحد، بل في كل القرون.. وكان هذا منذ ابتداء أمرهم في نهاية الثاني وبداية الثالث الهجري، أي لما كانت السنة مهيمنة. وكلما كانت السنة مهيمنة: كان بلاؤهم ومحنتهم أشد. والعكس بالعكس..

فمثل الحلاج لم يسلم من القتل، ومن كان معه على مذهبه: اضطر لنفي ما نسب إليه، أو التخفي، أو الهروب.. لكن مثل: ابن عربي، وابن الفارض، والتلمساني، والقونوي، وابن سبعين. كانوا يقولون مثلما قال الحلاج وزيادة، ولم يلحقهم ما لحق الحلاج..!!.

ولا يبعد أن يكون طرف من هذه الأخبار، قد نسج على بعض الأئمة، كالجنيد، والداراني، والتستري، كما نسجت أقوال على آخرين، فنسبت إليهم، وهم منها براء. وإثبات أو نفي نسبة هذه الأخبار والأقوال، إلى هؤلاء المشايخ، يحتاج إلى بحث مستقل، ليس محله هذه الدراسة.. فهذه الدراسة معنية بالأقوال ذاتها، لا بأصحابها.

فإذا ما قيل: وهل الأقوال إلا بأصحابها؟.

قيل: هذه الأقـوال، التي هي شطحات، مسطرة في كتب الصوفية،

يتناقلونها فيما بينهم، قد صارت الجزء الأساس من التراث الصوفي، يحتجون بها، ويستندون إليها، بل ويتفاخرون بها، ويدعون إليها، ويجعلونها من الغايات، ومن الحقائق.

وأما عدم ثبوتها عن هذا أو ذاك من المشايخ، فذلك أمر لا يهم هؤلاء المتصوفة؛ فقد كتبوها، ونقلوها، وهم بالتأكيد يعتقدون بها، ولولا ذلك ما نشروها، وما ذبُّوا عنها.

وهؤلاء يمثلون اتجاهًا عامًا في التصوف، هو الأظهر، وهو المسيطر على ساحة التصوف، بل التصوف لا يُعرف إلا بهم، ومن خلال ما يتكلمون، وينقلون.

وإن كان ثمة تصوف غير هذا، الذي عليه هؤلاء، فهو مغمور خفي، لا أثر له، أو ربما وجوده متوهم، مظنون. فهذه الأقوال صارت إذن مستند التصوف المعروف، بغض النظر: أهي ثابتة أم لا ؟.

والتعامل مع هذا الواقع يحتم دراستها، ونقدها بحالها، كما هي، ولا يكفي إبطالها من جهة الثبوت، دون إبطال مضمونها، فإبطال المضمون مطلوب في كل حال.

وما يخشى من نسبة قول إلى غير قائله، فذلك يمكن تجاوز بالتنبيه:

أنه منسوب.

لكل هذا: كانت هذه الدراسة منصبة في الأفكار، والحكم متجه إليها، ليس على القائلين بها، لكنها لما نقلت منسوبة إليهم، ذكرناها منسوبة إليهم، والغرض:

- نقدها، لا نقدهم..

- والحكم عليها، لا الحكم عليهم.

المحصّلة:

كل ما سبق من الأدلة تبين أن نسبة الصوفية إلى الفلسفة أقرب منها إلى السنة، بل لا وجه لنسبتها إلى السنة:

- لا في لفظها؛ فلا علاقة لها بالصوف.

- ولا في معناها؛ فلا علاقة لها بالزهد.

- ولا في تفسيرها بالخلق؛ فله معنى خاص، يفضي إلى تشبيه الإنسان بالخالق تعالى.

- ولا من جهة المقارنة بين التصوفين: الإسلامي، والقديم. حيث ظهر

التشابه.

- ولا من جهة أئمتها، الذين تعرضوا للإنكار، بسبب ما أتوا به، مما هو مخالف لما هو سائد في مجتمع تهيمن عليه السنة والشريعة؛ فالإنكار إذن لما تضمنته دعوتهم ومذهبهم من مخالفات واضحة للسنة.

فكلها تمنع وتعيق نسبة التصوف إلى السنة والتوحيد، فهذه هي نتيجة البحث العلمي، والتاريخي، فمن أراد نقضها فعليه أن يسلك ذات الأدوات، وإلا فليس لكلامه قيمة.!!.

إن من يرى أصل التصوف سنيا محمودا، فالبرهان الذي يقدمه:

- أن أئمة التصوف الأوائل ذكروا أن طريقتهم مقيدة بالكتاب والسنة، وعليه: فإن التصوف محمود في أصله؛ إذ هو المتقيد بالشريعة، والمذموم هو ما أحدثه من بعدهم؟.

وهذا التقرير مبني على: أن هناك طريقة صوفية، أسسها الأوائل، متقيدة بالشريعة، واضحة المعالم، مفصلة المسائل، تضاهي الطرق الصوفية الفلسفية والبدعية المنتشرة، في تفصيلها، وترتيبها (يلاحظ: أن هذا التقسيم بحسب الحال، وأما إنكار التقسيم فبحسب الأصل).

والشأن في وجود هذه الطريقة المتقيدة بالشريعة، فلو وجدت، وكانت على شرطها، فبها ونعمت. لكن كيف لو أنها معدومة، لا وجود لها؟!.

حينئذ تنتفي دعوى تقسيم التصوف إلى: محمود، ومذموم. كما ينتفي قول من زعم أن أصل التصوف محمود. فإنه قول في شيء لا وجود له إلا في الأذهان، والمعركة القائمة إنما في الخارج، فكيف لنا أن نقارن بين ما في الذهن وما في الخارج ؟!.

ومن كان في شك من هذا، فليخرج لنا طريقة واحدة متقيدة بالكتاب والسنة.

وإذا كان الجنيد، أو التستري، أو الداراني، وغيرهم قد أعلنوا هذا التقيد:

- فأين هي طريقتهم، ومذهبهم ؟.

- أين هي الطرق الصوفية القائمة على التقيد بالكتاب والسنة ؟!.

مع العلم أن عامة المتصوفة، قديما وحديثا، يقولون إن طريقتهم متقيدة بالكتاب والسنة، غير أننا لا نرى إلا طرقًا فلسفية، تقرر الزندقة بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وأمثلها طريقة التي تستعمل البدع، وتسير عليها في: الذكر، والعبادة!!.

بل إننا نجد من الكلام (المنسوب) إلى هؤلاء الأئمة ما يخدم الطريقة الفلسفية، يساق جنبًا إلى جنب مع أقوالهم في التقيد بالشريعة[١]، والاتباع يسمعون هذا مع هذا، ولا يدركون التناقض، بل تفسر لهم مؤتلفة متفقة، فيعتنقون هذا التصوف بانحرافاته، وهم يزعمون ويظنون أنهم لم يخالفوا الشريعة [٢]!!.

فالحاصل والواقع أن طريقة هؤلاء الأئمة الذين أعلنوا التقيد بالشريعة: مجهولة، غير معروفة.!!.

فإذا كان هذا هو الحال، فكيف يمكن أن يقال: إن تصوف هؤلاء الأوائل هو التصوف الصحيح المحمود؟.

فهذه إحالة إلى مجهول غير معلوم، إلى خطوط عامة، ليس تحتها تفصيلات جلية، كتلك التي في الاتجاه الفلسفي، فمريد التصوف لن يجد هذه الطريقة السنية المزعومة.. لن يجد مفصلا إلا الفلسفي أو البدعي[٣] !!.

(١) انظر: أقوال الواردة عن الأئمة: الجنيد، والداراني، والتستري.. في الرسالة للقشيري.

(٢) انظر مثلا على ذلك: تفسيرات الطوسي لشطحات: البسطامي، والشبلي. في اللمع.

(٣) لا بد هنا من الإشارة إلى أن هذا التقسيم إلى: فلسفي، وبدعي. إنما هو بحسب ما طرأ على التصوف، وإلا فالأصل أن التصوف فلسفي محض، لكن بعض من تلبس بالتصوف كان عنده من العلم والإيمان ما يخفف به غلواء التصوف، وينقله إلى البدعة، فقد تصرف في الفكرة نفسها.

الفصل الثاني

الحب: مفهومه – أهميته – الحب الإلهي

الحب

الحبّ آية من آيات الله، ورحمة من رحماته العظيمة، سواء كان هذا الحب بشريًّا أم إلهيا، فالحبّ منحة جميلة من الله، وهو مودة ورحمة، وأخذ جميلً وعطاء أجملً وسعادة تحيط بالمحبين من كل صوبٍ وحدبٍ.

وأحسنُ حالة الإنسان صدقٌ وأكملُ وصفِه حاءٌ وباءُ

الحب سر الحياة، فالإنسان مُحب بطبعه؛ لأنه كائن اجتماعي يسعى بكل الطرق لمخالطة الناس واختيار أحباء منهم، فللحب أثر عميق في ترقية مشاعر وشخصية الفرد وأخلاقه وسلوكه، وللتأثر الروحي بين المحب وحبيبه دور لا يُنكر في إضفاء جو من الحميمية والنقاء بين الطرفين، وإن كان الحب في الله فقط وليس حبًّا لمصلحة أو هدف أو غاية دنيوية كان أسعى للحفاظ عليه ومدعاة للسعادة والصفاء النفسي.

وليس من شك في أن الحب فضيلة إيجابية، لأنه في جوهره إثبات وإحياء وبناء، حتى وإن كانت ملمة حب تدل على دلالة عاطفية أو وجدانية، إلا أنها في الأصل ميل إيجابي ونزوع عملي يتجلى في تحول الاهتمام من الأنا إلى الأنت، وبالتالي الحب أولا هو نية واتجاه وسلوك، في حين إن الكراهية في جوهرها إنكار وإفناء وهدم.

والحب فطرة جُبلت عليها جميع النفوس، فهو بذرة نُثرت في نُطف العباد، وتحاول النفوس من خلاله فهم حقيقة الشوق والتوْق إلى المحب، فإن كان الحب خالصًا لله منزهًا عن الرياء والسمعة كان سببًا في زيادة الإيمان، فكلما زاد الإيمان زاد الحب، وكلما زاد الحب زاد الإيمان، والحب سببٌ رئيسٌ من أسباب السعادة سواء كان حبًّا بشريًّا أم إلهيًّا، كما يساهم الحب في رفعة الذوق للمحب.

ولقد عرف الصوفية طريق الحب المنزَّه عن المادية فانتهجوا سبيله، وساروا في درْبه.. لأنهم تيقَّنوا أن الحب هو أصل طرق الوصول إلى الله تعالى، والوصول إلى معرفته، فلولا الحب ما عُرِف الله، فالحب لا يُعرف إلا بالحب، وقد قال الشيخ حافظ حكمي - رحمه الله – في "معارج القبول" الجزء الأول، إن علامةُ حبِّ العبدِ ربَّه تقديمُ محابِّه وإن خالفَت هواه، وبُغضُ ما يُبغض ربُّه، وإن مالَ إليه هواه، وموالاةُ

مَن والى اللّهَ ورسولَه، ومعاداةُ من عاداه، واتباعُ رسولِه، واقتفاءُ أثرِه، وقَبولُ هداه.

وقد قال الإمام الغزالي عن الحب: "إذا قيل لك أتحب اللّهَ ورسولَه.. فاسكتْ، فإنك إن قلت لا أخطأت خِطْئًا كبيرًا، وإن قلتَ نعم، فيسألك الأولياء عن الدليل"، وكان سلطان العارفين الصوفي محي الدين ابن عربي من أفضل من تكلم عن الحب عمومًا، والحب الإلهي المنزه عن المادية خصوصًا، فيقول: "حمدًا لرب العزّة وقد جعل الهوى حرَمًا تحجّ إليه قلوبُ الأدباء، وكعبةً تطوف بها أسرار ألباب الظرفاء، فجعل الفراق أمرَّ كأس تُذاق وجعل التلاقي عذبَ الجَنى، والوصالَ طيّب المذاق.. تجلى اسمه الجميل سبحانه فاندهشت الألباب، ففرقت في بحر حُبّه وفتحَ من دونها الباب، فدعاها الاشتياق بمنازح الأشواق، لتتوجه إليه عشقًا، وتذوبَ فيه شوقًا، فيشتدُّ أنينُها، ويطولُ حنينها، لتجرعَ كأسَ المُدام، ولم تخشَ الفناء، ومصارعَ الهلاك، بل نادت يا جميل يا مِحسان.. يا من قال: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.." يا من تيّمني بحبه، وهيّمني بين بعده وقربه، فليتني أتحقق.. وأرْنو لمشارف الحقيقة لتنعم العين والفؤاد..."

وقد قال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" إنه "ظهر بذلك أنه

لا طريق توصل إلى التقرب إلى الله – تعالى – وولايته ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم–؛ فمن ادعى ولايته والتقرب إليه ومحبته بغير هذه الطريق تبين أنه كاذب في دعواه، كما كان المشركون يتقربون إلى الله – تعالى – بعبادة من يعبدون من دونه.

وذكر د. أحمد محمود السيد في مقاله "نظرية العشق الإلهي: مراجعة شرعية وفكرية" أن العشق درجة من درجات المحبة، إذ يذكر بعض تعريفات العشق التي أوردها العديد من المفكرين والباحثين، فيعرف الهروي (ت:٤٨١هـ) المحبة بأنها (تعلق القلب بين الهمة والأنس)، بما يعني تعلق القلب بالمحبوب تعلقًا حائرًا بين طلب المحب لمحبوبة طلبًا لا ينقطع، وبين أنسه بمحبوبة.

وللمحبة درجات:

الأولى: محبة تقطع وساوس القلب، وتلذ الخدمة وتسلي عن المصائب، وتنشأ من ملاحظة العبد لنعم المولى الظاهرة والباطنة، وثبات هذه المحبة يكون بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلم والتأسي به.

والثانية: محبة تبعث على إيثار الحق على كل ما سواه، وتنشأ بسبب من

مطالعة العبد للصفات الإلهية، والارتباط بالمقامات الروحية.

والثالثة: محبة تنشأ من مشاهدة جمال المحبوب، وفي هذه الدرجة يختطف قلب المحب وتنقطع عبارته وإشارته، وحقيقة هذه الدرجة: الفناء في المحبة وفي الشهود.

والمحب إذا كان واعيًا بحبه ومكتسبًا له سمي "محبًّا"، وإذا كان مختطفًا بالحب سمي "عاشقًا"، والفرق بينهما -فيما يقول شيوخ التصوف- أن المحب مريد والعاشق مراد.

ويستمر الدكتور في قوله إن العشق الإلهي محبة مؤكدة مفرطة، فيذكر تعرف الإمام الغزالي العشق الإلهي في الإحياء قائلاً: فاعلم أن مَن عَرَف الله أحبَّه لا محالة، ومَن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته، والمحبة إذا تأكدت سُميت عشقًا، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة، ولذلك قالت العرب: "إن محمدًا قد عَشِق ربه" لـمَّا رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء.

كما يذكر أن العشق "مراتب" و"مقامات" فهو حالة من أحوال الحب الإلهي، تنتقل زيادة أو نقصانًا في مراتب (مقامات) متدرجة كما قال الغزالي في الإحياء، وهي مراتب شبيهة بأحوال العشق البشري مع

الفارق في القداسة بطبيعة الحال، هذه المراتب يمكن أن تنحصر في الأحوال الآتية:

- العلاقة: الحب اللازم للقلب وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

- الشغف: حرقة الحب للقلب مع لذة تداخلها شغفه حبه: أي إحرق قلبه مع لذة يجدها.

- اللوعة: حرقة الهوى.

- الصبابة: رقة الشوق وحرارته.

- الشوق: السفر إلى المحبوب والاشتياق: نزع النفس بكليتها إلى المحبوب.

- التبل: وهو أن يسقمه الهوى ومنه رجل متبول.

- الوصب: ألم الحب ومرضه.

- الهيام: وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه.

- الوله: وهو ذهاب العقل من الهوى.

- التتيم: وهو أن يستعبده الحب.

ويقول أحمد على زهرة في كتابه "الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة" إن

الحب الصوفي أكثر رفعة وسموًّا من الحب الحسي؛ لأنه حب نفسي يقع في موقع القلب مصدر كل العواطف السامية، لقد أحب العاشقون من النساء ليلى ولبنى وبثينة وعزة وغيرها من الجميلات، ولكن المحبوب الصوفي هو الأسمى والأشرف والأجمل والأكمل وهو اللّه الذي إذا وصف الجمال فينسبه إليه، وإذا وصف الكمال فهو الكمال الذي يضم في ربوعه الجمال وغيره من القيم، فكل قيم الحق تنطوي تحت قيمة الكمال، فالحق وحده هو الموصوف بالكمال.

والحق وحده هو المحبوب، والحق وحده هو كل شيء، فدرجة الحق هي الأول ومظهره الآخر وحقيقته الباطن وصورته الظاهر وعلمه علم الكمال، علم الإنسان ما لم يعلم، وأنزل عليه الكلمة الأولى التي هي بداية الخلق، وأنعم عليه بمعرفة الحق، ومن عرف الحق حق معرفته وجد نفسه مـرآة الحق وصورته، فالحب الإلهي أساس الحب وهي الطريقة الصوفية في الوصول اللّه وخير من عبر عن الحب الإلهي الشاعر الصوفي ابن الفارض حيث يقول: "إن الغرام هو الحياة فمت به".

الحب الإلهي المجرد عن المادية :

والله لو حلف العشاق أنهمُ موتى من الحب أو قتلى، لما حنثوا

ديوان الحلاج

ذكر الدكتور محمود حمدي زقزوق في "الموسوعة الإسلامية العامة" أن مصطلح الحب الإلهي ظهر أول ما ظهر في القرن الثاني الهجري، وكانت الحياة قبل ذلك يحركها عامل الخوف من الله ومن عقابه، وكان من أبرز ممثلي هذا الاتجاه الحسن البصري، وكانت حياة الزهاد والعباد الأوائل تمتلئ بهذا المعنى، فقد عرف عنه أنه كان يبكي من خوف الله حتى قيل كأن النار لم تخلق إلا له.

ويقول الإمام الغزالي في الإحياء في كتاب "المحبة والشوق" إن الحب الإلهي هو "الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات"، فمقام الحب الإلهي هو الأصل لكل خير، وهو الأساس لكل محبة ورضا وأنس.. ولا يسبق الحب الإلهي "مقام إلا وهو مقدمة من مقدماته كالتوبة والصبر والزهد".. فالحب الإلهي كما عرّفه شيخ

حلب السيد محمد النبهان: "هو حب الله للعبد، وحب هذا العبد لربه جل شأنه لقوله: "يحبهم ويحبونه".

ويرى ابن عربي أن الحب الروحاني هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان وهو يختلف عن الحب الطبيعي؛ إذ يهتم الحب الطبيعي بسعي المحب إلى إرضاء نفسه، بينما الحب الروحاني هو الذي يتطلب من المحب إرضاء محبوبه، فالحب الحقيقي، من وجهة نظر ابن عربي يستغرق حواس المحب وعقله فلا يرى إلا محبوبه، ولا يلقي بالاً إلا للحب الإلهي، الذي يعتبر ثمرة أعلى الفضائل الأخلاقية، وأعلى درجات السمو والروحانية، وأكد ابن عربي على أن الله تعالى يتجلى لكل محب، ويلجأ الصوفية إلى الرمز في الشعر والنثر لينقلوا مشاعرهم جملة إلى غيرهم من الناس، وفي هذا يقول ابن عربي أنه ليس هناك من دينٍ أرفع من دين الحب والشوق إلى الله تعالى.

فمن أهم ما يُميز الصوفية الحب؛ فهي قائمة على الحب؛ الحب في الله والحب لله، والحب من الله والحب لأجل الله، فتدور الصوفية حول محور الحب، وتجعل منه بؤرة تلتف قلوب المحبين حولها، يحبون الله ويحبون رسوله، ويدركون الهدف الأساسي من العبادة وهو الحب، فحتى مناجاتهم لله في أحلك اللحظات كانت بالحب، وحتى إنهم كانوا

يـردُّون على أذى الناس والإسـاءة لهم بالحب، فالحب محور الكون عندهم، وركيزة الحياة بالنسبة لهم، فها هو الحلاج بعد أصدروا حكمهم بقتله وتقطيع أوصاله وحرقه كان يدعوا بحب لجلاديه، وكان يدعوا ويقول:

"حبيبي سترتني حيث شئت، فوعزتك لو عذبوني بأنواع البلاء ما رأيته إلا أحسن النعم (منك)، لأن شعاع أنوار الضمائر قد اخترقت مكاشفات أحوال الظاهر، إلهي أخشاك لأني مذنب، وأرجوك لأني مؤمن، وأعتمد على فضلك لأني مُعتذر، وأثق بكرمك لأني أستغفر، وأنبسط إلى مناجاتك لأني حسن الظن بك".

فكان يُرجع ابتلاء الله له إلى حب الله له، وحبه لدين الله، وكان يقول إنه سيطيق أكثر من هذا الابتلاء طمعًا في رضا الله وحبًّا في جاهه، ونصرًا لدينه، وفرحًا بغضبة الناس لدين الله، وكان يدعوا لجلاديه بالهدية والحب فقال:

إلهي "لو قطعتني بالبلاء إربًا إربا ما ازددت إلا حبًّا حبًّا"، كيف أنت حين تراني قد صلبت وقتلت وأحرقت وذلك يوم من أسعد أيام عمري"، "كيف نصفى قلبنا المعتم، ليستقبل وجه الله؟! نصلى، نقرأ القرآن،

نقصد بيته، نصوم رمضان!! (نعم)!! ولكن هذه الخطوات نحو الله خطى تصنعها الأبدان، فهذه وسيلة، وربى يقصده القلب، ولا يرضى بخير الحب، تأمل إن عشقت، ألست تبغي أن تكون شبيه محبوبك، فهذا حبنا لله، أليس الله نور السموات والأرض".

وقد فسر الإمام الغزالي العشق الإلهي بأنه حالة من الحب الشديد يشتاق فيها المحب إلى لقاء الله سبحانه وتعالى، فلا ينظر إلى شيء إلا ورآه فيه سبحانه، ولا يقرع سمعه قارع إلا وسمعه منه أو فيه، فينتج عن هذا المقام أحوال من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها

وقد ورد في "معجم شعراء الحب الإلهي" أن جلال الدين الرومي عرَّف الحب بقوله إنه "يعنى أن تميل بكُلك إلى المحبوب، ثم تُؤثره على نفسك وروحك ومالك، ثم توافقه سرًّا وجهرًا، ثم تعترف بتقصيرك في حبه"، وكان الرومي يؤمن أن الحب الإلهي هو "هتك الأستار وكشف الأسرار"، وعبر عن طاقة الحب الإلهي لديه بأنها "هي النار المشتعلة في القلب، والتي تحرق كل شيء عدا مراد المحبوب"، فالحب عنده "يسقط شروط الأدب، والحب الإلهي عنده "كالغصن، حين يغرس في القلب فيثمر على قدر العقل"، وكان يقول الرومي دومًا إن "الحب أوله

ختل وآخره قتل.

وقد قال الأستاذ واصف باقي في مقاله "شعر الحب الصوفي" المنشور على الإنترنت أن هذا ما دفع شعراء التصوف إلى النظم بلغة شفافة تجذب صاحبها من دنيا الناس على عوالم ساحرة بالحكمة والطرب والهناء، وسلامة القلب ونقاء الباطن، وجلاء السريرة وأغاريب الحب مما يتمم مكارم الأخلاق ويوجه الإنسان إلى المقام الأسمى نحو الشفافية والاستقامة والسلوك الرفيع، والرشاد والفلاح، والسمو نحو مدارج الإنسانية الراقية، لتحقيق أفضل القربات وأنبل الغايات، كل ذلك بفطرة الحب التي فطر الناس عليها. فتتألق الأفئدة والأبدان والأذهان بعشق الرحمن.

وما من شك في أن مشاهدة المحبوب هي الغاية العظمى من الحب، ولها العديد من المتطلبات؛ سواء كان اللقاء لقاء حب أم رجاء أم تضرع، لكن مهما يكن فلابد للمحب أن لا يعطي ظهره لوجه محبوبه أبدًا، وذلك تأدبًا وعشقًا وهيامًا، فالحب هو اختراق الهوى والهيام للقلب، ونقاء القلب وخلوه من كل عارض يناقض الحب، لأنه لا حب بإرادة، ولا تعلق بمصلحة، ولا هيام برغبة، بل تعلق بالمحب دون غيره، وتنقيته من شوائب الأضداد، ويرى الصوفية بأن الحب هو مادام فقط

لا ما يزول، ولهذا يقول ابن عربي:

فداء المحب بما لا يزول وإن الشفاء له مستحيل

فلا تـــركن إلى غير ذا ولا تصغينَّ إلـى ما يقول

وقد ذكر الدكتور محمود حمدي زقزوق أن رابعة العدوية (ت: ١٨٥هـ) هي أول من أخرجت التصوف من الخضوع لعامل الحب، وأنها أول من استخدمت لفظ الحب استخدامًا صريحًا في مناجاتها وأقوالها المنثورة والمنظومة، وعلى يديها ظهرت نظرية العبادة من أجل محبة الله لا من أجل الخوف من النار أو الطمع في الجنة، ويرجع مؤرخو التصوف لرابعة العدوية إدخال مفهوم العشق الإلهي في التصوف الإسلامي بسمات خاصة تختلف عما ورد في مسألة العشق الإلهي في النصرانية، والذي كانت من أبرز دعاته (الأم تيريزا)، وإن أكد البعض أنها نسخة طبق الأصل منها.

وكانت رابعة العدوية أَمَـةٌ معتقة، تعزف على الناي، وظلت عازفة عن الـزواج، وأمضت حياتها الطويلة متعلقة بالحب الإلهي، ونشأت هذه الجارية بالبصرة فقيرة محرومة من أبسط ضروريات الحياة، فانحرفت إلى عالم المجون واللهو، وبعد استفاقتها اعتزلت الدنيا

ومتاعها، وعكفت على نفسها تُكفر عما اقترفته في حياتها من إثم، فبذلت نفسها كلها لله، ورفعت عنصر الحب بمعناه الحسي إلى حب إلهي، فاصطبغ توسلها إلى الله بصبغة الحب والرغبة في الاتصال بالمحبوب الأعلى كما جاء في كتاب الفلسفة وعلم الكلام والتصوف للدكتور جورج شحاتة قنواتي.س

وحكي ابن خلكان عن رابعة العدوية أنها كانت إذا جنَّ عليها الليل، نزلت بساحة سطح بيتها تناجي ربها قائلة: "إلهي هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب؛ فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار"، وعلق العديد من الباحثين منهم محمد عبدالمنعم خفاجي أن مذهب رابعة العدوية في الحب يسير على الحب الخالص لله دون حاجة ودون قصد ودون رغبة أو طمع، فهي ترى أن المحبة هي التي "تعمى وتُعم؛ تعمى عما سوى المحبوب، فلا يشهد سواه مطلوبًا"، وتعم كل خلق المحبوب، فلا يحمل قلبها ذرة من كره أو حقد تشغلها عن حب محبوبها، وفي ذلك تقول:

أحبـك حُبين حب الهـوى وحبا لأنّـك أهـل لذاكـا

فأما الذي هو حُب الهوى فشغلي بذكرك عَمّن سواكا

وأما الذي أنت أهـــلٌ لـــه فلست أرى الـكون حتى أراكـا

فما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكن لـك الحمد فـي ذا وذاكـا

كما وضح جليًّا في شعر رابعة العدوية، والذي حفلت به كتب التراث الصوفي، أن رابعة العدوية من أوائل من نادوا بحب الله لا لهدف ولا لقصد ولا لغرض، بل حب مجرد عن الرغبة، حب موجه للحبيب فقط، بقلب خالٍ من كل شيءٍ إلاه، فتراها تقول:

إني جعلتك في الفؤاد لحدّتـي وأبحث جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي فـي الـفـؤاد أنيسي

كما عبَّرت عن هذا في مواضع عدة؛ ومنها ما ذُكر في إحياء علوم الدين الجزء الرابع للإمام أبي حامد الغزالي حيث قالت:

كلهم يعبدون من خوفِ نـــارٍ ويـــرون الـنـجـاة حـظًّـا جـزيـلا

أو أن يسكنوا الجنان فيحظوا بـقـصـورٍ ويـشـربـوا سلسبيلا

ليس لي في الجنان والنـــار حـظٌّ أنـا لا أبـتـغـي بـحـبـي بديلا

وقد ذكر ابن خلكان أن لرابعة العدوية مذهبٌ في الحب الإلهي، وتؤكد على أن من يبتغيه لابد أن يتسم بالورع، لأنها ترى أن "الورع هو المدخل

الأسمى في الدخول على حضرة علام الغيوب".

وفي ذلك يقول سهل بن يحيى كما ورد في الرسالة القشيرية: "لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه هذه الأربع: أداء الفرائض بالسنن، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي عن الظاهر والباطن، والعبد على ذلك حتى الممات".

ويعود ابن خلكان ليقص رواية عن روعة وتقوى رابعة العدوية فيقول: قالت رابعة العدوية لأبيها: يا أبت، لست أجعلك في حلٍّ من حرام تطعمنيه، فقال لها: أرأيت إن لم أجد إلا حرامًا؟ قالت: نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة عن النار".

وليس معنى المحبة لأجل المحبة هو زهد الصوفية في الجنة، وعدم رغبتهم في دخولها، أو عدم رغبتهم في البعد عن النيران، بل مقصد الصوفية من عباداتهم لله تحقيق مقامات العبودية محبة وشوقًا إلى رؤية المحبوب، وفي هذا الصدد يقول ابن الفارض:

ليس سؤلي من الجنان نعيمًا غيرَ أنـي أحبها لأراكا

وقال علي العمراني الجمل في هذا الشأن:

نسيم الوصل هبّ على الندامى فأسكروهم وما شربوا مداما

ومالت منهم الأعناق ميـــــلا لأن قـلـوبـهـم مـلـئـت غـرامـا

إذا ما عاينوا الساقي تجـــلى وأيـقـظ فـي الـدجـى مـن كـان نـامَ

وناداهم عبـــادي لا تنامـــوا يـنـال الـوصـل مـن هـجـر المـنـام

ينال الوصل من سهر الليالـي على الأقـدام واستحلى القيامَ

فما مقصودهم جنـات عـدن ولا الـحـور الـحـسـان ولا الـخـيـام

سوى نظر الجليل وذا مُناهـم وهـــذا مـقـصـد الـقـوم الـكـرام

وللمختـــار مع آل وصـــحب صـــلاة الله بـــدءًا وختـامـا

وقد جاء في "نور التحقيق" أن سيدنا عيسى عليه السلام مرَّ على طائفة من العابدين الزاهدين، ورآهم قد ضعفت أجسادهم واصفرَّت وجوههم، وبَدَا عليهم التعب والوَهَن، فسألهم: من أنتم؟ وما صنيعكم؟؟ فأجابوا: نحن عبَّاد الله تعالى فقال: ولمَ تعبدون الله تعالى هكذا؟ قالوا: "خَوَّفَنا الله من ناره، فخُفنا منها"، فقال: إن الله تعالى قد أَمَّنكم مما خفتم منه"، ثم تركهم ومر بقوم آخرين عليهم نفس ما على السابقين من ملامح بل أشد وطأةً وأكثر تغيرًا، فقال: "لأي شيء تعبدتم"؟ قالوا: "شَوَّقنا الله جنتَه وما أعد فيها لأوليائه، فنحن نرجوها بعبادتنا". فقال: "إن الله أعطاكم ما رجوتم"، ثم تركهم ومرَّ

بقوم آخرين عليهم أكثر مما على السابقين "فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المُحِبون لله عز وجل، لم نعبده خوفًا من ناره، ولا شوقًا إلى جنته، ولكن حبًّا له وتعظيمًا لجلاله؛ فقال أنتم أولياء الله حقًّا، وقد أُمِرْتُ أن أُقيم معكم"، وأقام معهم فترة طويلة.

وورد في "مدارج السالكين" أنه لما سئل الجُنيد رحمه الله تعالى عن الحب، فاضت عيناه بالدمع، وخفق قلبه، ورقَّ بالهيام والشوق وقال: عبدٌ ذاهب عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوارُ هيبته، وصفاء شربه من كأس وُدِّه، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين.

فهو عبر عن الحب بآثار الحب وليس بكلام، فقد ذاق الحب، وعبر عنه حقيقة، ولا يقدر على التعبير عن الحب إلا من ذاقه، و"من ذاق عرف"، والسكر هنا من مدعاة وآثار الحب؛ فسُكْر الحب ملازم للفرد أبدًا ما دامت الحياة تدبُّ في أوصاله، فيسيطر على عقله وفكره، وقد قال عبدالرحمن ابن الدباغ الأنصاري "يصحو من الخمر شاربوها والعشق سكر على الدوام".

وتتجلى فكرة الحب الإلهي والفناء الصوفي لدي العديد من الشعراء، ومن أهمهم الشاعر الصوفي أبو الحسين سحنون الخواص والذي يأخذ الحب الإلهي من منحى محْو الإرادة البشرية وذوبانها في الإرادة الربانية، وقد قال:

وكان فؤادي خاليا قبل حبـــكمُ وكـان بـذكـر الـخـلـق يلهو ويـمـزح

فلما دعا قلبي هـــواك أجابــه فلسـت أراه عـن فـنـائـك يـبـرح

رميت ببين منك إن كنت كاذبا وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح

وإن كل شيء في البلاد بأسرها إذا غبت عـن عيني بعيني يملح

وسئل ذو النون المصري رحمه الله تعالى عن الحب فقال: الحب هو أن تحب كل ما أحبه الله من الخيرات، وتبغض ما أبغضه الله من المنكرات، وعليك بالخير كله، والبعد عما يشغلك عن الله تعالى، وان لا تخاف في الله لومة لائم، وألِن قلبك للمؤمنين، واتبع حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وصفاته، وتحرَّى سيرته ودأبه.

وهـذا يتفق مع ما أورده السيد أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى في "البرهان المؤيد"، عندما قال إن من أحب الله تعلم التواضع، وقطع نفسه عن كل ما يربطه بالدنيا الفانية، وآثر رضى الله في كل أحواله،

ولم يفتأ عن ذكره، ولم يُطِع رغبته وشيطانه في أي شيء يُبعده عن الله تعالى، ويعبده حق عبادته.

وما أجمل أن يكون هذا الحب متبادلاً، فيكون الحب من العبد لله ومن الله للعبد، قال تعالى "يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ" (المائدة: ٥٤). ويكون ذكر العبد لله يتبعه ذكر من الله للعبد، وهذا من أعظم مقاصد الذكر، فقد قال الله تعالى في سورة البقرة "١٥٢" "فاذكروني أذكُرْكُم".

وقد ورد في "معجم شعراء الحب الإلهي أن مركزية قيمة الحب في تجربة الرومي جعلته يتجاوز حدود المعتاد، ويقبل المشارب والأطياف كافة، ويقول بوحدة الحب والأديان، بل إن العاشق في نظره لا يكون صادقًا ما لم ينفتح أفقه على الخلق كله، وتعود فيوضات المحبة في شعر الرومي وفلسفته الإنسانية إلى الحب الجارف الذي كان يكتنف روحه، فالحب لديه لهيب محرقة، وفي بحر السماع ماء معين ترتوي منه الروح ما تريد وكيفما تشاء، فهو عندما يتحدث عن قيمة السماع والمجاهدة والإرادة في مكابدة النفس والوجود، كأنه يجسد فعل المحبة الشاملة، والقيم كافة التي دارت حولها تجربة جلال الدين الرومي الروحية، تصبُّ في فلسفة الحب والعشق الإلهي التي جعلها أساس الوجود الإنساني، وحول المرأة التي ينعكس فيها كل شيء.

وقد عبر جلال الدين الرومي عن أن فريد الدين العطار (صاحب منطق الطير) قد عَبَرَ مدائن الحب السبعة، بينما لم نتجاوز نحن شارعًا واحدًا، وهو بهذا القول يلقي الضوء على وديان الحب السبعة التي أشار إليها فريد الدين العطار في كتابه "منطق الطير"، والتي يتعين على المحب عبورها ليصل إلى محبوبه السامي.

وتتمثل هذا الوديان في "وادي السعي" وفيه يتعين على المحب أن يتخفف من كل رغباته،، وهو الوادي الذي يمتلئ بكل أنواع المخاطر، ثم يمر على "وادي الحب"، وهو المنطقة اللامحدودة التي يفنى المحب فيها شوقًا إلى محبوبه، ثم وادي "المعرفة الحدسية" وهو الوادي الذي يتلقى فيه الفؤاد إشراق الحقيقة واختبار الذات العلية مباشرة ودون وسيط، ثم "وادي الانفصال"، وفيه يتحرر المحب من كل رغباته ويشعر بالاستقلالية، ويغوص في نشوة الأشواق وينفصل عن الحياة البشرية.

ثم يعرج على الوادي الخامس وهو "وادي التوحيد" وفيه يصل المحب إلى حقيقة كُنه الأشياء ويفهم أن ما يظهر له كأشياء مختلفة في الظاهر هو في الحقيقة شيء واحد دون زيادة أو نقصان، ثم يعبر "وادي الدهشة"، وفيه يجد المحب الحيرة بسبب عدم فهمه لأشياء

كان يفهمها من قبل، والسبب في ذلك أن الحب حلَّ محلها ففير وجهة نظره لها، ثم الوادي الأخير وهو "وادي الموت" وفيه يفهم المحب السر الأكبر، وأن هذا المكان هو الأليق به، وأنه ليس معنى أن تذوب قطرة الماء في المحيط أن تتنازل عن طبيعتها، بل تحتفظ بتميزها في معناها.

فالحب الإلهي المجرد عن المادية من أجمل الأخلاق التي يتخلق بها الصوفية، ويعتمدون عليها في منهاج دعواهم، ومسالك طرقهم وأحوالهم، لأنهم يؤمنون أن الحب إن تمكن من قلب العبد، كان العبد كتلة حب تتحرك على الأرض، ويعيش العبد بلا كره ولا بغض ولا حقد ولا حسد، ولا تكالب على الدنيا ولا رغبة في الفوز بما ليس له من الدنيا، ويتنازل عن نصيبه من أعراض الدنيا الزائلة.

وهل يحب الله العبد كما يحب العبد الله؟! قال الله تعالى في الحديث القدسيّ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: "وما تقربَ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببْتُه كنت سمعَهُ الذي يسمع به، وبصرَهُ الذي يبصر به، ويدَهُ التي يبطشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، وإنْ سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه".

ولا يمكن إغفال حقيقة أن أساس حبِّ الله لعباده هو حبهم له وإخلاصهم لمنهجه وفرائضه، لأنه على قدر الحب يكون الالتزام، وعلى قدر الالتزام تكون الهداية والمحبة، ولا يزال العبد يتدرج في المحبة حتى يتم اختياره ليكون ربَّانًّا، لا ينام ولا يقوم ولا يتحرك ولا يسكن إلا لله وبالله ومن الله وإلى الله، فيكفيه الله بقربه منه حتى يكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، وما ظنك بعبدٍ أحبه مولاه، فكفاه وتولاه، ورضي عنه وأرضاه.

وتتجلى آثار الحب في رؤية المحب لمحبوبه، فهي الغاية العظمي من الحب، وقد مر بعض الصوفية برجل يبكي على قبر حبيبته لفراقها، فقالوا ما يبكيك؟ قال فراق حبيبي، قالوا: لقد ظلمتَ نفسك بحبك لحبيب يموت، فلو أحببتَ حبيبًا لا يموت لما تعذبت بفراقه، ولذا يقول القائل:

فإن شئتَ أن تحيا حياةً هنيئةً فلا تتخذْ شيئاً تخافُ له فَقْدا

فما الحب الإلهي سوى تجربة إيمانية بزغت في قلوبٍ هيأها الله وهيأت نفسها لأن لا تتلقى سوى إشارات حب الله، والأنس به، والقرب لدرجة التوحد مع الله، كما هو الحال عندما قال الحلاج:

لي حبيبٌ حبه وسط الحشا لو يشا يمشى على قلبي مشى

روحه روحي وروحي روحه إن يشا شئت وان شئت يشا

ثم يتابع الحلاج تجلياته حول الحب الإلهي ويقول إن "محبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار فلا (يجوز) تعظيم سواه، ومحبة الله للعبد هو أن يبتليه فلا يصلح لغيره" وبذلك لا يرى أُنسًا إلا به، فيقول الحلاج:

حويت بكل كلي كل حبك يا قدس تكاشفني حتى كأنك نفسي

أُقلب قلبي في سواك فلا أرى سوى وحشتي منه ومنك به أنسى

*****

مكانك في القلب هو القلب كله فليس لخلق في مكانك موضع

وحطتك روحي بين جلدي وأعظمي فكيف تراني إن فقدتك أصنع

*****

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناديت إياك أم ناجيت إيائي

يا عين عين وجودي يا مدى هممي يا منطقي وعباراتي وإيمائي

يا كل كلى ويا سمعي ويا بصري يا جملتي وتباعيضي وأجزائي

لبيك لبيك يا ســـــري ونجوائـــي لبيك لبيك يـا قصدي ومعنائي

ومن بين أولئك الذين تغنوا بفكرة الحب الإلهي المنزَّه عن الماديَّة، وحاولوا ترجمة هذا الحب في أشعارهم وحياتهم شاعر المحبة الإلهية الصوفي أبو علي الروذباري، والذي يدعوا إلى فكرة الفناء التام في الذات الإلهية، والاستغناء التام عن الذات البشرية، وأن الروح لو خُيّرت بين محبة الله وبين هلاكها لاختارت محبة الله:

روحي إليك بكُلها قد أجمعت لـو أن فيـها هـلـكـها مـا أقـلـعـت

تبكـي عليـك بكُلِّها عن كُلِّها حتى يُـقـالُ مـن الـبـكـاء تقطَّعت

وظهر جليًّا في أشعار ميمونة السوداء وَلَعَهَا بالمحبة الإلهية، وإشادتها بالعارفين الصوفيين السالكين مسالك الحب الإلهي، الزاهدين عن كل ما يُشغل البشر، المعروفين بأحوالهم ومقاماتهم الصوفية، المتصلين بالله وبقدسيته النورانية، إذ قالت في غير موضع[1]:

قلوبُ العارفـــين لها عيـــون تـــرى مـــا لا يـــراه الـنـاظـرونـا

وألسنة بســـــر قد تناجـــي تـغـيـب عـن الـكـرام الـكـاتـبـيـنـا

وأجنحة تطير بغيـــــر ريش إلـــى مـلـكـوت رب الـعـالـمـيـنـا

(١) وقد نُسبت هذه الأبيات في بعض المراجع إلى الحسين بن منصور الحلاج.

فتسقيها شراب الصدق صرفًا وتشرب من كؤوس العارفينا

ومن خلال الحب الإلهي وصل الصوفية إلى الاطمئنان والرضا عن الحياة وعن نفسهم، وتغاضوا عن متع الحياة وشهوات النفس، واستغنوا عنها بمتع الحب الإلهي، إذ يشعرون بقربهم من حبيبهم، وبحبه لهم، فاختاروا طريق الحب الإلهي ليتمتعوا بكونهم من خواص خواص الإله، فيئنُّون اشتياقًا للقاه، ويسجدون طمعًا لرؤياه، ولا يقبلون بأي عرض من أعراض الدنيا الزائلة التي تُثنيهم عن طريقهم ومسارهم:

قومٌ أَخلصوا في حُـــبِّه فاختارهم ورضي بهم خُدَّاما

قومٌ إذا جَنَّ الظلامُ عليهمُ أبصرْتَ قومًا سجدًا وقياما

يتلذذون بذكره في ليلهم ويُكابدون به النهارَ صياما

فسيغنمون عرائسًا بعرائسٍ ويُبَوَّؤن من الجِنان خياما

وتَقَرُّ أعينُهم بما أُخفِي لهم وسيسمعون من الجليل سلاما

ويحضرني في هذا المقام قصة ذُكرت في "لوازم الحب الإلهي" لابن عربي، حينما لقي ذو النون المصري رجلاً من أهل اليمن فقال ذو النون له: "رحمك الله، ما علامة المحب لله"، فقل له: "حبيبي إن درجة الحب درجة رفيعة"، قال: "فأنا أحب أن تصفها لي"، قال: "إن

المحبين لله شُقَّ لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب عزَّ جلال الله، فصارت أبدانهم دنيوية، وأرواحهم حُجُبية، وعقولهم سماوية، تسرح بين صفوف الملائكة، وتشاهد تلك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم حبًّا لا طمعًا في جنة، ولا خوفًا من نارٍ"، فشهق الفتى شهقة كانت فيها نفسه.

فما يعنينا هنا أن نشير إلى أن محبة الله هي غاية الزهد، وقد قيل من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وإذا أحب الإنسان ربه شغل بذكره دون غيره، فكأن ذكر الله مفتاح السماوات، وكأن النفحات الإلهية لا تهب على الإنسان إلا بالتعرض لها.

وقد أشار د. جميل صليبا في كتابه "تاريخ الفلسفة العربية" إلى وصف الغزالي للمحبة في كتاب الإحياء وبيانه أسبابها وأقسامها، وتقديمه للبحث فيها عدة مقدمات: منها أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، ومنها أن المحبة تنقسم بحسب أنواع المدركات، فلكل حاسة إدراك يخصها، ولكل إدراك لذة تخصه، والطبع السليم يميل إلى ذلك الإدراك بسبب تلك اللذة.

فمحبة الله في الدنيا تُكتسب بقطع العلائق، وبتطهير القلب من كل ما

يشغله عن الله، لأن قلب الإنسان أشبه بإناء ينقص الخمر المصبوب فيه بقدر ما يبقى فيه من الماء، فمعنى قولنا: لا إله إلا الله، أنه تعالى محبوب ومعبود، وأنه لا محبوب ولا معبود سواه، ومعنى الإخلاص، إخلاص القلب لله بحيث يكون الله محبوب القلب، ومعبود القلب ومقصوده، ومن كانت هذه حاله كانت الدنيا سجنه، لأنها تمنعه من مشاهدة محبوبه، وكان موته خلاصًا من السجن، وقدومًا على المحبوب.

وتابع الدكتور جميل صليبا في كتابه السابق حديثه قائلاً: إذا تحقق حب العارف لربه، ورآه بقلبه أورثه حالة تسمى بالوجد، وهو رفع الحجاب وحضور الفهم، ومحادثة السر، وإيناس المفقود، لا بل هو فناء العارف عن ذاته في المحبوب الإلهي، ومعنى هذا الفناء تلاشي الأجسام والأعراض، وزوالها بحيث لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله.

ولقد عبر الغزالي عن هذه الحالة بقوله: إنها البقاء مع الله بالله، وأن العبودية الكاملة لله تسمو على الخوف من العقاب أو رجاء الثواب، وتتجاوزها إلى مقام تحب النفس فيه خالقًا حبًّا خالصًا تشعر معه بفنائها فيه، والإنسان الصالح الذي لم يبلغ درجة الكمال مُطالبٌ بالصبر والشكر، أما الكامل فهو في مقام فوق الصبر والشكر، وهو

يحب الله لذاته، ويشكره على ألطافه بنفس مطمئنة راضية مرضية.

ومن بلغ هذه الدرجة من الفناء في الله، فليس له إلا أن يقول: من ذاق عرف، لأن العارف يعتريه في حال الوجد والكشف فرح غير متكلف يطير به، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحال وتبدل الصفات، قال الغزالي:" إذا حصلت المشاهدة الصوفية انمحقت الهموم والشهوات كلها، وصار القلب مستغرقًا في النعيم، فلو ألقي في النار لم يحس بها، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه، وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية."

ومن شعراء المحبة الإلهية الشاعر الصوفي ابن الفارض المصري والذي تأثر بالتجربة الصوفية للسهروردي، وكتب عدة قصائد صوفية من أشهرها تائيته الكبرى وكافيته التي يتغزَّل فيها بالذات الربانية مبديًا لَوَاعِجَه وتشوُّقه إلى الحضرة الربانية، كاشفًا عواطفه الصادقة ولهفته لرؤية الله :

ابق لـــي مقـــــــلة لعلِّي يومـــًا قبـل مـوتـي أرى بـهـا مـن رآكـا

أين منِّي ما رمت؟ هيهات بل أين لـعـيـنـي بـالـلـحـظ لـثـم ثـراكـا

وبشيري لو جـــاء منك بعطـــف ووجـودي فـي قبضتي قلت هاكا

قد كفى ما جـرى دمًا من جفون لـي قـرحـي! فـهـل جـرى مـا كفاكا

فأنا من قـــلاك فيـــك معنى قـبـل أن يـعـرف الـهـوى يـهـواكا

بانكساري بذلـتي بخضـــوعي بـافـتـقـاري بـفـاقـتـي لـغـنـاكا

لا تكلني إلى قـــوى جـلد خان فـإنـي أصـبـحـت مـن ضُـعـفـاكا

كنت تجفو وكان لي بعضُ صـبرٍ أحسن الله في اصطباري عزاكا!

كم صدود عساك ترحم شكواي ولـو بـاسـتـمـاع قـولـي عـسـاكـا!

شنّع المرجفون عنك بهجـري وأشـاعـوا أنـي سـلَـوْت هـواكـا

ما بأحشائهم عشقت، فأســلو عـنـك يـومًـا. دع يـهـجـر حاشاكا

كيف أسلو؟ ومقلتـي كلـما لاح بـريـق تـلـفَّـتـتْ لـلـقـاكـا

كل من في حماك يهواك لكـن أنـا بـكـل مـن فـي حـمـاكـا

وقال الغزالي في "المنقذ من الضلال": "وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الإتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، بل الذي لابسته هذه الحالة، لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكـره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخير.

ويقول الدكتور بليغ حمدي إسماعيل في مقالة بعنوان: "سلطان العاشقين.. التجربة الصوفية بين العقل والقلب" نشرت على موقع "ميدل إيست أون لاين" إن المحبة عند الصوفية أمرٌ يحتاج إلى تفسيرٍ دائمٍ لاسيما وأن كثيرًا من الأقلام المتطرفة تأخذه بجانبٍ يُخرج صاحبه عن الملة والمعتقد، فالحب عند أهل الحب وهم المتصوفة الأماجد حب لله وهو كما قال عنه الإمام المحاسبي حبٌّ مُحكمٌ رصين، ودوام الذكر بالقلب واللسان لله وشدة الأنس بالله، وقطع كل شاغل شغل عن الله، وتذكارٌ مُستدام للنعم.

وللإمام المحاسبي نصٌّ في ذلك، يقول فيه: "إِنَّ أَوَّلَ الْمَحَبَّةِ الطَّاعَةُ وَهِيَ مُنْتَزَعَةٌ مِنْ حُبِّ السَّيِّدِ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ كَانَ هُوَ الْمُبْتَدِئُ بِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَرَّفَهُمْ نَفْسَهُ وَدَلَّهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ عَلَى غِنَاهُ عَنْهُمْ، فَجَعَلَ الْمَحَبَّةَ لَهُ وَدَائِعَ فِي قُلُوبِ مُحِبِّيهِ، ثُمَّ أَلْبَسَهُمُ النُّورَ السَّاطِعَ فِي أَلْفَاظِهِمْ مِنْ شِدَّةِ نُورِ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ عَرَضَهُمْ سُرُورًا بِهِمْ عَلَى مَلَائِكَتِهِ حَتَّى أَحَبَّهُمُ الَّذِينَ ارْتَضَاهُمْ لِسُكْنَى أَطْبَاقِ سَمَوَاتِهِ نَشَرَ لَهُمُ الذِّكْرَ الرَّفِيعَ عَنْ خَلِيقَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مَدَحَهُمْ، وَقَبْلَ أَنْ يَحْمَدُوهُ شَكَرَهُمْ لِعِلْمِهِ السَّابِقِ فِيهِمْ أَنَّهُ يَبْلُغُهُمْ مَا كَتَبَ لَهُمْ، وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ إِلَى خَلِيقَتِهِ وَقَدِ اسْتَأْثَرَ بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهِمْ،

ثُمَّ رَدَّ أَبْدَانَ الْعُلَمَاءِ إِلَى الْخَلِيقَةِ، وَقَدْ أَوْدَعَ قُلُوبَهُمْ خَزَائِنَ الْغُيُوبِ، فَهِيَ مُعَلَّقَةٌ بِمُوَاصَلَةِ الْمَحْبُوبِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُحْيِيَهُمْ وَيُحْيِيَ الْخَلِيقَةَ بِهِمْ أَسْلَمَ لَهُمْ هِمَمَهُمْ، ثُمَّ أَجْلَسَهُمْ عَلَى كُرْسِيِّ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فَاسْتَخْرَجُوا مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْمَعْرِفَةَ بِالأَدْوَاءِ وَنَظَرُوا بِنُورِ مَعْرِفَتِهِ إِلَى مَنَابِتِ الدَّوَاءِ، ثُمَّ عَرَّفَهُمْ مِنْ أَيْنَ يَهِيجُ الدَّاءُ، وَبِمَا يَسْتَعِينُونَ عَلَى عِلاجِ قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِإِصْلاحِ الأَوْجَاعِ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِمْ فِي الرِّفْقِ عِنْدَ الْمُطَالَبَاتِ، وَضَمِنَ لَهُمْ إِجَابَةَ دُعَائِهِمْ عِنْدَ طَلَبِ الْحَاجَاتِ نَادَى بِخَطَرَاتِ التَّلْبِيَةِ مِنْ عُقُولِهِمْ فِي أَسْمَاعِ قُلُوبِهِمْ، أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ:

"يَا مَعْشَرَ الأَدِلاءِ، مَنْ أَتَاكُمْ عَلِيلا مِنْ فَقْدِي فَدَاوُوهُ، وَفَارًّا مِنْ خِدْمَتِي فَرُدُّوهُ، وَنَاسِيًا لأَيَادِيَّ وَنَعْمَائِي فَذَكِّرُوهُ، لَكُمْ خَاطَبْتُ لأَنِّي حَلِيمٌ، وَالْحَلِيمُ لا يَسْتَخِدمُ إِلا الْحُلَمَاءَ وَلا يُبِيحُ الْمَحَبَّةَ لِلْبَطَّالِينَ ضَنًّا بِمَا اسْتَأْثَرَ مِنْهَا إِذْ كَانَتْ مِنْهُ وَبِهِ تَكُونُ فَالْحُبُّ لِلَّهِ هُوَ الْحُبُّ الْمُحْكَمُ الرَّصِينُ، وَهُوَ دَوَامُ الذِّكْرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ لِلَّهِ وَشِدَّةُ الأُنْسِ بِاللَّهِ، وَقَطْعُ كُلِّ شَاغِلٍ شَغَلَ عَنِ اللَّهِ، وَتَذْكَارُ النَّعَمِ وَالأَيَادِي وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِالْجُودِ وَالْكَرَمِ وَالإِحْسَانِ اعْتَقَدَ الْحُبَّ لَهُ إِذْ عَرَفَهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ عَرَّفَهُ بِنَفْسِهِ هَدَاهُ لِدِينِهِ، وَلَمْ يَخْلُقْ فِي الأَرْضِ شَيْئًا إِلا وَهُوَ مُسَخَّرٌ لَهُ وَهُوَ أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ فَإِذَا عَظُمَتِ الْمَعْرِفَةُ وَاسْتَقَرَّتْ هَاجَ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ

وَثَبَتَ الرَّجَاءُ، قُلْتُ: خَوْفًا لِمَاذَا؟ وَرَجَاءً لِمَاذَا؟ قَالَ: خَوْفًا لِمَا ضَيَّعُوا فِي سَالِفِ الأَيَّامِ لازِمًا لِقُلُوبِهِمْ، ثُمَّ خَوْفًا ثَابِتًا لا يُفَارِقُ قُلُوبَ الْمُحِبِّينَ خَوْفًا أَنْ يُسْلَبُوا النِّعَمَ إِذَا ضَيَّعُوا الشُّكْرَ عَلَى مَا أَفَادَهُمْ، فَإِذَا تَمَكَّنَ الْخَوْفُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَأَشْرَفَتْ نُفُوسُهُمْ عَلَى حَمْلِ الْقُنُوطِ عَنْهُمْ، هَاجَ الرَّجَاءُ بِذِكْرِ سَعَةِ الرَّحْمَةِ مِنَ اللَّهِ، فَرَجَاءُ الْمُحِبِّينَ تَحْقِيقٌ، وَقُرْبَانُهُمُ الْوَسَائِلُ، فَهُمْ لا يَسْأَمُونَ مِنْ خِدْمَتِهِ، وَلا يَنْزِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ إِلا عِنْدَ أَمْرِهِ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِهِ أَنَّهُ قَدْ تَكَفَّلَ لَهُمْ بِحُسْنِ النَّظَرِ" (أ. هـ).

وقد قال الأستاذ واصف باقي إن الحب هو النور الذي يُستضاء به، والسر الذي نتكئ عليه، والمشعل الذي يسير الصوفي على هداه ليؤكد "أن الحب هو طريق الوصول إلى الله" وكما ذهب الحلاج بأن "ذات الله العليا تتمثل في الحب" وهذا يعني أن غاية الحب القصوى هي الاتصال بالله، مما يمهد الطريق للمعارف والإشراقات والفتوحات، وتلازم الأقوال مع الأفعال لنشدان الحب الإلهي وذلك بوساطة أشياء هي قمة السلوك البشري الرفيع، كالتوبة والإنابة والورع والزهد، والتوكل والرضى وما إلى ذلك، مما يدعو إلى التحرر من صرخة الجسد وطغيان الرغبات الحسية، بالترفع إلى المعاني الراقية والمراتب الذوقية التي تنأى في كل الأحوال عن شؤون المعرفة العقلية، حيث الذوقُ والكشفُ

وميلُ القلب إلى الله وليس لسواه، فيطيب عيشه، لأنه في حضور مع المحبوب الذي لا يشهد سواه من مطلوب ومبتغى وهدف؛ كما يقول أبو عبد الله القرشي: "حقيقة المحبة أن تهب كلَّك لمن أحببت فلا يبقى منك شيء، وتزداد حبًّا وتيتّمًا وولَهًا"..

فالحب الصوفي فناءٌ مطلق، يجعل من الحب والمحبوب كُلاًّ موحِّدًا.. حيث لا وَجْدَ يبعث الألم في نفس الصوفي، لأن الوجد في عُرف القوم المتصوّفة هو "بشارات الحق بالترقي إلى مقامات الشهود والمشاهدة، وهو المنشود، كما يعبّر أحدهم:

الوجد يطرب في الوجدان راحته والوجد عند حضور الحق منشود

قد كان يطربني وجدي فأشغلني عن رؤية الوجد في الموجود موجود

إن هذا الحب الروحي، المثالي، المجرد عن رغبة الجسد، ونزوة الغريزة، يجعل من صاحبه في حالة اندغام تام (أي اندماج)، وهنا تتألق النزعة الوجدانية الصافية في شعر الحب الصوفي.

وهذه الحالة الشعورية، تجعل من أنا، أنت.. وينتهي بها المطاف إلى مرتبة الفناء، وهذا ما تستدعيه الحركة الشعرية الصوفية بكل رموزها وظلالها وألوانها وإيحاءاتها، وتعبيراتها الغيبية عن الوجود الذاتي في

علم الباطن لا الظاهر، وهذا ما لا نستطيع إدراكه لأنه محصور ضمن فلك الأسرار الإلهية العليا، وموحياتها العظمى، فقد سئل النبي صلوات الله وسلامه عليه عن علم الباطن هذا فقال: "هو سرٌّ من أسراري، أجعله في قلب عبدي، لا يقف عليه أحدٌ من خلقي".

وهذا ما يتوقف عند محطة من اختصّهم الله برحمته من العارفين والمقرّبين والأولياء، الذين أشار إليهم هذا الحديث النبوي، حيث روي عن سيدنا سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله".

الفصل الثاني
الحسين بن منصور الحلاج

مقدمة في الأدب الصوفي

من خلال العرض السابق يتضح أن التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ثم تطورت تلك النزعات حتى صارت طرقًا مميزة معروفة باسم "الصوفية"، ولا شك أن ما ندعو إليه الصوفية من الزهد والورع والتوبة والرضا، إنما هي أمور من الإسلام الذي يحث على التمسك بها والعمل من أجلها.

لكن كيف يتجلى لنا هذا الحب الإلهي، وكيف وصل لنا؟ وهل كان وصوله عن طريق المشاهدات فقط، أم عن طريق الكتابة والتدوين؟ وإن كان عن طريق الأدب فهل ظهر الأدب الصوفي حديثًا؟ أم كانت له جذور ضاربة في عمق الإسلام؟

يقول فرج عمر في كتابه "التصوف في الإسلام"، ١٩٨١م، إن الشعر الديني في الإسلام هو أول منابع الأدب الصوفي، فقد بدأ هذا الشعر في الإسلام مع انتصار الدّعوة الإسلامية، لذا فترجع نشأة الأدب

الصوفي إلى العصور الإسلامية الأولى، وظهر ذلك جليًّا في شتى ألوان الأدب من شعر ونثر؛ غير أن الشعر كان له حظه ومكانته التي تشكلت وتطورت عبر العصور الإسلامية المختلفة، نظرًا لما يتمتع به من صورٍ وأساليب شكلية أو تركيبية أكسبته مزاياه الخاصة التي ميَّزته عن الكتابات النثرية.

وقد قال الدكتور حسان عبدالكريم في كتابة "التصوف في الشعر العربي: نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري" ١٩٥٤م، إن الشعر الصوفي ظهر جليًّا في شعر الفتوح وتمجيد البطولة وذكر البلاء في الحرب، والإشادة بالإسلام، وما يتّصل بذلك من مدح للرسول (ص) والمهاجرين والأنصار، ولمدح الرسول (ص) أهمية خاصة في هذا الموضوع وتلك الأهمية ترجع إلى أنّ هذه المدائح كان لها تطوّر بعيد المدى في القرون التالية في ظل التصوف الإسلامي.

وكان للشعر الديني حظه ومكانته على عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم وتفرغ العديد من الشعراء أمثال سيدنا حسان بن ثابت للدفاع عن الرسول صلي الله عليه وسلم والرد على هجاء شعراء معسكر الكفر له، كما كان في رد حسان بن ثابت على أبي سفيان بن الحارث وكان قد هجا النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

ألا أبلغْ أبا سفيـــانَ عنـــي ... فـأنـتَ مـجـوفٌ نـخـبٌ هـــواءُ

وأن سيوفنا تركتـــك عـبدًا ... وعـبـد الـــدار سـادتـهـا الإمـــاء

كَأنّ سَبِيئَةً مِنْ بَيـــتِ رَأسٍ ... تُعفيِّها الـرّوَامِـسُ والسّـمَـاءُ

هجوتَ محمدًا، فأجبتُ عنهُ ... وعـنـدَ اللّهِ فـي ذاكَ الـجـزاءُ

أتَهْجُوهُ، وَلَسْـــتَ لَهُ بكُفْءٍ ... فَشَـرُّكُـمـا لِـخَـيْـرِكُـمَـا الـفِـداءُ

هجوتَ مباركًا، برًّا، حنيـفًا ... أمـيـنَ اللّهِ، شـيـمـتـهُ الـوفـاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْـكُمْ ... ويـمـدحـهُ، وينـصـرهُ سـواءُ

فَإنَّ أبي وَوَالِدَهُ وَعِرْضـــي ... لـعـرضِ مـحـمـدٍ مـنـكـمْ وقـاءُ

فإما تثقفـــنّ بنـــو لؤيٍ ... جُـذَيْـمَـةَ، إنّ قَـتْـلَـهُـمُ شِـفَـاءُ

أولئكَ معشرٌ نصـــروا علينا ... ففـي أظـفـارنـا مـنـهـمْ دمـاءُ

وَحِلْفُ الحارِثِ بْن أبي ضِرَارٍ ... وَحِـلْـفُ قُـرَيْـظَـةٍ مِـنّـا بَـرَاءُ

لساني صارمٌ لا عيـــبَ فيهِ ... وَبَـحْـرِي لا تُـكَـدِّرُهُ الّـدلاءُ

وأحسن منك لم تر قطّ عيني ... وأجـمـل مـنـك لـم تـلـد الـنـسـاء

خُلِقْت مبـــرأً من كل عيبٍ ... كـأنـك قـد خُـلِـقْـت كـمـا تـشـاء

ولهذا يمكن القول بأن بداية الشعر الصوفي نشأت من الشعر الديني، ثم تطور بعد ذلك ليستمد مواضيعه من شعر الغزل والحب، إلى أن ظهر نوعٌ جديدٌ من الشعر على الساحة وهو الحب الإلهي، وهو الذي يستمد من صور الحب وتعبيراته المجازية والبيانية ما يصف مشاعر حب وتعلق بما لا يُرى ولا يُوصف ولا يُدرَك.

وكان للشعر الصوفي دور لا يُنكر في إذكاء فكرة الخمر الإنساني، وكيف أن الصوفيون تعتريهم أحوال جميلة من مجرد الدخول في حالة العشق الإلهي أشبه بحالة السُّكر التي يدخل فيها شارب الخمر، غير أن شارب الخمر "يصحو بعد سكرته، وشارب الحب يعيش طول العمر سكران".

ولا شك أن لغة الشاعر في شعره هي الأداة التي يستطيع من خلالها ترجمة حالته وتجربته الشعرية التي يتمكن من خلالها من التأثير على حالة المتلق الشعورية والتي تتأثر بصدق تجربة الشاعر وتنعكس على الحالة العامة للمتلقي والتي تأخذ به إلى مرحلة تصديق التجربة الشعرية الشعورية بل والدفاع عنها وقد عرّف ابن جني(ت٣٩٢هـ) اللغة بأنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم، فهي ظاهرة متصلة بالوجود الإنساني لأي مجتمع من المجتمعات؛ لأنّها تعبر عن حاجة الأقوام والمجتمعات المختلفة في حلها وترحالها.

فهي الوسيلة التي يعبر بها الشاعر عن تجربته الشعرية أياً كان موضوعها، ويكمن سر الجمال فيها في قدرة الشاعر على استخدامها استخداماً فنياً بحيث تكون اللغة شكلاً من أشكال الإنتاج الذي يعبر به الشاعر عن واقع حاله وعمّا يجول في وجدانه من انفعالات متنوعة، فيعبر عن تلك الانفعالات بطريقته الخاصة مما يكسبها تفردًا وخصوصية إذ يعبر عنها بلغته هو ويضع عليها بصماته الخاصة، والتي تؤثر هي الأخرى في حالة المتلقي الشعورية، وتأخذه إلى حالة من الهيام شبيهةً بتلك التي دخل فيها الشاعر.

واللغة في الشعر تصبح وسيلة للتعبير يتمكن بها الشاعر من التعبير عن موسيقاه وألوانه وفكره ومادته التي سوَّى منها كائنًا ذا ملامح وسمات... كائنًا ذا نبض وحركة وحياة، لأن الشعر بوصفه حالة شعورية وصناعة وجدانية تخاطب القلب مباشرة مادته الأساسية هي اللغة فهو يعد كيانًا حيًّا تشعُّ منه انفعالات الشاعر المعبرة عن تجربته الشعرية وذاته الشاعرة، ذلك أنّ لكل شاعر ذاتيته الخاصة به وتجاربه الوجدانية والانفعالية الخاصة والتي يحاول كل شاعر من خلال اللغة أن يعبر عن كل ما يجول بقلبه وخاطره تعبيرا مميزًا خاصًّا به وحده يميزه عن غيره، فمن الأدوات التي يمتلكها الشاعر والتي تبرز أصولية ما

يقوم بكتابته أن يبتكر اللغة التي تستطيع أن تعبر عن ذاتيته ومشاعره.

وتكمن براعة الشاعر في تفريغ الألفاظ التي يستخدمها من معانيها الظاهرة الواضحة للعوم، ويبث فيها معانٍ وانطباعاتٍ جديدة، تبعث في نفس المتلقي وتثير فيها الانفعالات والشجون التي يرغب في بثها، مما يُخرج الكلمة من إطارها الاعتيادي والمألوف لدى الناس، ويُكسبها دلالات ومعانٍ شعرية جديدة تبرز قيمة اللون الشعري الذي يكتب فيه، وبراعة وتمكن الشاعر من لغته، وغنى قاموس مفرداته.

وممّا يميّز لغة الشعر عن اللغة الاعتيادية ما يتمثّل بالجانب الإيقاعيّ، فهو الخاصّيّة المميّزة للقول الشعريّ والمبدأ المنظّم للغته، فهو ـــــ حسب رأي أدونيس ـــــ أشمل وأوسع من الوزن... لأنّ الإيقاع نبع، والوزن مجرى معين من مجاري هذا النبع، الإيقاع يشمل الكلمات وتجاورها، تزاوج الحروف وتنافرها، علاقة بعضها بعض، كما يحتوي على الموسيقى الخارجية، وعلى الموسيقى الداخلية، فالإيقاع يؤلّف- باعتباره خصيصة عريقة من خصائص التعبير الانفعاليّ؛ شأن الموسيقى والرقص - الشكل الخاصّ بالمعنى في الشعر، وهو يصدر عن اندفاع التأثيرات الصوتيّة للألفاظ وتتابع النبرات والتقطيعات والزخارف بتيّار الوزن والقافية. وبالطبع فإنّ هذه التأثيرات لا تحدث

بمعزل عن مغزاها في سياق القصيدة.

وممّا يميّز لغة الشعر الخيال الناتج من التراكم الثقافي، ومن الكم الهائل من الرموز والأساطير والإشارات التاريخية، ومن هنا تُصبح مطالبة الشاعر بتحويل نتاجه بحيث يُؤخذ كجرعة الماء أو يُلبس كالثوب، وهي مطالبة تؤدي في الأخير إلى القضاء على الفاعلية الشعرية وعلى الفاعلية الإبداعية جملة، وهو ___ أيضًا___ تلك القوّة التركيبيّة السحريّة التي تشيع نغمًا وروحًا يمزج ويصهر الملكات إحداها بالأخرى، هذه القوّة التي تكشف عن نفسها في توازن الصفات المتنافرة وإشاعة الانسجام بينها، إنّه حالة عاطفيّة غير عاديّة، وتنسيق فائق للعادة، ومن الخصائص الأخرى التي يؤديها الخيال للغة الشعر الغموض غير المبهم، وكذلك يقوم بتوليد الصور الحسّيّة لغرض التوضيح والتبيين، أو التهويل والإيهام، والتأليف بين عدد متباين من العناصر، وتنظيم التجربة الشعريّة لغاية محدّدة.

وإذا حلّقنا في أجواء الشعر الصوفي، على نُدرته، لوجدناه يقترب من تلك العوالم الشيقة الفيّاضة، إذ أن إلهاماتها ليست وليدة عاطفةٍ غيبية فحسب، بل إن معالم هذا الشعر الروحي الرمزي الرقيق هي وليدة معرفة ذوقية أيضًا، حيث تألق هذا اللون من الشعر في العصرين

الأموي والعباسي بعد تطور الحياة الروحية في الإسلام.

إذن فالشعر الصوفي ليس وليد عاطفة دينية مجردة، بل هو نتاج مراحل معرفية، وتجليات ذوقية بحتة، مرّ بها الشاعر عبر تطورات معينة، يلتقطها بقلمه الساحر العفوي التلقائي، بَيْد أنه لا يصورها كما يحدث في المسائل الفكرية والنظريات الفلسفية، والقواعد المنطقية، وإنما يعبّر عما يختلج في نفسه، ويضطرب في قلبه، وجوانحه من خلجاتٍ ومشاعر غير مألوفة، إذ يصوغها بقالب فني مبهر نعم.. لمست فيه غليانًا يفور في أعماق ذاته، حيث يرى في داخله ما لا يُرى.. بهدوء ونقاء رتيب عجيب، ولسان حاله يموج ويهدر:

موسيقى الصمت، وقد أغمضت وعقلي في قلبي انصهرا
وخيالٌ جاوز طاقته وامتدّ فأبصر ما استترا
وسرحتُ مع الأفلاك.. مع الأملاك أرى ما ليس يُرى
سبحاتٌ.. فاقت شاعرها لم تُقصد.. بل كانت قدرًا
غيبوبة عشق في ملكوت جمال الله.. وما فطرا

ومن أبرز ما يتميز به الشعر الصوفي السمو الروحي، والبعد عن التقليدية في معالجة الأمور الدينية، واستدعاء المعاني الفلسفية

النفسية الموجعة والعميق، والدعوة إلى الخضوع لإرادة الله، والإكثار من الخيال والفلسفة، والبعد عن النمطية في تناول الموضوعات الشعرية، واللجوء إلى الرمزية كثيرًا في تناول الموضوعات الشعرية، والميل نحو الغموض والإبهام، وبروز الشطحات الصوفية، والتأثر الكبير بالشعر الديني السني، ومحاولة تحقيق التوازن بين الأفكار السنية والأفكار الفلسفية

وتقول الدكتورة عائشة الحكمي في مقالها "الشعر الصوفي" إن الشعر الصوفي تميز في الأدب الإسلامي بعدد من القضايا والأغراض استقل بها شعراء الصوفية وتميزوا فيها عن غيرهم من الشعراء، منها:

- التقشف والزهد في الدنيا: ويتمحور حديث الشعراء فيه حول الوعظ والتذكير من ناحية، والحكمة الدينية من ناحية أخرى، حيث يمثل الزهد أحد المقامات والطرق الموصلة إلى الله.

- الحب الإلهي: ويمثل هذا الاتجاه أكثر المجالات وفرة وارتيادًا لشعراء الصوفية، حيث اتخذوا الغرض أداة للاستعانة على بثّ معاني القرب والتودد إلى الذات الإلهية

- المقامات: ويستهدف هذا الغرض من الشعر إبراز ما تحقق للعبد

من المكاسب الخاصة من خلال مجهوداته وعباداته وما حصل عليه من المواهب الربانية.

٤- المناجاة: ويعد هذا النوع من الشعر بمثابة سرد للتجربة الشخصية في التصوف

- المديح النبوي: وهو من أكثر المجالات إنتاجًا وإبداعًا لدى شعراء الصوفية، ويعتبره الصوفيون من أجل أبواب القربات إلى الله.

٦- التوسل والاستغاثة: وهو من أهم خصائص الشعر الصوفي، ويهدف إلى التماس قضاء الحاجة بواسطة النبي وبغيره من الأنبياء والأولياء الصالحين عند الله.

- مدح الشيوخ: ويستهدف هذا اللون إطراء شيوخ الطرق الصوفية وإبراز مآثرهم وكراماتهم بغرض إثبات أحقيتهم في التقديم والتبجيل.

والملاحظ أن الشعر الصوفي كان في أغلبه مدائح نبوية وتوسلات بالرسول والصحابة والأولياء، وقد تجلى هذا الاتجاه بوضوح في العصر الحديث، ولكن لماذا الحلاج؟ ولماذا تمت دراسة شعره ودراسة تأثيره في الفكر الصوفي، وما الذي يميزه عن غيره من المتصوفة أمثال رابعة العدوية وغيرها؟

يمتاز الحلاج بتجربة شعرية متميزة، نستطيع من خلالها تتبع مسارات الفكر الصوفي، ولأن الحلاج من الشخصيات التي آثرت الموت على الخضوع لهوى السلطان، وكان يفضل الموت على أن ينهر جلاديه، وكان يدعوا لهم بالخير، وكان يقول إنه سعيد جدا لأن غضبتهم لله، وغلب على الكتب الأخرى التي اهتمت بالحلاج أنها أبرزت فقط تجربته الذاتية الصوفية، والتركيز على مقتله بطريقة لم يعهدها الناس من قبل، لكننا نحاول في هذا الكتاب التركيز على تجربته الشعرية لاستقصاء ينابيع الحب الإلهي المجرد عن المادية، مع محاولة التركيز على الدلالات الأسلوبية والتي أدت بالناس إلى فهم شعره بشكل أدى إلى مقتله في النهاية.

فقصة الحلاج قصة كبيرة مزعجة بكل تفاصيلها، لأن شخصية هذا الرجل تعرضت للظلم الكبير في حياته وبعد موته، ونسي الجميع أنه ليس من السهل محاكمة الفكر، من أجل بقاء فكرة الخلافة والسلطة، ورغم كل أوامر السلطة في إحراق تراث هذا الرجل

بقي اسم الحلاج واختفت أسماء كل من ساهم بقتله، فالغريب أنه منذ وفاته وعلى مدى عصور من الزمن.. لم يرحمه أحد، وبقي في نظر الجمهور زنديق وكافر وملحد لا يستحق الحياة.

لكن وبرغم كل هذا فكان صوت الحلاج أقوى وبصفة خاصة في مناجاته لخالقه:

إذا ذكرتك كاد الشوق يقلقني وغفلتي عنك إحزان وأوجاع

وصار كُلِّي قلوبًا فيك داعية للسقم فيها والآلام إسراع

نسب وميلاد الحلاج

هو الحسين بن منصور[1]، يكنّى أبا عبدالله وقيل: أبا مغيث، ولد سنة

(١) انظر في سيرته وأخباره:
السلمي، طبقات الصوفية، ط٢، تحقيق نور الدين شريبة، دار الكتاب النفيس، حلب، ١٩٨٦، ص٣٠٧. مسكويه، تجارب الأمم، ج١، اعتنى بنسخه وتحقيقه هـ. ف. آمدروز، دار الكتاب الإسلامي، ص ٧٦. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص١١٢. ابن الجوزي، المنتظم، ط١، تحقيق د. سهيل زكار، ج٨، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ص ٣٧٦٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٨، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦، ص٧٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، مج٢، دار الثقافة، بيروت، ص١٤٠. الذهبي، تاريخ الإسلام، ط١، تحقيق د.عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ١٩٩٢، ص٣٣. الذهبي، العبر في خبر من غبر، ط١، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٤٥٤. الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق علي عمر البجاوي، مج١، دار المعرفة، بيروت، ص ٥٤٨. اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط١، وضع حواشيه خليل المنصور، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ط٣، تحقيق د. أحمد أبو ملحم ورفاقه، مج٦، ج١١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤١. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ط٢، تحقيق نور الدين شريبة، دار المعرفة، ١٩٨٦، ص١٨٧. الشعراني، الطبقات الكبرى، ط١، ضبطه وصححه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص١٥٤. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج٢، دار الكتب

٢٤٤هـ، الموافق ٨٥٨ م في قرية الطور في الشمال الشرقي لمدينة البيضاء من مدن مقاطعة فارس بإيران، وقيل إنه ولد لأصل مجوسي، من فارس، وعاش أول حياته – حسبما ذكرته بعض المصادر في بلدة تستر، وهي البلدة التي ولد فيها العلامة النحوي سيبويه، وأوردت دائرة المعارف الإسلامية روايتين متناقضتين عن نسبه؛ فالرواية الأولى أنه ينحدر من نسل أبي أيوب الأنصاري الصحابي الجليل، وهي رواية لم تثبت تاريخيًّا، والرواية الثانية أنه حفيد مجوسي من أبناء فارس، وهنا كان الإجماع، فيقول ابن كثير عنه إنه الحسين بن منصور بن محمي الحلاج أبو مغيث ويقال أبو عبد الله، وكان جده مجوسيًّا من أهل فارس من بلدة البيضاء.

العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص٤٤٢. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ط١، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود ورفاقه، ج٢، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ص٣٥٩. الخوانسارني الأصبهاني، روضات الجنات، تحقيق أسد الله اسماعيليان، ج٣ مكتبة اسماعيليان، طهران، ١٩٧٠، ص١٠٧. عريب القرطبي، صلة تاريخ الطبري، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٧، ص٨٥. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، ص ١٥٦. الديار بكري، تاريخ الخميس، ج٢، دار صادر، بيروت، ص ٣٤٧. مؤلف مجهول، العيون الحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، ج٤، القسم الأول، مطبعة النعمان، ١٩٧٢، ص٢٩٤.

روي في سبب تسميته أن أباه كان حلاجًا، وقيل إنه مرّ على حلاج فبعثه في شغل، ولما عاد وجده قد حلج كل القطن في الدكان، وهي رواية ابن خلكان في وفيات الأعيان، وأورد ابن كثير الرواية نفسها لكنه أضاف رواية أخرى تقول إن أهل الأهواز أطلقوا عليه هذه التسمية لأنه كان يُكاشفهم بما في قلوبهم فسمُّوه حلاج الأسرار، ويقول المستشرق ماسنيون إن البقعة التي ولد فيها كانت من أعظم مناطق النسيج في الإمبراطورية الإسلامية، وان والده كان من عمال النسيج ولهذا سمي حلاجًا.

وروي عنه أنه منذ طفولته لفت إليه الأنظار بسبب ذكائه اللمَّاح، وشفافية روحه، وتفتح قلبه، وحبه للعلم والمعرفة، وقد حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، وتعمَّق في فهم معانيه؛ تعمقًا لم يصل إليه طفل أو صبي في زمانه، وليس من طبيعة تلك المرحلة العمرية الصغيرة، وعُرف عنه انشغاله بالرياضات والمجاهدات الروحية، ونسيان لهو الطفولة، وكان كثير الصلاة والتأمل.

وأمضى الحلاج صباه متنقلاً بين كتاتيب واسط في العراق، وكانت هذه المدينة مركزًا من مراكز الإشعاع الفكري والروحي، أسس بها الأشاعرة مدرستهم الكبرى، وفيها نشاط ثقافي وتيار علمي حر، كما

أقام الحنابلة مدرسة القراء، ومعهدًا للحديث، وكانت المساجد مقاعد للبحث والدرس والجدل والحوار، ثم انتقل إلى تستر حيث درس على سهل ابن عبد الله التستريّ، ثم إلى البصرة لينشئ علاقة طيبة بعمرو بن عثمان المكّي الصوفي، ثم ترك البصرة قاصدًا بغداد حيث بالشيخ الجنيد.

وهنا بدأ للحلاج في تشكيل رحلته وفكره الصوفي، ولهذا فقرر الخروج إلى مكة للحج، وأقام بها عامًا كاملاً، كان معتمرًا ونذر لعمرته سنة في حرم هذا البيت المبارك للتطهر والنسك، سنة كاملة عاشها في وحدانية مع الله جل وعلا، في صمت تام مطلق عبادة ونجوى الطارق والسماء لا يستظل تحت سقف لا في الشتاء ولا في الصيف، وبعد السنة خرج الحلاج من عزلته تلقَّاه أتباعه يسألونه عن شأنه؟ قال لهم "لو ألقى مما في قلبي ذرة على الجبال لذابت.

ثم عاد إلى بغداد مع جماعة من الفقراء، وتوجه بهم إلى تستر ودعا الناس إلى الزهد والتصوف، فالتف حوله العامة، وفتنوا بحسن منطقه وطراوة دعوته، ووقع في نفوسهم موقعًا جميلاً، وهنا استطاع الحلاج في أسفاره أن يتعرف على الكثير من المعارف، والأقوام والملل، وصنف خلالها تصانيف عديدة في الأصول والفروع والتوحيد وخلق الإنسان

والبيان والسياسة والخلفاء والـوزراء والعدل وكيد الشيطان وأمـر السلطان واليقين والوجود وغيرها، وقد أورد ابن النديم ستة وأربعين عنوانًا من مصنفات الحلاج.

وقد نجح الحلاج في أن يُحقق من أسفاره أهدافه؛ إذ كان يبتغي بثّ دعواه الصوفية وطريقته الحلاجية، وكان يبثّ في مريديه الرغبة في الحرية، ورفض قهر المتسلّطين، وأصحاب الخراج، وكان اعتناؤه بشؤون الناس ومصالحهم، وجرأته على فضح خبايا السياسة، وتداعي الحياة الاجتماعية والسياسية قد جمع حوله الكثيرون، وألّب عليه أصحاب السياسة.

وقد قال عنه الدكتور يوسف زيدان في مبحث بعنوان "الحلاج ومحاولة تفجير اللغة"، نشر على موقع الدكتور على شبكة الإنترنت، إن الحلاج درس علوم الدين، ثم سلك طريق الصوفية على يد الشيخ سَهْل بن عبد الله التسترى، ثم طاف وساح في البلدان، وصحب جماعة من كبار مشايخ العصر كالجنيد والنورى وابن عطاء وعمرو بن عثمان المكي.. وجرت بين الحلاج وهـؤلاء المشايخ وقائع كثيرة، يضيق المقام هنا عن ذكرها، لكنها في مجملها تشير إلى نأي الحلاج وتفرُّده عن أهل الزمان، وتؤكد شعوره بذاته على أنه: نسيج وحده.. مع أنه يُعانى ما

يعانيه القوم.

فاستقلّ الحلاج عن شيوخه، وأخذ يدرس طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية، مدركًا دوره الذي يجب أن يقوم به في ظل الواقع السياسي والاقتصادي الصعب الذي كان يعيش فيه الناس في زمانه، فكان يرى أن الصوفي لا ينبغي أن يكون بمعزل عن الدنيا ولا عن البيئة التي تحيط به، فلا يُمكن إغفال دوره في نهضة الحياة من حوله، على عكس السائد لدى جماعة الصوفية في عصره والتي كانت تركن إلى الانعزال عن الدنيا وعدم التدخل في الأمور التي يُعاني منها الناس، مركزين كل جهودهم في العبادة فقط.

ولقد حاول الحلاج في تجربته الصوفية الروحية أن يكون وسطًا بين التعلق بالإله فقط وتنزيهه عما سواه، وبين الاهتمام بأمور الدنيا وشئون العامة، حاول التوسط بين أن يكون روحيًّا وماديًّا، بين أن يكون سماويًّا وأرضيًّا، فبدأ بالسعي نحو تحقيق اتصاله بربه، ودفاعه عن حقوقه وأحقيته في العيش في حياة كريمة، من خلال عدم التنازل عن كل حقوقه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وهو ما أغضب الساسة في زمانه.

فلقد كانت الحياة الاجتماعية والسياسية في ذلك الوقت من العصر العباسي تمُورُ بالفوضى والمشاحنات والغلاء الفاحش، وكان أصحاب السلطة لا يألون جهدًا في استخدام أي وسيلة لضمان بقاء سلطانهم، وكذلك كان أصحاب المال والخراج، والخاسر في ذلك كان العامة من الناس الذين لم يملكوا الرفض أو التمرد.

تأمل الحلاج ما يدور من حوله باحثًا عن حل، واعتبر أن بمقدور التصوف احتواء المذاهب الفكرية المتعارضة، ويُوَحدها في منهجه الإيماني ومَحْو العصبيات الجامحة بروحانيته العالية وما تشع من أخوَّة، وما تُلهم من محبة، وفوق هذا وذاك فان التصوف يستطيع بطبيعته النقيَّة المُترفعة أن يُحارب الترف والفساد والتألُّه الذي فرضته الخلافة العباسية على المجتمع الإسلامي، فيقول ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" الصفحة ١٣٤ ج ١١: كان الحلاج يتلوَّن في ملابسه؛ فتارة يلبس لباس الصوفية، وتارة يتجرد في ملابس رزية، وتارة يلبس لباس الأجناد، ويُعاشر أبناء الأغنياء والملوك والقواد، وقد رآه بعض أصحابه في ثياب رثَّة فقيل له ما هذه الحالة يا حلاج؟ فأنشد قائلاً:

لإن أمسيت في ثوبي عديم لقد بليا على حر كريم

فلا يغررك إن أبصرك حالا مغيرة عن الحال القديم

فلي نفس ستتلف أو سترمى لعمرك بي إلى أمر جسيم

قام الحلاج بنشر رسائله الكبرى عن السياسة وواجبات الوزراء مطالبًا بإقامة حكومة إسلامية ووزارة تحكم بالعدل بين الناس؛ خلافة شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله، كانت دعوته الإصلاحية ضد المفسدين في الأرض من الملوك والأمراء ومن يمشي في مواكبهم من محترفي الدين والدنيا، يطالب بخلافة مؤمنة تحمل الناس على الصراط المستقيم، فالحلاج كان ينشد حكومة قرآنية تشعر بواجبها حيال الله شعورها بواجبها حيال الإنسان، ضد المفسدين في الروح والفكر والقلب من علماء الكلام والمنطق والتوحيد ومحترفي الجدل الديني والحوار اللفظي الذين مزقوا دينهم شِيَعًا وأحالوه عوجًا بعد أن كان شريعة محكمة لا تعرف جدلاً ولا حوارًا وإنما تعرف عملاً وإيمانًا.

آمن الحلاج أن هناك صلات لا تنفصم بين الكمال الروحي الذي ينشده والإصلاح الإيماني الذي يستهدفه، ففي أعماقه قوى ضخمة تفور وتتصارع، ويشعر بأن هناك في أبعد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه تنفجر ينابيع وتتدافع تيارات وثورات، فيرى بعين خياله وبصيرة

أحلامه أنها ستغير وجه الحياة، وكانت قصور الخلفاء والأمراء مسرحًا لعبث الجواري والإماء مرتعًا للمرتشين والمقامرين والملحدين.

عاد الحلاج إلى بغداد يحمل منهجًا يهدف إلى قيام خلافة ليس بينها وبين الجمهور نفور سياسي، ويعمل كي يُزيل من شعوب الدولة ما بينها من نفور اجتماعي، ويُزيل ما بين الفِرَق من نفورٍ ديني، ويُحطم ما بين الطبقات من تفاوت مادي، ولم تكن البيئات العلمية في بغداد على استعداد عقلي لأن تسلم للحلاج بمنهجه الصوفي.

ولما كان الحلاج قد حلّ في قلوب هؤلاء العامة محلاً جليلاً؛ عدّوا دعوته دعوة إغاثة ومساعدة، وعدّوه المنقذ لهم، وبلغوا في ذلك مبلغًا كبيرًا، باتوا يُكاتبونه بالمُغيث تارة، والمقيت ثانية، والمميّز تارة ثالثة، وغيرها من الألقاب التي تؤشر إلى المنزلة التي ارتقاها في نظرهم.

فلقد أحيا الحلاج بمنهجه هذا وبحميته الثائرة وبشخصيته الباهرة الآمال العريضة والأحلام الجميلة التي كانت تعيش في أعماق الأمة الإسلامية فالتفت حوله الجماهير واندفع في تياره كثير من الأمراء والوزراء والقادة، وفي الجانب الآخر أحاطت بالحلاج الأحقاد والخصومات؛ فليس الأمر سهلاً أن يدعو رجلٌ إلى إسقاط خلافة

بكل جبروتها، لا والأكثر أن ينتزع الزعامة الفكرية والروحية من كبار العلماء والمشايخ ورجال الدين.

ولما كان ذلك كذلك، تجرّدت فئة لا مصالح لها في دعوة الحلاج حسدًا ونِكَاية للتقوُّل والتأليب عليه وشحذ القلوب والعقول ضده، فحاولت التشكيك في عقيدته متهمةً إياه بالزندقة والاحتيال، فقد أشاعوا فيما يقول ابن النديم أنه "كان رجلاً محتالاً مشعبذًا، يتعاطى مذاهب الصوفية، ويتحلى بألفاظهم، ويدّعي كل علم، وأنه كان يعرف شيئًا من صناعة الكيمياء، وكان جاهلاً مقدامًا متدهورًا جسورًا على السلاطين مرتكبًا للعظائم، يرُوم إقلاب الدول، ويدّعي عند أصحابه الألوهية، وينادي بالحلول، ويُظهر مذاهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة".

وقد استثمر خصومه في دعواهم تلك اقتناءه العقار ببغداد، وبناءه بها دارًا، فعدّوه بذلك متلونًا، وكان ذلك في حدود سنة ٣٠٠ هـ، كما اعتبروه مخلّطًا لأنه كان يلبس الثياب المصطبغة في بعض الأحيان، ويلبس الدراعة والعمامة ويمشي بالقباء على زيّ الجند في أحيان أخرى، ولعله أدرك أن دعوته التي ارتأى أن يُوصلها إلى الناس، لا تتطلب لبوسًا وشكلاً بقدر ما تحتاج إلى استعداد فكري لأداء هذه المهمة الصعبة،

وبدا له أن تجرّده من ملابس الصوفية يمكنّه من بثّ طريقته بحرية أكبر، وأن الصوفية مضمون أكثر منها شكلاً، وربما رام في جُلّ ذلك أن يؤكد إنسانية الصوفي وحقّه بممارسة حياته، محاولاً أن يسمو بالناس وبالمجتمع محوّلاً الصوفية إلى حياة اجتماعية وإنسانية لها مكانتها الأرضية، ولها طموحها السماوي.

لكن الأمر لم يطُل؛ فقد بدأ أصحاب السلطان وموظفو الخراج بإثارة الشغب ضده، ترأسهم في ذلك الوزير حامد بن العباس في عهد الخليفة المقتدر ببغداد، ففي وزارة حامد ازداد الشغب بسبب غلاء الأسعار، وحاولت العامة فتح السجون، ووثبوا على ابن درهم خليفة صاحب المعونة وأرادوا قتله، ويبدو أن حامدًا وجد في القبض على الحلاج والقضاء عليه، ما يُعيد الأمن والهدوء، معتبرًا إياه المحرّض والمشعل لفتيل الثورة عليه، وكان ذلك سنة ٣٠٩هـ.

وكان الوزير ابن العباس قد حاول القبض عليه مرارًا، فقبل ذلك كانت العيون تلاحقه بحثًا عن منفذ للقضاء عليه، ففي عام ٣٠١هـ، قبض عليه علي بن أحمد الراسبي أمير الأهواز، وأدخله بغداد وغلامًا له على جمل مشهورين، بحجة أن البّينة قامت عنده أنه يدّعي الربوبية ويقول بالحلول، ونُودي عليه حينذاك بأنه أحد دعاة القرامطة فحُبس، ثم أمر

الوزير آنذاك علي بن عيسى بصلبه حيًّا، لثلاثة أيام حتى رآه الناس، ثم حمل إلى دار السلطان فحبس بها، وظل منذ ذلك الحين ينتقل من حبس إلى آخر حتى سنة ٣٠٩هـ، حيث كان حامد الوزير يخرج الحلاج إلى مجلسه، ويستنطقه فلا يظهر منه ما تكرهه الشريعة، وطال الأمر على ذلك، وحامد مُجدٌّ في أمره، وجرى له معه قصص كثيرة، وفي آخرها رأى الوزير له كتابًا حكي فيه أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه، أفرد من داره بيتًا لا يلحقه شيء من النجاسات، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله، وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم جمع ثلاثين يتيمًا، وأطعمهم أجود الطعام، ثم إذا ما فرغوا كساهم وأعطى كل واحد منهم سبعة دراهم، فإذا فعل كان كمن حجّ.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الدكتور يوسف زيدان قال: عاش الحلاَّج التجربة الصوفية بكل ما فيها من صدقٍ وروعة، وغرق في بحر النور الإلهي تمام الغرق، ولسوف نقتصر فيما يلي على ذكر فقرتين شهيرتين من سيرة الحلاج، تلك السيرة التي أفاض فيها المؤرخون والمترجمون له.. وهاتان الفقرتان تكشفان عن طبيعة الحياة التي عاشها الحلاَّج، وطبيعة الموقف الذي تمت فيه إدانته:

الفقرة الأولى قال ابن باكويه: سمعتُ الحسين بن محمد المذارى

يقول: سمعتُ أبا يعقوب النهرجورى يقول: دخل الحسين بن منصور الحلاَّج مكة، فجلس في صحن المسجد لا يبرح من موضعه إلا للطهارة أو الطواف، لا يبُالى بالشمس ولا بالمطر، فكان يُحمل إليه كل عشية كوزٌ وقرص (ماء وخبز) فيعضُّ من جوانبه أربع عضَّات ويشرب.

الفقرة الثانية قال ابن زنجى: وحُملت دفاتر من دور أصحاب الحلاج، فأمرني حامد -الوزير- أن أقرأها والقاضي أبو عمر حاضر، فمن ذلك قرأتُ: إن الإنسان إذا أراد الحج، أفرد في داره بيتًا، وطاف به أيام الموسم، ثم جمع ثلاثين يتيمًا، وكساهم قميصًا قميصًا، وعمل لهم طعامًا طيبًا، فأطعمهم وخدمهم وكساهم، وأعطى لكل واحدٍ سبعة دراهم أو ثلاثة، فإذا فعل ذلك، قام له ذلك مقام الحج! فلما قرأت ذلك الفصل، التفت القاضي أبو عمر إلى الحلاج وقال له: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري، قال: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص وما فيه هذا.

فلما قال أبو عمر: كذبت يا حلال الدم قال له حامد: أكتب بهذا!" وهنا لاحت فرصة الوزير للتخلص منه باسم الشريعة، ظاهرًا أمام العامة بمظهر الحامي للدين والمُناوئ عنه، عبر محاكمةٍ ظاهرها ديني، وباطنها سياسي، خصوصًا بعد امتناع الفقهاء عن محاكمته، حيث

استفتاهم في أمره "فذكروا أنهم لا يفتون في قتله بشيء إلى أن يصحَّ عندهم ما يُوجب عليه القتل، وأنه لا يجوز قبول قول من ادّعى عليه ما ادّعاه وإن واجهه إلا بدليل أو إقرار".

تشاغل أبو عمر بخطاب الحلاَّج، فألحَّ عليه حامد، وقدَّم له الدواة، فكتب بإحلال دمه، وكتب بعده مَنْ حضر المجلس، فقال الحلاج: ظهري حِميً، ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا عليَّ، واعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، فالله الله في دمي، ولم يزلْ يردد هذا القول، وهم يكتبون، ثم نهضوا ورُدَّ الحلاج إلى الحبس، وكُتب إلى المقتدر – الخليفة- بخبر المجلس، فأبطأ الجواب يومين، فغلظ ذلك على حامد، وندم وتخوَّف، فكتب رقعةً إلى المقتدر في ذلك يقول: إن ما جرى في المجلس قد شاع، ومتى لم تُتبعه قتل هذا –الحلاَّج- افتتن به الناس، ولم يختلف عليه اثنان، فعاد الجواب من الغد: "إذا كان القضاة قد أباحوا دمه، فليحضر صاحب الشرطة، ويتقدم بتسليمه وضربه ألف سوط، وتقطيع يديه ورجليه، وحزّ رقبته ثم إحراق جثته.

وجاء في كتاب "نظرية الحب" للأستاذ محمد الراشد صفحة ١٩٢ أن لشيخُ محي الدين بن عربي ـ رحمه الله ـ كان يقول عن عشق الحلاج: "فإذا عَمَّ الإنسانَ بجُمْلتهِ وأَعْماهُ عن كلِّ شيءٍ سوى محبوبِه وسَرتْ

تلك الحقيةُ في جميعِ أجزاءِ بَدَنِه وقُواهُ وروحِه ، وجَرَتْ فيه مجرى الدَمِ في عُروقِه ولَحْمِه، وغَمَرتْ جميعَ مَفاصِلِه فاتّصلتْ بوُجودِهِ وعانقتْ جميعَ أجزائهِ جسماً وروحًا، ولم يبقَ فيه مُتَّسعٌ لغيرِه ، وصار نُطْقُهُ به وسَماعُه منه ، ونظرُه في كلِّ شيءٍ إليه ، ورآه في كلِّ صورةٍ ، وما يَرى شيئاً إلاّ ويقولُ هو هذا، حينئذٍ يُسمّى ذلك الحُبُّ عِشْقاً كما حُكيَ عن ﴿زُلَيْخا﴾ أنّها افتَصَدَتْ، فوقعَ الدَمُ في الأرضِ، فانْكتبَ به يوسُفُ يوسف في مواضِعَ كثيرةٍ حيثُ سَقَطَ الدَمُ، لجرَيانِ ذِكْرِ اسمهِ مجرى الدَمِ في عُروقِها كلِّها، وهكذا حُكِيَ عن الحَلاّجِ لمّا قُطعتْ أطرافُه، انْكتبَ بِدَمِهِ في الأرضِ اللّهُ اللّه، حيث وَقَعَ ".

وقيل لما قُدِّمَ الحلاّج لتُقطّع أطرافُه ، قطعت اليد اليمنى أولاً فضحك، ثم قطعت اليد اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفرّ وجهُه من نزف الدم، فأكبَّ بوجهه على الدم السائل، ولطخ وجهَه بدمِهِ وأنشأ يقول:

اللّه يعلم أنَّ الروحَ قـــد تلفتْ شـوقًا إليـكَ ولكنّـي أمنّيهـــا
ونظرةٌ منك يا سُـؤْلي ويا أمــلي أشهى إلـيَّ من الدنيا ومـا فيهـا
يا قومُ إنّي غريبٌ فـي ديارِكـــمُ سلَّمتُ روحي إليكم فاحكموا فيها

ما أُسلم النفسَ للأسقام تتلفها إلاّ لعلمي بأنَّ الوصل يحييها

نفس المحبِّ على الآلام صابرة لعلَّ مُسقمَها يوماً يُداويها

كان الحلاج وما زال شخصية جدليَّة تباينت تجاهها المواقف والآراء، وأثارت أبناء عصرها، وأثرت في محيطها تأثيرًا امتد إلى ما بعد رحيلها حتى أيامنا الحاضرة، وقد تتبع ماسينيون حياة الحلاج بعد موته، مما يوضح أثره الفاعل في أجيال من المتصوفة، وأصحاب الكتابة، فقد صار رمزًا للفداء والتضحية ومواجهة الظلم، واختلف القدماء فيه، فثمة من رده جملة وتفصيلاً، وثمة من قبله فصحَّح حاله ودوّن كلامه، أو قبله فاعتذر عنه وأجاب عما صدر عنه بتأويلات، وثمة من توقَّف عن الحكم عليه، ومازال حتى اللحظة الراهنة محل رد وقبول، فهو صاحب طريقة وفلسفة خاصة، بحث عن المعنى الرمزي الذي يرفع دعاء الروح إلى الله، وتذوق حقائق الإيمان، وأحيا في قلوب الكثيرين الرغبة في الإصلاح الأخلاقي الشامل للجماعة الإسلامية عبر طريقته التي مال فيها إلى الكشف والبعد عن الاستسرار، وإعلان رؤيته وأفكاره بتجرد على الملأ خلافًا لأسلوب الصوفية.

ويبدو أنه دفع ثمن جرأته في دعوة من يأخذون بظاهر الشريعة

إلى طريقته، ومحاولته ربط الحياة بالروح، والاختلاط بالعوام على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم، وبث بذرة التمرد وإعلان الرأي بحرية، وقد روي عن صديقه الشبلي أنه حين رأى الحلاج مصلوبًا قال: "ألم أنهك عن العالمين"، ولافتقاد العامة رجلاً كانوا يضعون على كاهله أمر حمايتهم وإنقاذهم من التردي الذي يعيشونه؛ أخذوا يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يومًا من قتله كما ورد في اليافعي، وإدراكًا منهم أنه مخلّصهم شبَّهوه بالمسيح فقد "ادعى بعض أصحابه أنه لم يُقتل ولكن ألقي شبهه على عدوّ من أعداء الله"، كما ورد في اليافعي.

الحب الإلهي في منهج الحلاج ورسالته

"كلمة التوحيد هي السطر الأول في كتاب الإسلام، لا تكون صدقًا وحقًّا إلا إذا عشناها وتذوقناها وفنينا في معناها، حتى كأننا ننطقها نسمعها من الله جل جلاله وحينئذ تنبثق في شغاف القلوب، وعين الوجدان، ويموج كل شيء بالجلال والنور والمعرفة، والقرآن الكريم كلام الله؛ فيجب على المؤمن أن يتذوق حقائقه تذوقًا روحيًّا، وأن تتمثل فيه هذه الحقائق تمثلاً عمليًّا إيجابيًّا".

تلخص هذه الفقرة حقيقة إيمان الحلاج، والتي يحاول الكثيرون نزعها عنه ورميه بالزندقة والكفر والإلحاد.

فالتصوف عند الحلاج هو تجربة يستطيع المؤمن خلالها الوقوف على حقيقة ما يؤمن به، إنه يعتبرها درجة من درجات اليقين ورتبة من رتبه، فهو الوسيلة التي يرتقي المؤمن من خلالها إلى مقام الشهود، ويحفل تاريخ الحلاج بالكثير من الأفكار الجدلية التي يكتنف الغموض

دلالاتها ومساراتها، ويعج بالمناظرات الجدلية التي جعلت منه عالما مختلفا عن علماء عصره وشيوخه ومفكريه بل ومتصوفيه، فتراثه التاريخي يجمع بين الخصائص الروحية التي تُزكي الحب الإلهي المُنزه عن المادية، وبين المنهاج العملي العلمي الذي قاد الحلاج إلى الثورة على فساد عصره، مما ساعد في إذكاء روح الخصومة بينه وبين معارضيه، حتى أن الحلاج تحدى أعلام المتصوفة في عصره.

وقد قال طه عبدالباقي سرور في كتابه "الحسين بن منصور الحلاج، شهيد التصوف الإسلامي" إن الحلاج كان يرى أنه آن للعالم الإسلامي أن يُبعث من جديد على كتاب الله وحبه، وشعاع من حياة رسول الله وهدْيه، حتى تشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بعين الله ورعايته، ويحكمها ويُوجهها أقطاب عُباد أنقياء أصفياء، يحبون الله ويحبهم، ويحملون الناس على الجادة والطريق الذي ارتضاه واصطفاه الله، فلا تفترق السياسة عن الصلاة، ولا الحكم عن الحب، ولا العمل عن العبادة، فتتحول الدنيا من غابة للشهوات والصراع ولهو الشياطين إلى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين.

وقد آمن الحلاج أن المنهج الصوفي المتكامل بأخلاقه وعباداته وجهاده الروحي وأذواقه ومعارفه في الحب الإلهي، إنما يمثل وجهًا

واحدًا من الدعوة الإسلامية؛ فهو يمثل مرحلة الإعداد فحسب، ثم تأتي في أعقابها مرحلة الكمال، وهي مرحلة التبليغ والجهاد، فلو اكتفى الأنبياء بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوه وآمنوا به إلى الناس ولم يجاهدوا في سبيل الله حتى تعلو كلمات الله وتسود تعاليمه لفسدت الأرض، وامتطاها شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا، فقد كان الحلاج يقول دومًا: "لن يُقبل من الناس عباداتهم إذا اختلَّت سياستهم وفسدت أخلاقهم، ثم استكانوا للبغي والفساد، وأن الله تعالى لن يقبل من أصحاب الأردية والأكسية كلماتهم ما لم يجهروا للحق ويدافعوا عنه"، وإن الحلاج ليهب نفسه ويرصدها لهذه الغاية الكبرى.

والحسين بن منصور الحلاج يعتبر من أشهر شعراء الصوفية الذين تغنوا في أشعارهم بالذات الإلهية وبالمحبة الإلهية، وأن هذه المحبة تتجلى لديه في التجلي الرباني، الذي يبرهن من خلاله على وجود الله المحبوب، وأن هذه المحبة يعجز عن إدراكها أصحاب الحس المادي الذين يحكمون بالظواهر، فقد قال الحلاج في غير ذات موضع:

لم يبق بيني وبين الحق اثنان ولا دليل بآيات وبرهان

هذا وجودي وتصريحي ومعتقدي هذا توحد توحيدي وإيماني

هذا تجل بنور الحـــق نائـــره قد أزهـرت في تلاليها بسلطان

لا يستدل على الباري بصنـعته وأنـتـم حـدث يُـنـبـي عـن أزمـان

ويبروز الحلاج فكرة المحبة الإلهية في الزيارات التي يزرها له محبوبه في الخلوات، ويؤكد على ذكره له في لحضور والغياب والقرب والبعد، وأن الحلاج له من القدرة على فهم كلمات ربه وإشاراته من خلال التجليات الروحية النورانية في حضرة اللّه العليَّة.

لي حبيـب أزور في الخلـــوات حـاضـر غـائـب عـن الـلـحـظـات

ما تراني أصـغي إليه بســـمع كـي أعـي مـا يـقـول مـن كلمـات

كلمات من غير شكـل ولا نطـق ولا مـثـل نـغـمـة الأصـــوات

فكأني مخاطـــــب كنت إياه عـلـى خـاطـري بـذاتـي لـذاتـي

حاضر غائب قـريب بعـ،ـيد وهـو لـم تـحـوه رسـوم الـصـفـات

هو أدنى من الضمير على الوهم وأخـفـى مـن لائـح الـخـطـوات

وكان الحلاج يرى أن نفسه البشرية هي الحاجز بينه وبين حقيقته التي خُلق لأجلها، ولابد أن يتخلص من هذه النفس بالمجاهدات والرياضات الشاقة التي كان يجهد نفسه بها، حتى يلتقي مع هذه الحقيقة، ويعبر عن ذلك:

بيني وبينـــك إنِّي يُنازعـــــني فـارفـع بلـطفـك إنِّـــي مـن البـيْـن

وفي الوقت الـذي تزايد فيه أنصار الحلاج زادت فيه أيضًا عداوة المعتزلة والشيعة للحلاج، لما بينهم من خلافات عقائدية، فقرر الحلاج السفر إلى ما وراء النهر؛ إلى الأهواز وخراسان، يدعو ويعظ الجاليات العربية بشرق إيران، وقضى هناك خمس سنوات عاد بعدها إلى بغداد وحوله عدد كبير من المريدين.

وفي تلك الأثناء مرض الخليفة المقتدر بحمى ثلاثة عشر يومًا وصعُب أمله في الشفاء على يد الأطباء المشهورين في عصره، فاقترح حاجب الخليفة، أن يأذن الخليفة المقتدر له بإحضار الحلاج لما هو معروف عنه من إتيَان الكَرامات وتبرُّك العامة به، فوافق الخليفة رغبة في الشفاء، وحضر وَرَقي الخليفة وشُفي من الحُمى، ونفس الحمى أصابت أم الخليفة المقتدر، وفعل معها الحلاج نفس ما فعله مع الخليفة، واستجابت للرّقية وشفيت، مما جعل الخليفة يرضى عن الحلاج في تلك الفترة، وأمر أن يُقيم معه في القصر.

وهنا أصبح الحلاج سيدًا مُطاعًا مسموع الصوت في القصر، وذاع صيْت الحلاج، وانضم إليه كثير من الـوزراء والـقـادة والأمـراء في مسيرته ودعوته – وأسرف الناس كعادتهم فيما يسمعون ويُضيفون

عليه من خيالهم وتصوراتهم مما جعله أكثر من أسطورة يتغنى الناس بها داخل القصر وخارجه.

وفي هذه الآونة استطاع الوزراء التابعين للحلاج فرض إرادتهم على الوزراء غير التابعين له، وأصدر مجلس الوزراء أول بيان تاريخي لميزانية الدولة العباسية، على أسس اشتراكية وتوجيه الفائض من ميزانية الدولة إلى تحسين الخدمات العامة بدلاً من صرفها على حاشية الخليفة والقصر، وقد أدى هذا البيان إلى إحداث زلزال بين حاشية الخليفة والمنتفعين من حولهم، وعلى رأسهم الوزير حامد بن عباس، وعزموا على أن يؤكدوا مخاوفه وفى نفس الوقت تصميمه على المضي في خطته التي كان قد بدأها والخاصة بضرورة التخلص من الحلاج وأعوانه.

وقد بلغت الثورة على الحلاج أوْجها بسبب معارضيه الذين لم يُرضهم الأفكار التي كان الحلاج يسعى إلى تطبيقها والوصول إليها للخروج بالمجتمع من حالة الفساد والركود التي كان يشهدها، فبدأت الحاشية المنتفعة بالدسائس والهمس في أذن الخليفة المقتدر بما أوتوا من مهارة وخبرة، وأفهموا الخليفة الضعيف أن الحلاج يُعد عُدته ليتولى هو الحكم بدلاً منه – وأخذوا يتدبرون ويتفكرون – كيف الذي له المكانة

العالية وله أتباع ومريدون من الأكابر وذوى المراكز الكبيرة وجمهور عريض من العامة، فلا بد من التفكير في تهمة دينية وهي تهمة مجربة عبر التاريخ، لأن الدين أشد تأثيرًا في الشعوب من السياسة، لقد ذاعت مكانته وصيته باسم الدين وحصل على القداسة الروحية لدى الشعب، وبني كل هذا على الدين، لذا وجب أن يُحارب بنفس السلاح، ومن ثم بدؤوا يشحذون أسلحتهم ويحشدون شهودهم الزور لمحاكمة الحلاج.

فاتهمه العديد من علماء عصره أمثال الفقيه محمد بن داود قاضي بغداد، الذي اتهم الحلاج هو وغيره من العلماء والمتصوفة بالزندقة وقاموا بالدعوة إلى محاكمته، ووصفوه بأنه ينادي بالحلول متخذًا من الحب الإلهي ذريعة ووسيلة للوصول إلى غايته، كما قالوا إنه يحاول أن "يتحد بمُوجده في تجربة مهمة غامضة حتى أصبح يقول دعاوى عريضة أنا عوضًا عن هو! تأليهًا لنفسه وللإنسان المُجتبى الذي يجد في ذاته حقيقة صورة الله".

لكن الحلاج كان يقول ردًّا على هذه التهمة عندما أتوًا به ليحاكموه: "ظهري حمي، وجسمي حرام، وما يحل لكم أن تتأوَّلوا بما لا يُبحّه الدين، وأنا اعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، وتفضيل الأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة رضوان الله عليهم

جميعًا، فالله في دمى".

وكان للحلاج العديد من المناظرات الجدلية مع كل علماء عصره ومنهم عمرو بن عثمان، والذي حينما رأى الحلاج في مكة قال له: "الفتى من أين؟ فقال الحلاج: لو كانت رؤيتك بالله لرأيت كل شيء مكانه "فإن الله تعالى يرى كل شيء" فخجل عمرو، وغضب، وبعد مُضي فترة من الزمن أشاع عمرو عن الحلاج بأنه قال "يمكنني أن أتكلم بمثل هذا القرآن"، ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل زاد الحلاج إلى مهاجمة الشيعة متهمًا إياهم بإفساد الدين على الناس، وإرهاقهم بما هو بعيد عن الدين، إلى جانب احتكارهم لأرزاق الناس وفسادهم الإداري واختلاسهم لأموال الناس.

ولا شك أن خلافات الحلاج مع معاصريه كانت لها أسباب كثيرة غير الأسباب التي يعرفها البعض والتي أشاعوها عنه، والتي تتمثل معظمها في دعوته للكفر والحلول والاتحاد وغير ذلك، بل كان الأمر سياسيًّا في المقام الأول، وكانت الخصومة معهم بعيدة كل البُعد عن الدين، فحدث ذات مرة أن دخل الحلاج أصفهان وكان عليّ بن سهل يحظى بقبول واسع عند أهل أصفهان ويتكلم معهم في شتى أمورهم المعرفية، فقال الحلاج مخاطبًا عليّ "يا دسوقي تتكلم في المعرفة وأنا حي؟"

فقال عليّ بن سهل: هذا زنديق؟، وهي التهمة التي كان الساسة يقذفون بها كل معارضيهم، وذلك لاهتمام الناس الكبير بأمور دينهم، ولغيرتهم علي الدين أكثر من السياسة.

كما كان للحسين بن منصور الحلاج خصومته المعروفة مع القاضي الجنيد البغدادي، وهو ما هو عليه من علم ومعرفة ومكانة بين الناس، إذ دخل الحلاج على الجنيد وهو على المنبر يخطب في الناس فهتف الحلاج فيه على رؤوس الأشهاد "يا أبا القاسم إن الله لا يرضى من العالم بالعلم حتى يجده في العلم. فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل"، فنزل الجنيد ولم يتكلم مع الناس شهرًا كاملاً، وبدأ الصراع يشتد بين الجنيد والحلاج وسمع بهذا الصراع القاصي والداني في بغداد، فرُمي الحلاج بالسحر والشعبذة الفكرية حتى قال له الجنيد يومًا: "ستقتل؟" فضحك الحلاج وقال "نعم وأنت ستمضي على قتلي".

وروي في بعض المصادر أن أخت الحلاج رأت رؤيا للحلاج وهو يكشف فيها عن سر صموده ليلة قتله، وكيف أنه لم يتأوه ولم يفترّ عن ذكر الله، ولم يقل سوى "أحدٌ.... أحدٌ" وهي الكلمة الأخيرة له قبل أن تُضرَب عنقه، وأنه لما كانوا يجلدونه كان يردد قول الله تعالى: ""يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق،

ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلالٍ بعيد"، فقالت إن الحلاج كتب في هذه الوصية قائلاً: "يا أختي لما قطعوا يدي ورجلي كان قلبي مشغولاً بالمحبة فلم أدرِ وهى طيبة، فلما صلبوني كنت مشاهدًا ربي فلم أدرِ ما فعلوا بي".

ولقد حاول أتباع الوزير حامد والملك المقتدر حرق كل كتابات الحلاج للقضاء على أفكاره، وبالفعل أقاموا لمؤلفاته محرقة كبيرة، غير أن بعض تلامذته استطاعوا إنقاذ بعضها بالهروب من بغداد، وكان من بين الأعمال التي تم إنقاذها ديوان الحلاج والطواسين، والتفسير، ونصوص الولاية وبستان المعرفة والمرويَّات، وبعض أقواله من مخطوطاته ورسائله إلى تلاميذه، وأيضًا كتاب الدرة عن الساسة والسياسة.

وما ساهم في التنازع والاختلاف حول شخصية الحلاج هو أسلوبه في التعبير عن الروحانيات التي تتفوق على معارفه، حيث قال ماسينون إن ابن عربي معرفته أكثر من روحه، والحلاج روحه أكثر من معرفته، ولقد قال عنه الإمام الغزالي رحمه الله: "إنه إنسان ورع وتقيّ وصوفي مخلص ومستقيم في الله، وكان من الأفضل له اختيار تعبيرات أفضل"، كما قال عنه المستشرق ماسينون "إن الحلاج صوفي متكامل، ووصل

إلى أقصى درجات الفنية في الصوفية والتصوفية، وتحقق فيه الرمز الكامل للصوفي المحب".

ويمثل شعر الحلاج تجربته الصوفية الممتدة، ونبع تميزه من دلالاته الصوفية التي صاغها ضمن تشكيل أسلوبي مميز، يتناسب مع خصوصية تجربته واختلافها، ورغم أنه لم يتجه في حياته إلى العزلة، وإنما اختلط بالناس، وكان له دورٌ في السياق العام، إلا أن شعره لم يعبّر عن ذلك، بقدر ما كان شعرًا شخصيًّا ذاتيًّا خاليًا من التوجيه والخطاب التعليمي، ومع أنه كان شخصية إصلاحية، إلا أنه لم يوظف الشعر لهذه الغاية، وإنما ظلت وظيفة الشعر عنده التعبير عن الهموم الصوفية التي تمثل علاقةً ذاتَ خصوصية مع الذات الإلهية.

لقد فصل الحلاج بين الشعر والحياة اليومية أو العامة، وإذا كان قد خالف غيره، من المتصوفة فاقتنى مالاً وابتنى دارًا، مما يمثل بعض الانشغال بأمور الدنيا، كما حاول مقاومة الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة في عصره، إلا أن ذلك كله ظل خارج تجربته الصوفية التي يمثلها شعره، فأبقاه خالصًا للتعبير الصوفي من غير أن يختلط بشؤون الدنيا، أو يتوجه إلى الناس بخطاب جماعي.

وقد حفل شعر الحلاج بالعديد من الصور الرمزية الصوفية والبلاغية التي جعلت العديد من الشعراء الذين أتوْا بعده يقلدونه، كما فعل الإمام البوصيري ٦٠٩هـ بعد الحلاج بثلاثمائة عام والذي أخذ عنه الكثير من أفكاره في عشق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلك، مستخدمًا العديد من صوره الشعرية في قصيدة نهج البردة، حيث استخدام أيضًا نفس المعاني ونفس الوزن والقافية إذ قال الحلاج:

يا لائمي في هواكم تلـــــوم فلو عرفت من الـذي عاينْت لـم تلُمِ

وعلى وزنها وصورتها يقول الإمام البوصيري في البردة:

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرة منِّـي إليـك ولـو اتصفت لـم تلُم

وقد أنشد الحلاج الشعر وهو يلاقي أشد ويلات العذاب، عند قطع يده، إذ عبر بالشعر عن أنه لا يبالي بما يحدث وأنه في حالة ذكر دائمة لله، وما مسَّه أي ضرر، وإن هذا البلاء لم يفسد عليه الذكر، كما قال في خطابه لابنته، وأيضًا أنشد الشعر فقال:

وحرمة الـــود الذي لم يكـــن يـطـمـع فـي إفـســـاده الـدهـر

ما نالني عند الهــجوم الـــبلا بـــأس ولا مـســنـي الـضـر

وما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفـــــصلٌ إلا وفـــيـــه لـــكـــم ذكـــر

وعند قطع قدميه أنشد بما معناه أنه ليس هناك آلام، لأن الآلام الحقيقية من وجهة نظره هي الغفلة عن ذكر الله، والآلام الدنيوية لا قيمة لها أمام ذكر الله، والشوق إلى رؤياه فيقول:

إذا ذكرتُك والشوق يُقْلقني وغفلتي عنك أحزانٌ وأوجاع

وصار كلِّي قلوبًا فيك داعية للسُّقم فيها وللآلام إسراع

وعند استقبال الموت أنشد هذه الأبيات التي تفسر الكثير من الأمور التي يستعصى فهمها بالمقاييس المادية، فانشد يقول:

لا تلمني فاللوم من بعيد وأحير سيدي فإني وحيد

ومن أراد الكتاب هذا خطابي فاقرءوا واعلموا بأني شهيد

مختارات من شعر الحلاج

التلبية

لبّيكَ لبّيكَ يا سـرّي ونجوائـي لبّيك لبّيك يا قصدي ومعنائي
أدعوك بلْ أنت تدعـونني إليـك فهلْ ناديتُ إيّاك أم ناجيتَ إيّائـي
يا عين عين وجودي يا مدى هممي يا منطقي وعباراتي وإعيائـي
يا كلّ كلّي يا سمـعي ويا بصـري يا جملتي وتباعيضي وأجزائـي
يا كلّ كـلّي وكلّ الكلّ ملتـبس وكـل كـلّك ملبوس بمعنائـي
يا من به عُلقَتْ روحي فقد تلفـت وجدا فصرتَ رهينا تحت أهوائي
أبكي على شجني من فرقتي وطني طوعًا ويسعدني بالنوح أعدائي
أدنو فيبعدنـي خـوف فيقلقـني شوق تمكّن في مكنون أحشائي
فكيف أصنـع في حبّ كَلِفـتُ به مولاي قد ملّ من سقمي أطبّائي
قالوا تداوَ بـه منه فقـلت لهـم يا قوم هل يتداوى الداء بالدائي

حبّي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولائي

اإني لأرمقه والقلب يعرفه فما يترجم عنه غير إيمائي

يا ويحَ روحي من روحي فوا أسفي عليَّ منّي فإنّي أصل بلوائي

كأنّني غَرق تبدو أنامله تَغوثُّاً وهو في بحر من الماء

وليس يَعْلَم ما لاقيت من أحدٍ إلا الذي حلَّ منّي في سويدائي

ذاك العليم بما لاقيت من دنفٍ وفي مشيئِتِه موتي وإحيائي

يا غاية السؤل والمأمول يا سكني يا عيش روحي يا ديني ودنيائي

قُلْ لي فَدَيْتُكَ يا سمعي ويا بصري لِمْ ذا اللجاجة في بُعدي وإقصائي

إن كنتَ بالغيب عن عينيَّ مُحْتَجِبًا فالقلب يرعاك في الأبعاد والنائي

جواب في حقيقة الإيمان

للعلم أهلٌ وللإيمـــان ترتيـــب وللعلـــــوم وأَهـلِـيـهـا تـجـاريـب

والعلم علمان منبوذ ومكتـســب والبحر بحران مركوب ومرهوب

والدهر يومان مذموم وممتــدح والنـاس اثنـان ممنوح ومسلـوب

فاسَمعْ بقلبك ما يأتيك عن ثقـةٍ وانظرْ بفهمك فالتمييز موهـوب

إني ارتقيتُ إلى طودٍ بلا قـــدمٍ له مَـراقٍ على غيري مصاعيـب

وخُضْتُ بحراً ولم يرسب به قدمي خاضَتْهُ روحي وقلبي منه مرغوب

حَصْبَاؤُه جوهرٌ لم تَدْنُ منــه يـدٌ لكنه بِيَـدِ الأفهـــام منهـوب

شربتُ من مائـه رَياً بغير فـــم والماء قد كان بالأفواه مشـروب

لأن روحي قديمًا فيه قدْ عطشـتْ والجسم ما ماسَهُ من قبل تركيـب

إني يتيمٌ ولي أَبٌ أَلُوذ بــه قلبـي لِـغـيْـبَـتِـهِ مـا عـشـْـتُ مـكـروب

أعمى بَصيرٌ وإني أبْلَه فَطِـــنٌ ولـي كـلام إذا مـا شئتُ مقلـوب

ذُو فَتَا عرفوا ما قد عرفت فَهُـمُ صَحْبِيَ ومن يُحْظ بالخيرات مصحوب

تعارفَتْ في قديم الدّر أَنْفُسهـم فأشرقَتْ شمسهم والدهـر غريب

جواب إلى شبلي

يا موضع الناظر من ناظري ... ويا مكان السرّ من خاطري

يا جملة الكلّ التي كلها ... أحبّ من بعضي ومن سائري

تراك ترثي للذي قلبه ... مُعَلَّق في مخلبي طائر

مدَلَّهٌ حيرانُ مستوحشٌ ... يهرب من قفر إلى آخر

يسري وما يدري وأسراره ... تسري كلمح البارق النائر

كسرعة الوهم لِمَنْ وهمه ... على دقيق الغامض الغابر

في لجّ بحر الفكر تجري به ... لطائف من قدرة القادر

مراحل على الطريق

سكوتٌ ثم صمتٌ ثم خَرْسٌ وعِلْمٌ ثم وَجْدٌ ثم رَمْس

وطينٌ ثم نارٌ ثم نورٌ وبردٌ ثم ظلّ ثم شمس

وحَزْنٌ ثم سهل ثم قَفْرٌ ونهر ثم بَحْرٌ ثم يَبْس

وسكر ثم صَحْوٌ ثم شوقٌ وقرب ثم وفر ثم أُنْس

وقَبْضٌ ثم بسط ثم مَحْوٌ وفرق ثم جمع ثم طَمْس

وأَخْذٌ ثم ردّ ثم جذبٌ ووصف ثم كشف ثم لبس

عبارات لأقوامٍ تساوتْ لديهم هذه الدنيا وفِلْس

وأصوات وراء الباب لكن عبارات الورى في القرب همس

وآخر ما يَؤول إليه عَبْدٌ إذا بلغ المدَى حظّ ونفس

لأنّ الخلق خدّام الأماني وحقّ الحقّ في التحقيق قُدْس

الأهوال أمانات عند أهلها

مَن ساررووه فأبدى كلّما ستـــروا ولـم يـراع اتّصـالاً كـان غَشَّاشا

إذا النفوس أذاعت سرّ ما علمت فكل مـا خلت مـن عقلها حاشا

من لم يصن سرّ مولاه وسيّـــده لم يأمنوه على الأسـرار ما عاشا

وعاقــبوه على ما كـــان مــن زَلَل وأبـدلـوه مكـان الأُنْـس ايحاشـا

وجانبوه فلم يصـــلح لِقُرْبِهـــِم لـمّـا رأوه علـى الأســرار نبَّاشـا

من أطلعوه على ســـرّ فتـــمَّ بـه فـذاك مثل يبين الناس طيّاشـا

هم أهل السرِّ وللأسرار قد خُلقوا لا يصبرون على مـا كـان فحَّاشا

لا يقبلون مذيعًـا في مجالســهـم ولا يـحبّـون سِـتْـراً كـان وَشْـواشـا

لا يصطفون مضيفًا بعْض سرّهم حاشا جلالهم مـن ذلِكم حاشـا

فَكُنْ لهـم وبهــم في كلّ نائبـــةٍ إليـهـم مـا بقـي الـدهـر هشَّاشـا

ناي (في وصف فقد حاله)

أَنْعَى إليك نفوسًا طاح شاهــدُها فيما وراء الحيثِ يَلْقَى شاهد القِدَم
أَنْعي إليك قلوباً طالما هَطــلَتْ سحائبُ الوحي فيها أَبْحُر الحكم
أنعي إليك لسان الحق مُذ زمــن أودى وتذكاره في الوهم كالعدم
أنعي إليك بيانا تستكين له أقوال كــل فـصـيـحٍ مِــقْــوَل فهــم
أنعي إليك أشارات العقــول معًا لـم يبق منهنّ إلا دارس الرمـم
أنعي وحُبّك أخلاقاً لِطائفةٍ كانت مـطـايـاهـم مـن مـكـمـد الـكـظـم
مَضَى الجميـع فلا عيــنٌ ولا أثَر مُضِـيَّ عـادٍ وفُـقْـدانَ الأُلـى إرَم
وخَلّفوا معشرًا يجــرون لبستهـم أعْمى من البهم بلْ أعمى من النعم

***

أشار لحظي بعين علِم بخالصٍ من خِفّي وَهْم
ولائحٌ لاح في ضميري أدقّ من فهم وهم همّص
وخضتُ في لجّ بحر فكري أمُرُّ فيه كمرّ سهم
وطار قلبي بريش شوقي مركّب في جناح عزمص
إلى الذي عن سُئلتُ عنه رمزت رمزًا ولم أُسمّص
حتّى إذا جُزْتُ كل حدّ في فلوات الدنّو أَهْمِص
نظرت إذ ذاك في سَجَالٍ فما تجاوزتُ حدّ رَسْمص
فجئتُ مستسلما إليه حدّ قيادي بكفّ سلْمص
قد وسم الحبّ منه قلبي بميسم الشوق أيَّ وسم
وغاب عنّي شهود ذاتي بالقرب حتّى نسيتُ اسمص

***

لم يبق بيني وبين الحقّ تِبْيَاني ولا دليل ولا آيات برهان
هذا تجلّى طلوع الحقِّ نائرةً قد أَزْهَرَتْ في تلألیها بسلطان
كان الدليل له منه إليه به مِن شاهدِ الحقّ بل عِلمًا بِتِبْيان

كان الدلـــيل له منه به ولـــــه حقًّا وجدناه في تنزيل فُرقان

لا يستدلُّ على الباري بصنعتـــه وأَنْـتُـمُ حَـدَثٌ يُـنْـبِـي بـأزمـان

هذا وجودي وتصريحي ومعتقدي هـذا تـَوَحـُّدُ توحيدي وإيمـاني

هذا عبارة أهل الانفـــراد بـــه ذوي المـعـارف فـي سـرّ وإعـلان

هذا وجودُ وجودِ الواجدينَ لـــه بني التجانُسِ أصحابي وخُلَّاني

***

عجـبتُ مـــــنك ومنّـــــي يا مُنْـــيَةَ المُتَمَنّـــِي

أدنيتَـــــي منـــــك حتـــّى ظننـــــتُ أنـــّك أنـــّي

وغبتُ في الوجـــــد حتـــّى أفنيتنـَــــــي بـك عنـّي

يا نعمـتـي فـــي حياتـــي وراحتـــي بعـــد دفنـــي

ما لـــي بغيـــرك أُنـــسٌ مـــن حيـــث خوفـــي وأمـــني

يا من ريـــاض معانيـــــهْ قـــد حّويـــت كل فنـّي

وإن تمنيـــت شيـــــئًا فأنـــت كل التمنـّـــي

***

يا طالما غِبْنا عن أشباح النظر بنقطَةٍ تحْكِي ضياءُها القمرْ

من سمسم وشيرج وأحـــرف وياسمين في جبين قد سطر

تمشوا ونمشي ونرى أشخاصكم وأنتم لا ترونَّا يا دبر

***

أُقتلُوني يا ثقاتي إنّ في قتْلي حياتي

وممـــاتي فـــي حياتـــي وحيـــاتـــي في ممـــاتي

أنّ عنـــدي محْـــو ذاتـــي من أجـــلّ المـــكرمـــات

وبـــقائـــي في صفـــاتـــي من قبـــيح السّيّـــئات

سَئِمَـــتْ نفســـي حـياتـي فـــي الرســـوم البالـــيات

فاقتـــلونـــي واحـرقـونـي بعـــظامـــي الفانيـــات

ثـــم مـــرّوا برفـــاتـــي فـــي القـــبور الدارســـات

تجـــدوا ســـرّ حبيـبـي فـــي طـــوايا الباقيـــات

إننـــي شيـــخ كـــبير فـــي عـــلوّ الـــدارجـــات

ثم إنّـــي صـــرتُ طفـــلا فـــي حجـــور المـرضـعات

ساكـــنًا فـي لحْـــد قبـر فـــي أراضٍ سبـــخات

وَلـــدَتْ أُمّـــي أباهـــا أنَّ ذا من عجـــباتـــي

فبناتـــــي بَعْـــدَ أنْ كـ ـــن بنـــاتي أخـــواتـــي

ليـــس من فـــعل زمـــان لا ولا فعـــل الزنـــات

فاجمـــعوا الأجـزاء جمـعًا مـــن جســـورٍ نيـــرات

مـــن هـــواء ثم نـــار ثـــم مـــن مـــاء فـــرات

فازْرعـــوا الكـــلّ بأرضٍ تُرْبُهـــا تـــرب مـــوات

وتعـــاهـــدها بســـقي مـــن كـــؤوس دائـــرات

مـــن جـــوارٍ ساقيـــات وســـواقٍ جاريـــات

فـــإذا أتمـــمت سبـــعا أنبتَـــتْ خـــير نبـــات

***

مقطوعات متناثرة

(١)

وأيّ أرض تخـــلو منــك حتّى تعـالـوا يطلبونك فـي السـمـاء
تراهـــم ينظــرون إليك جهرًا وهـم لا يبصـــرون من العـماء

(٢)

كم أنت في بـــحر الخطـــايـا تبـــارز من يـــراك ولا تـــراه
وسمتُـــك سمـت ذي ورعٍ تِقّيٍ وفعْـــلك فعـــل متبّع هـــواه
فيـا مـــن بات يخلو بالمعاصي وعيـــن الله شـاهـــدة تـراه
أتطمـــع أن تنـــال العـفو ممّـا عصـــمتَ وأنت لم تطـلب رضاه
فتَـُــبْ قبل المـــمات وقبل يوم يلاقـــي العـــبد ما كسبت يـداه
أتفـــرح بالذنـــوب والخطـايـا وتنســـاه ولا أحـــد ســـواه

(٣)

كانت لقلبي أهواءٌ مفرّقة فاستجـ ـمعَتْ مُذْ راءَتْك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده وصرتُ مولى الورى مُذْ صرتَ مولائي

ما لامني فيك أحبابي وأعدائي إلّا لغفلتهم عن عظم بلوائي

تركتُ للناس دنياهم ودينهم شغلاً بحبّك يا ديني ودنيائي

أشعلتَ في كبدي نارين واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

(٤)

إذا دهمَتْك خيول البعاد ونادى الإياس بقطع الرجا

فخُذْ في شمالك ترس الخضوع وشُدّ اليمين بسيف البكا

ونَفْسَك نَفْسَك كُنْ خائفًا على حذر من كمين الجفا

فإن جاء الهجر في ظلمة فسِرْ في مشاعل نور لصفا

فقُلْ للحبيب ترى ذلّتي فجُدْ لي بعفوك قبل اللقا

فوَ الحُبِّ لا تنثني راجعًا عن الحِبِّ إلّا بِعَوْضِ المنا

(٥)

سبحـــــان من اظهر ناسوتُهُ سـرّ سـنـا لاهـوتِـه الـثـاقـب
ثم بـدا في خـلقه ظاهـــرًا فـي صـورة الآكـل والـشـارب
حتّى لقـــد عَايـــنَهُ خَلْقُه كلحْظِة الحاجب بالحاجب

(٦)

كتبتُ ولم أكُتُـــبْ إليك وإنّما كتبتُ على روحـي بغير كتابِ
وذلك أنّ الـــروح لا فرق بينها وبين مُحِبـــيّها بِفَصْلِ خطابِ
وكلّ كتابٍ صـــادر منـك وارد إليـك بـلا ردّ الـجـواب جـواب

(٧)

أُريـــدُك لا أريـــدك للثواب ولـكـنّـي أريـــدك للعقـاب
فكلّ مـــآربي قد نِلْتُ منـها سـوى مـلـذوذِ وجـدي بـالـعَـذَاب

(٨)

كَفَى حَزَناً أنّي أُنـــاديك دائمـا كـأنـّي بـعـيـدٌ أو كـأنـّك غـائـب
وأَطْلُبُ منك الفضل من غير رغبةٍ فلـــم أر قبلي زاهـدا فيك راغب

(٩)

طَلَعَتْ شمـس من أحـــبّ بلَيْلٍ فـ ـاستنارت فما عليها مـن غـروب
عن شمس النـــــهار تطلع باليل ـلِ وشمس القلوب ليس تغيب

(١٠)

رأَيتُ ربّي بعـــــين قلبـــــي فـقـلـتُ مـن أنـت قـال أنـت
فليـــس للأين منـــك أينٌ ولـيـس أيـــن بـحـيـثُ أنـت
وليس للوهـــم منك وهـــمٌ فـيـعـلـم الـوهـم أيـــن أنـت
أنت الـــذي حُـــزْتَ كل أين بـنـحـو لا أيـــنَ فـأيـنَ أنـت
وفي فنـــائي فـــنا فنـائي وفـــي فـنـائـي وجـــدت أنـت

(١١)

لي حبيـــبٌ أزور في الخلـوات حـاضـر غـائـب عـن الـلـحـظـات

ما تـــراني أصـغي إليه بسمعٍ كـي أعـي مـا يـقـول مـن كلمـات

كلمـــات من غير شكل ولا نطق ولا مـثـل نـغـمـة الأصـــــوات

فكأنّـــي مخاطـــب كنت إيّاه عـلـى خـاطـري بـذاتـي لـذاتـي

حاضـــــر غائب قريـب بعيدٌ وهـو لـم تـحـوه رسـوم الـصـفـات

هو أدل من الضمـــير إلى الوهم وأخـفـى مـن لائـح الـخـطـرات

(١٢)

سرّ السرائر مَطْـــوِيٌّ بِاثْبَاتِ في جانب الأُفْقِ من نور بِطيَّات

فكيف والكيف معروف بظاهـره فالغيب باطنه للذاتِ بالذات

تَاهَ الخلائقُ في عمياءَ مظلـمةٍ قصدا ولم يعرفوا غير الإشارات

بالظنّ والوهم نحو الحقّ مطلبهم نحوَ الهواء يناجون السماوات

والربّ بينهـم في كل منـقلب مُحِلَّ حالاتهم في كل ساعات

وما خلوا منه طرف عين لو علموا ومـا خـلا مـنـهـم فـي كـل أوقـات

(١٣)

فما لي بُعْدٌ بَعْدَ بُعْـــدِكَ بَعْدَمـــا تَيَقَّنْتُ أنّ القرب والبُعد واحد

وإنّي وإن أُهْجِرتُ فَالهَجْرُ صاحبي وكيف يصحّ الهجر والحُبّ واجد

لك الحمد في التوفيق في محضِ خالصٍ لعبدٍ زكّيٍ ما لغيرك ساجد

(١٤)

لا تلمـــــنّي فاللوم منّي بعيد أَجِـــرْ سـيـّدي فـإنـّـي وحـيـد

إنّ في الوعد وَعْدك الحـقّ حقًّا إنّ فـي الـبـدء بـدء أمـري شديد

مَن أراد الكتـــاب هذا خطابـي فـاقـرؤُا وأعـلـمـوا بـأنّـي شهيد

(١٥)

قـــد تصبّـــــرتُ وهل يصـ ـــبـرُ قـلـبـي عـــن فـــؤادي

مازجَـــتْ روحُـــك روحـي فـــي دنـــّـــوٍ وبـعـــــادي

فأنا أنـــت كـــــما أنـّـ ـــك أنـــّـــي ومـــــــرادي

(١٦)

أنتم ملكتم فؤادي فهِمْت في كلّ وادي

ودقّ على فؤادي فقد عدمت رقادي

أنا غريبا وحيدا بكم يطول انفرادي

(١٧)

حقيقة الحقّ مُسْتَنِيَر صارخه بالنبا خبير

حقيقة الحقّ قد تجلَّتْ مَطْلب من رامها عسير

(١٨)

أنت المُوَلّهُ لي لا الذكر ولَّهني حاشا لقلبي أَنْ يَعْلَق به ذِكَرى

الذكر واسطةٌ تُخْفِيك عن نظري إذا توشَّحَهُ من خاطري فكري

(١٩)

مواجِيدُ حَقٍّ أَوْجَدَ الحـــقُّ كُلَّـها وإنْ عـجـزَتْ عنْها فهوم الاكابر

وما الوجد إلا خطرة ثم نظـــرة تُنَشّي لهيبا بين تلك السرائر

إذا سكن الحقُّ السريرةَ ضُوعفتْ ثلاثة أحـوال لأهـل البصائـر

فحالٌ تُبيدُ السرَّ عن كنْهِ وجِـدِه وتُحْضِرُهُ بالوجد في حال حائر

و حالٌ به زُمَّتْ قوى السرّ فآنْثَنَتْ إلـى مُنْظِرِ أفنـاه عن كلّ ناظر

(٢٠)

الاحتمال الأول

إذا بلغ الصبُّ الكمال من الفـتَى ويذهل عن وصل الحبيب من السُّكر

فيشهد صدْقاً حيث أشهده الهوى بأنّ صلاة العاشقين من الكفـر

الاحتمال الثاني

إذا بلغ الصبُّ الكمال من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر

فشاهد حقّاً حين يشهده الهـوى بـأنّ صلاة العارفين من الكفـر

(٢١)

عَقدُ النبوّة مِصْباح من النـــور مُعَلَّقُ الوَحي في مشكاة تأمور
بالله يُنْفَخُ نَفْخ الروح في جَلَدِي بخاطري نَفْخَ اسرافيلَ في الصور
إذا تجلّى لطوري أن يُكلّمني رَأَيْتُ في غيبتي موسى على الطور

(٢٢)

لأَنوار نور الدين في الخلق أنوارُ وللسرّ في سرّ المسرّين أسرار
وللكون في الأكوان كون مُكَوّنٍ يكنُّ له قلبي ويهدي ويختار
تأمّلْ بعين العقل ما أنا واصف فللعقلِ أسماع وُعَاة وأبصار

(٢٣)

سكنتَ قلبي وفيه منك أسرار فليَهْنِك الدار بلْ فليهنك الجارُ
ما فيه غيرك من سرٍّ عَلِمْتُ به فأَنْظُرْ بعينك هل في الدار ديّار
و ليلة الهجرِ إنْ طالتْ وإن قَصُرَتْ فمؤنسي أملٌ فيه وتذكار
إنّي لراضٍ بما يرضيك من تلفي يا قاتلي ولِمَا تختار اختار

(٢٤)

الحبّ ما دام مكتومًا على خطـرٍ وغاية الأمْـنِ أن تدنو من الحـذر

و أطيب الحبّ ما نمّ الحديث بــه كالنارِ لا تأتِ نفعاً وهي في الحجر

من بعْدِ ما حضر السحاب واجتمعا الأعوانُ وامتطّ أسمى صاحب الخبر

أرجُو لنفسي براء من محبّتكــم إذا تبرّأت من سَمعي ومن بصـري

(٢٥)

غِبْتَ وما غبــتَ عن ضــميري وصــرْتَ فـرحـتـي وســـروري

وانفصل الفصل بافتـــــراق فـصـار فـي غـيـبـتـي حـضـوري

فأنت في سرّ غــيبِ همّـــي أخـفـى مـن الـوهـم فـي ضميري

تؤنســـني بالنـــهار حقـًّا وأنـــت عـنـد الـدجـى سـمـيـري

(٢٦)

يا شمــس يا بــدر يا نــهار أنـــت لـنـا جـنـّـة ونـــار

تَجنُّبُ الإثِم فــيك ثم إثــمٌ وخـاصّـيـة الـعـار فـيـك عـار

يخلعُ فيك العــذار قــومٌ وكـيـف مــن لا لــه عــذار

(٢٧)

أحـرفٌ أربعٌ بـها هام قلبـي وتـلاشـت بـهـا هـمـومـي وفـكـري

ألِفٌ تألف الخـلائق بالصـنـ ـعِ ولامٌ علـى الـمـلامـة تجـري

ثمّ لامٌ زيـادة في المعـاني ثـمَّ هـاءٌ أهـيـمُ بـهـا أتـدري

(٢٨) و(٢٩)

لماذا رفض الشيطان السجود لآدم؟

الاحتمال الأول

جحـودي فيك تقديس وعـقـلـي فـيـك تـهـويـس

ومـا آدم إلاك ومـن فـي الـبـيـن إبـلـيـس

الاحتمال الثاني

جُنُوني لك تقديـس وظـنّـي فـيـك تـهـويـس

وقد حيّرني حِـبٌّ وطـرْفٌ فـيـه تـقـويـس

وقد دلّ دليل الحُـبّ أن الـقـرب تَـلْبيـس

فمـن آدم إلاك ومـن فـي الـبـيـن إبـلـيـس

(٣٠)

حويتُ بكُلّي كلّ حُبّـك يا قُدْسي تكاشفني حتّى كأنّك في نفسي
أُقلّب قلبي في سواك فـــلا أرى سوى وحشتي منه ومنك به أُنْسي
فها أنا في حَبس الحياة مجمَّـع من الأنس فاقبضْني إليك من الحبْس

(٣١)

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربـت إلا وحبّـك مقـرون بأنفاسـي
ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهـــــم إلا وأنـت حديثي بين جُلاسي
ولا ذكرتك محزونًا ولا فَرِحـــًا إلا وأنـت بقلبي بين وسواسـي
ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكـأس
ولو قدرتُ على الإتيان جئتُكـــمُ سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراسِ
ويا فتى الحيّ إن غّنيت لي طـربًا فغّنـنِ وأسفًا من قلبك القاسـي
ما لي وللناس كم يلحونني سفهًا ديني لنفسي ودين الناس للنـاس

(٣٢)

يا نسيم الروح قـولي للرشـــا لـم يـزدنـي الـِورْد إلا عطشا

لي حبيبٌ حبّه وسط الحشـــا إن يشا يمشي على خـدّي مشا

روحه روحي وروحي روحـــــه إن يشـا شـئتُ وإن شـئتُ يشا

(٣٣)

عجبتُ لكلّي كيف يحمله بعضـي ومن ثقل بعضي ليس تحملني أرضـي

لئن كان في بسط من الأرض مَضْجَعٌ فبعضي على بسط من الأرض في قبضي

(٣٤)

ما زلتُ أطفو في بحـار الهـــوى يـرفـعـنـي الـمَـــوْجُ وانـحـطُّ

فتـــارةً يرفعـــني مَوْجُـــها وتـــارة أهـــوى وانـغـــطّ

حتّى إذا صيَّـــرني في الهـــوى إلـــى مـكـان مـا لـه شـــطّ

ناديتُ يا من لم أَبُـــح بِاســمه ولـم أَخُـنْـــهُ فـي الـهـــوى قطّ

تقيك نفسي السُّـــوء من حـــاكم مـا كـان هـذا بيـنـنـــا شـــرط

(٣٥)

مكانُك من قلبي هو القلب كلّــه فليس لخلقٍ في مكانك موضع

وحَطَّتْك روحي بين جلدي وأعظا مي فكيف تراني إن فقدتك أصنع

(٣٦)

إذا ذكرتك كاد الشوق يقلقني وغفلتي عنك أحزانٌ وأوجاع

وصار كلّي قلوباً فيك داعية للسقم فيها وللآلام إسراع

(٣٧)

نديمي غير منسوبٍ إلى شيءٍ من الحيف

سقاني مثلما يشرب كفعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

كذا من يشرب الراح مع التِّنين في الصيف

(٣٨)

صَيَّرني الحقّ بالحقـــيقةْ بـالـعـهـد والـعـقـد والـوثـيـقـةْ

شَاهَدَ سرّي بلا ضمـــيري هــذاك ســرّي وذا الـطـريـقـةْ

(٣٩)

وَحِّدْنِي واحدي بتوحيدِ صِدْقٍ مــا إلــيــه مـن الـمـســالـك طَـرقُ

أنا الحقُّ والحقُّ للحقِّ حـــقٌّ لاَبِـسٌ ذاتَـــهُ فـمـا ثـمّ فَـــرْقُ

قد تَجَلّتْ طوالـعٌ زاهـــراتٌ يـتـشـعـشـعْنَ فـي لـوامـع بَـرْقِ

(٤٠)

ركوبُ الحقيقة للحقِّ حـــقٌّ ومـعـنـى الـعـبـارة فـيـه تـدقّ

رَكِبْتُ الوجودَ بعين الوجـــودِ وقـلـبـي عـلـى قـســوةٍ لا يَـــرِقّ

(٤١)

جبلتْ روحك في روحي كما تجبل العنبر بالمسك الفتقْ

فإذا مسَّك شيءٌ مسَّني فإذاً أنت أنا لا نفترقْ

(٤٢)

دَخَلْتَ بناسوتي لديك على الخلق ولولاك لاهوتِي خَرجْتُ من الصِدْق

فإنّ لسان العلم للنطق والهدى وإنّ لسان الغيب جلّ عن النطق

ظهرتَ لقومٍ والتبستَ لفتيةٍ فتاهوا وضلّوا واحتجبتَ عن الخلق

فتظهر للألباب في الغرب تارةً وطورا على الألباب تغرب في الشرق

(٤٣)

فيك معنى يدعو النفوسَ إليك ودليل يدلّ منك عليْك

لِيَ قلبٌ له إليك عيونٌ ناظراتٌ وكلُّهُ في يدَيْك

(٤٤)

هّمي بـــه وَلُّه عليـــك　　يـــا مـــن إشـــارتـــنـــا إلـيـك

روحان ضمهما الهـــوَى　　فـــي مِـدْحَـتِـك وفـــي لـديـك

(٤٥)

دُنْيَا تُخَادِعُـــنِي كأنّـــي　　لـســـتُ أعـــــرف حـالـهـــا

ذمّ الإلـــــهُ حرامـــهـا　　وأنـــــا اجـتـنـبـت حـلالـهـــا

مـــدَّتْ إلـيَّ يمـــينها　　فـــرددْتـــهـــا وشـمـالـهـــا

ورايتُها محـــتاجـــــة　　فـوهـبـتُ جـمـلـتـهـا لـهـــا

ومتى عرفـــت وصـــالها　　حـتـــّى أخـــــاف مـلالـهـا

(٤٦)

عليك يا نفـــس بالتسلّي　　الـعـــزّ بـالـزهـد والـتـخلّـي

عليك بالطلْعة التي مشـــ　　كـاتـهـا الـكـشـف والـتـجلّي

قد قام بعضي ببعض بعضي　　وهـــام كـلـــي بـكـــلّ كـلـي

(٤٧)

مُزِجت روحك في روحـــي كما تـمـزج الـخـمـرة بـالـمـاء الـزلال

فإذا مسَّك شيء مســـــّـي فـــإذاً أنـــت أنـــا فـي كـلّ حـال

(٤٨)

نِعْمَ الإعَانَةُ رَمْزٌ في خفا لُطـفٍ في بارقٍ لاحَ فيها من حُلَى خِلَلِهْ

والحال يرمقني طوراً وأَرْمُـقُهُ إن شا يغشى على الإخوان من قُلَلِهْ

حال إليه رأى به فيه بِهِمّته عن فيض بحرٍ من التمويه من مِلَلِهْ

فالكلّ يشهده كُلّاً وأشهـــــده مع الحقيقة لا بالشخص من طللهْ

(٤٩)

ثلاثة أحرف لا عُجْمَ فيـــــها ومـعـجـومـانِ وانـقـطـع الـكـلام

فمعجومٌ يشـــاكل واجـــديهِ ومـتـروكٌ يُـصَـــدّقُـهُ الأنـــام

وباقي الحَرْفِ مرموزٌ مُعَـــمَّى فـلا سـفـر يـنـــال ولا مـقـام

(٥٠)

تفكّرتُ في الأديان جدَّ تحقّقٍ فألفيتها اصـلاً لـه شُـعَبـاً جّما

فلا تَطْلُبَنْ للمرء ديناً فـإنّه يُصَـدُّ عـن الأصـل الـوثيق وإنّـمـا

يطالبه اصلٌ يعبِّر عنده جميعُ الـمـعـالـي والـمـعـانـي فـَيَـفْـهَـمَـا

(٥١)

يا لائمي في هـواه كم تلوم فلَوْ عـرَفْتَ منـه الـذي عنيت لـم تَلُمِ

للناس حجّ ولي حجّ إلى سكني تُهْدَى الأضاحي وأُهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِي

تطوف بالبيت قـومٌ لا بجـارحةٍ بـاللّهِ طافوا فأغنـاهم عـن الحَـرَمِ

(٥٢)

بدا لك سرٌّ طال عنـك اكتتـامه ولاح صـبـاحٌ كنـت أنـت ظلامـه

وأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولـولاك لـم يطبـع عليـه خاتمـه

(٥٣)

هيكليّ الجسم نوريّ الصميم صـمـديّ الـروح ديّـان عليم

عاد بالروح إلى أربابها فبقي الـهـيـكـل فـي الـتـرب رمـيـم

(٥٤)

قلبك شيء وفيه منك أسماء لا النور يدري به كلّا ولا الظلم

ونور وجهك سرّ حين أشهده هذا هو الجود والإحسان والكرم

فخُذْ حديثي حِبّي أنت تعلمه لا الـلـوح يعلمه حقـاً ولا القلم

(٥٥)

آهٍ أنا أم أنْتَ؟ هَـذَيْـنِ إلهَـيْـنِ حاشاي حاشاي مِن إثبات أثنَيْنِ

هـويةٌ لـك في لايئتي ابَـداً كلّي عـلـى الـكـلّ تلبيسٌ بـوَجْـهـَيْـنِ

فـأَيْنَ ذاتك عنّي حيث كنت أرى فقد تَبَيّنَ ذاتـي حيت لا أيـن

وأَيْنَ وَجْهُك مقصود بناظرتّي في ناظر القلب أم في ناظر العين

بَيْنِي وبَيْنك أنّيٌ يُزاحِـمُنِـي فـارفـعْ بـأنـَّك أنّـي مِـن البين

(٥٦)

ألا أَبْلِغْ أحبّائي بأنّي ركبتُ البحر وانكَسرَ السفينةْ

على دين الصليب يكون موتي ولا البطحا أريد ولا المدينة

(٥٧)

أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا نحن روحانِ حَلَلْنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرتهُ وإذا أبصرتَهُ أبصرتَنا

(٥٨)

يا غافلاً لجهالةٍ عن شأني هلّا عرفتَ حقيقتي وبياني

أعِبادة لِلّهِ ستّة أحرفٍ مِن بينها حرفان معجومان

حرفان اصليّ وآخُر شَكْلُه في العجم منسوب إلى إيماني

فإذا بدا رأس الحروف أمامها حرفٌ يقوم مقام حرف ثان

أبصرتَني بمكان موسى قائما في النور فوق الطور حين تراني

(٥٩)

خاطَبنِي الــحقّ مـــن جنــاني فـكــان عـلـمـي عـــلـى لـسـانـي
قربّنـــي منه بَعـــدَ بُعْـــدٍ وخـصَّـنـي اللّه واصـطـفـانـي

(٦٠)

كذا اجتباني وأَدناني وشرّفنـي والـكـلّ بالكلّ أوصـانـي وعرّفني
لم يبق في القلب والأحـــشاءِ جارحةٌ إلّا وأعْرفه فيها ويعرفني

(٦١)

أنْتَ بين الشغاف والقلب تجري مثل جـري الـدمـوع مـن أجفاني
وتُحِلُّ الضميرَ جوفَ فـــؤادي كـحـلـول الأرواح فـي الأبـدان
ليس من ساكنٍ تَحَـــرَّكَ إلّا أنـت حَـرَّكْـتَـهُ خَـفَّـي المـكـان
يا هـلالاً بدا لأربع عـــشرٍ لـثـمـانٍ وأربـــعٍ و اثـنـــان

(٦٢)

حَمَّلْتَ بالقلب ما لا يحمل البَدَنُ والقلب يحمل ما لا تحمل البُدُن

يا ليتني كنتُ أدنى من يلوذ بكم عينًا لانظركم أم ليتني أُذن

(٦٣)

بيَان بيان الحقّ أنت بيانه وكل بيانٍ أنت منه لسانهُ

أشرتُ إلى حقٍّ بحقٍ وكل من أشار إلى حقّ فأنْتَ أَمانهُ

تشير بحقّ الحقّ والحق ناطقٌ وكل لسانٍ قد أتاك أوانهُ

إذا كان نعْت الحقّ للحقّ بَيّناً فما بالُهُ في الناس يَخْفَي مكانه

(٦٤)

رقَيبَانِ منّي شاهدَانِ لِحُبّهِ واثنانِ منّي شاهدَانِ تراني

فما جال في سرّي لغيرك خاطر ولا قال إلا في هواك لساني

فإنْ رُمْتُ شرقاً أنت في الشرق شرقهُ وإن رمتُ غرباً أنت نصب عياني

وإن رمتُ فوقاً أنت في الفوق فوقه وإن رمتُ تحتا أنت كل مكان

وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّهُ وأنت بكلّ الكلّ ليس بِفانِ

فقلبي وروحي والضمير وخاطري وتـرداد أنفاسي وعقد جنـاني

(٦٥)

أرجعْ إلى الله إنّ الغـــايةَ الله فـلا إلِـــهَ إذا بـالـغْـتَ إلّا هـو

وإنّه لمَعَ الخَـلْق الذين لهـــم في الميم والعين والتقديس معناه

معناه في شفَتي من حلّ معتقدًا عـن التهجّي إلـى خلقٍ لـه فاهـوا

فإنْ تشكّ فدبّرْ قول صاحبكم حتّى يقول بِنَفْيِ الشكّ هـذا هو

فالميم يفتح أعلاه وأسفـــله والعيـن بفتح أقصـاه وأدنـاه

(٦٦)

من رامه بالعقل مسترشـــدا أســـرحَـهُ فـي حـيـرة تـلهـو

قد شاب بالتلبيس أســـرارهُ يـقـول فـي حـيـرتـه هَـلْ هـو

(٦٧)

لسـتُ بالتـــوحيدِ ألهـــو غـيـر أنّـــي عـنـه أسْـهـــو

كيف أسهو كيف ألهو وصحيح أنّني هو

(٦٨)

يا سرّ سرّي تدقّ حتّى تُخفي على وهم كل حّيِ

وظاهرا باطناً تجلّى في كلّ شيء لكل شيء

لئن اعتذاري إليك جهلٌ وعُظْم شكّي وفرط عيّيِ

يا جملةَ الكلّ لستَ غيري فما اعتذاري إذًا إليّيِ

(٦٩)

اسمٌ مع الخلق قد تاهوا به وَلَهًا ليعلموا منه معنىً من معانيه

والله لا يصلوا منه إلى سببٍ حتّى يكون الذي أبداه يبديه

الفصل الثالث

سلطان العاشقين

ابن الفارض

ترجمة عمر بن الفارض

أبـو القاسم عمر بن الفارض، الحموي الأصـل والمصري النشأة والمقام والوفاة، ولد في القاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨١م، ويتفق جميع من ترجموا له على أن اسمه "عمر"، وكنيته "أبو القاسم" أو "أبو حفص"، ولقبه "شرف الدين"، وأنه ابن أبى الحسن علي ابن المرشد بن علي، من أسرة كانت تفتخر بأن لها نسبًا متصلاً ببني سعد، قبيلة حليمة السعدية مرضعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

يدين ابن الفارض بالأصل إلى حماة في بلاد الشام، ولهذا الأصل أهمية في طبائع الشاعر، فأهل الشام لهم في الأدب صولات وجولات وباع طويل، وقد كان للشاعر حنين دائم إلى الحجاز، وهذا يعود لوجود المقامات والحضرات المحمدية في تلك الربوع، وكيف لا يصبو إليها وقد تعلقت نفسه بهذه المقامات حتى كاد لسانه لا يتلفظ إلا بها.

وتقول عنه الدكتورة ليلى الدردوري إن ابن الفارض نشأ في كنف والديه في عفاف وصيانة وتزهد، واشتغل بالفقه الشافعي، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، ثم انحاز إلى التصوف، فاعتزل الناس عدة سنوات، وانفرد للعبادة والتأمل والتجرد، ولما توفي والده قصد مكة، وأقام فيها خمس عشرة سنة، فنضجت شاعريته وكملت مواهبه الروحية.

فعاد إلى مصر فاحتفل الناس به احتفالاً عظيمًا، وأكرموه على اختلاف طبقاتهم إكرامًا جزيلاً، حتى روي أن الملك الكامل نفسه كان ينزل لزيارته بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر، وقد عاصر ابن الفارض الأحداث المجيدة التي حققها الأيوبيون، فقد ترعرع في أيام صعود القائد البطل الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى ذروة مجده، وعاش في ظل الملك الكامل في مصر، وتوفي قبل سقوط الدولة الأيوبية على أيدي المماليك بعدة سنين.

كان أبوه يعمل بالفقه حتى أصبح فقيهًا شهيرًا خاصة في إثبات ما فُرض للنساء على الرجال من حقوق في المواريث، فغلب عليه لقب "الفارض"، ومن ثم لُقِّب ابنه عمر بـ "ابن الفارض".

وقد عُرف عن ابن الفارض أنه كان حسن العشرة رقيق الطباع وكان

كلامه فصيحًا بليغًا غلبت عليه نشأته المشبعة بالفقه والمعارف، وتتلمذه على يد الشيخ أبي الحسن علي البقال كاتب "الفتح الإلهي والعلم اللدني"، وقد كان في وجهه نور ظاهر، وكان إذا حضر مجلسًا ظهر على المجلس السكون والسكينة، ويمتلئ مجلسه دائمًا بالمشايخ والعلماء والفقراء والوزراء وسائر الناس، ويتسم بالأدب والتواضع الجم مع الكل، فكان إذا مشي في المدينة تزاحم عليه الناس يلتمسون منه البركة والدعاء، ويقصدون تقبيل يده فلا يُمكِّن أحدًا من ذلك بل يصافحه، وكانت حسن الثياب وطيب الرائحة، وكان ينفق على من كان يَرِد عليه من الفقراء والمساكين.

بدأ الشاعر سياحته الصوفية مبكرًا، فكان عمر يذهب إلى وادي المستضعفين بالمقطم وهو جبل شرقي القاهرة، ثم يعود من سياحته إلى أبيه الذي كان يُلزم ابنه بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس العلم، تعلَّم ابن الفارض الحديث على يد أحد كبار المحدثين في عصره، وهو العلامة الشافعي أبو محمد القاسم بن على بن عساكر الدمشقي (ت ٧٠٠ هـ/ ١٢٠٥م)، وهكذا انتمى ابن الفارض للمذهب الشافعي فلُقِّب بالشافعي.

وفى "كفاية المعتقد" لليافعى أن عمر بن الفارض دخل في أيام بدايته

مدرسة بديار مصر فوجد شيخًا فقال له: يا عمر، يفتح الله عليك، فجاء إليه وجلس بين يديه، وقال يا سيدي: في أي مكان يفتح الله عليّ؟ قال: يفتح الله عليك بمكة، فقال وأين مكة يا سيدي؟ فدله وأشار عليه، فرحل إليها ومكث بها خمس عشرة سنة، ثم عاد إلى الجامع الأزهر وزاع صيته بين العلماء والحكام والأمراء، وبعد أن اشتغل بالفقه ورواية الحديث حبب إليه الخلاء وأحب الصوفية، فتزهد واستأذن أباه في السياحة، فساح في الجبل الثاني في المقطم، وأوى إلى بعض أوديته ثم كان يعود ثانية وهكذا.

لذا بإشارة من جانب هذا الشيخ الولي سافر ابن الفارض إلى مكة فجاورها فترة من حياته وَفْقًا لما صار عادةً عند الكثير من الصوفية، طالبًا في رحابها الفيض الإلهي الذي لم يفض عليه ولم يفتح به في ديار مصر، فقد عاش هناك بين أودية مكة قُرابة خمس عشرة سنة، يُحتَمَل بين سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦م وسنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م. فأنشد ذاكرًا ذلك الزمان، (من الدالية "خفف السير...." الأبيات: ٣١- ٣٢):

يَا سَجـيرِي رَوِّحْ بِمَكَّةَ رُوحـي شَـادِيًا إِنْ رَغِبْتَ فِـي إِسْـعَـادِي
كَانَ فِيهَا أُنْسِي وَمِعْرَاجُ قُدْسِـي وَمُـقَـامِـي الـمَـقَـامُ وَالـفَـتْـحُ بَـادِ

وبعد رجوعه إلى مصر لم يُعَمَّر طويلاً، فقد تُوُفِّي بعد ذلك بأربع سنوات، يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٥م، فدُفن في اليوم التالي بالقرافة، بسفح المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض، وهو مُقامٌ على الجبل المذكور.

والجدير بالذكر أن ابن الفارض لم يترك لنا سوى ديوانه المعروف، فلم يُعثَر له على أي نوعٍ من رسالةٍ أو كتاب نستعين به لتوضيح مذهبه الصوفي، ومن أصدق ما قيل عن ابن الفارض تلك الأبيات التي كتبها سِبْطُه عليٌّ على ضريحه:

جُزْ بالقَرافَةِ تحْتَ ذَيْلِ العَارِضِ وَقُلِ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ، يَا ابْنَ الفَارِضِ
أَبْرَزْتَ فِى نَظْمِ السُّلُوكِ عَجَائِبًا وَكَشَفْتَ عَنْ سِرٍّ مَصُونٍ غَامِضِ
وَشَرِبْتَ مِنْ كَأْسِ المَحَبَّةِ وَالوَلاَ فَرَوِيْتَ مِنْ بَحْرٍ مُحِيطٍ فَائِضِ

وفن ابن الفارض في الحب فن الشاعر الذي اضطرم فيه الحب اضطرامًا حتى أذهله أحيانًا، وقد أراد التعبير عن ذلك الحب والإفصاح عما يجول في نفسه منه، فكان كلامه شعرًا تضيق بحوره وقوافيه عن اندفاع الحب وثورته، وتقصر الألفاظ عن تصوير حقيقته، ويحاول أن يحمل اللفظ مثل ما يحمل المعنى، فيحشر فيه وجوه البديع

من جناس وطباق، ويُغالي في ذلك مغالاة قلَّما وصل إليها شاعر، ويعمد إلى التصغير فيكثر منه كما يعمد إلى أساليب الوجدان من مناجاة ومناداة.

ويلقي الدكتور بليغ حمدي إسماعيل في مقالة بعنوان: "سلطان العاشقين.. التجربة الصوفية بين العقل والقلب" نشرت على موقع "ميدل إيست أون لاين" الضوء على العصر الذي نشأ فيه ابن الفارض، والذي يعتبره الدكتور العصر الذهبي للصوفية فيقول: ولد عمر بن الفارض في القرن السابع الهجري، وهو القرن المعروف تاريخيًّا بالقرن الذهبي للتصوف الإسلامي، إذ أن التصوف وصل فيه إلى قمة التعبير عن نفسه في مختلف نشاطه عملاً وفكرًا، والواقع أن هذه الحقبة كما يشير المؤرخون ظهر فيها أساطين وأقطاب التصوف الإسلامي عبر عصوره، ومنهم عبد القادر الجيلاني، ومحي الدين بن عربي، وأبي حفص السهروردي، وشهاب الدين السهروردي، وجلال الدين الرومي، وفريد الدين العطار، ويونس إمري، وشاعرنا الصوفي الكبير عمر بن الفارض.

وفي هذا القرن الاستثنائي في تاريخ التصوف اتخذ التصوف الإسلامي ملامحَ جديدة ومغايرة للقرون السابقة، فأصبح للتصوف بعدٌ نظري

واضح وعميق عما كان عليه من قبل، وفي هذا القرن انفتح التصوف الإسلامي على تجارب ثقافية ومعرفية متميزة ومتباينة أيضًا، فتأثر بكثير من التيارات الفكرية والدينية المنتشرة في ذلك الزمان، ولقد تأثر التصوف الإسلامي جد التأثر في هذا القرن بالتيارات الإيرانية الدينية لاسيما التي عرفت بحكمة الإشراق.

ولا شك أن هذه التيارات المختلفة استطاعت أن تُكسب التجربة الصوفية المعرفية أنماطًا معرفية جديدة وعمقًا وسِعَةً وشمولية في التفكير لم يعرفها من قبل على حد توصيف المستشرقين بذلك، وفي هذا القرن وجدنا التصوف الإسلامي يطلق العنان لتجاربه والتي تجسدت في ميادين أخرى غير التأليف النثري وبيان الأحوال والمقامات، مثل الشعر والموسيقى والفن المعماري، ولقد أطلق على هذا العصر لقب عصر التصوف الفلسفي.

إن ابن الفارض كشاعر لا يختلف كثيرًا عن ابن الفارض الإنسان الصوفي سامي الروح، فهو في شعره صادق العاطفة، متدفق المعاني، جَمَعَ من الموسيقى الشعرية، وعذوبة الكلام ما أكسبه ميزة وتطورا على أقرانه من شعراء الصوفية، وإن لم يخْل شعره من ثقل وغموض بسبب الصنعة التي انتشرت في عصره انتشارًا شديدًا فتسربت إلى

الشعر بنزعة من التقليد التي وإن كان ملحوظًا ثقلها إلا أن عذوبة ألفاظها وجمال معانيها عوَّض الكثير من الغموض والثقل الذي قد يشعر به القارئ؟

ولا تزال أشعار عمر بن الفارض موضع اختلاف في تفسير ماهية الحب الذي قصده، فمن قراء ديوان شعره من فهموا معانيه على ظاهر لفظه، وادَّعوًا أن حب ابن الفارض أرضي مادي، وأن غزله كغزل أبي نواس وغيره، ومنهم من تفهموا معاني غزله الحقيقية، ووقفوا على أسرار نفس صاحبه المتجردة، ففسروه تفسيرًا صوفيًّا، حتى دعي ابن الفارض سلطان العاشقين إلا أن حبه هو ذلك الحب الرفيع الذي يسمو على المادة، وينفلت من قيودها للحاق بمبدع الجمال، وينبوع كل بهاء.

ويتميز ابن الفارض بمذهبه الخاص في الحب؛ مذهبٌ يُنبئ عن قلب نقي وسريرة صادقة، وروح صافية توَّاقة للقاء محبوبه، هذا المذهب الذي له وطأة شديدة على النفس، ويتمثل في أن الحب الإلهي لديه يشمل الإنسان ويغَشَّاه شمولاً تامًّا، ويستسلم المحب له تمامًا، لأن الموت فيه حياة، والتلاشي نعيم وسعادة، فلا عز للمُحب بدون محبوبه، ولا هناءة للمحب في العيش دون الحب الذي يستمد منه طاقته وروحه

التي تغذي جسمانه بالحب الذي يُكمل من خلاله حياته في عشق وهيام دائم بالمحبوب

وقد ظل شعر ابن الفارض موضع الإعجاب والاهتمام عند الكثير من الباحثين عربًا كانوا أم عجمًا، شرقًا قطنُوا أم غربًا، فمن أبرز الدارسين له في الغرب: الين ر. نيكولسون، جون أ. اربري، وكارلو نالينو، وفي الشرق: مصطفى محمد حلمي وعاطف جَودة نصر، أما الذي جدَّد في دراسة وفهم شعر ابن الفارض الصوفي فهو المستشرق الإيطالي جوزيف سكاتولين الذي أجرى دراسة دلالية لألفاظ ديوان ابن الفارض فأتى بنتائج مهمة في فهم الشاعر الصوفي المصري العظيم عمر بن الفارض.

الحب الإلهي عند سلطان العاشقين

إن الغرام هو الحـياة فمـت به صـبًّـا فـحقـك أن تـمـوت وتُـعـذرا

قل للذين تقدموا قبـــلي ومن بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى

عني خذوا، وبي اقتدوا وليَ اسـ ـمعوا وتحدثوا بصبابتي بين الورى

ولقد خلوتُ مع الحبـيب وبيننا سـرٌّ أرق مـن النسيم إذا سرى

وأباح طرفـي نظـرة أمَّلـتها فـغـدوتُ مـعـروفًـا وكـنـت مـنـكَّـرا

فدُهشت بين جمـاله وجـلاله وغـدَا لسانُ الـحـال عني مُخبِرا

فأَدِرْ لِحَاظَكَ في محاسن وجهه تلقى جميع الحُسن فيه مُصوَّرا

لو أن كل الحسن يكمُلُ صـورَة ورآه كـان مُـهـلـلا ومُـكـبـرًا

الموضوع الأساسي الـذي يـدور حوله شعر ابـن الفارض هو الحب

والغزل، والحديث عن الخمر بصورة ليست كالصور التي تحدث بها عنها شعراء آخرون كأبي نواس وغيره، بل إنه يرمز فيها رمزًا صوفيًّا لا يفسَّر إلا تفسيرًا في ضوء فلسفته الصوفية التي يتميز بها في كتاباته وفي كلماته التي قالها في اختلاف المناسبات، فنجده يذكر الخمر في مناطق عدة ويقول عنها إنها داء كل دواء، وهي تشفي من كل مرض وتحل كل مشكلة، وما هذه الخمر سوى الحب الإلهي المُفرط الذي يشفي كل مريض ويحيي كل الموتى ويفتح كل الأبواب المغلقة ويُذيب كل هم وغم، حينما تنتشر رائحته في العالم وتغدوا مذهبًا لكل العالمين.

وإن خطرت يومًا على خاطر امرئٍ أقامت به الأفراح وارتحل الهمّ
ولو نظر النُّدمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثَرَى قبر ميتٍ لعادت إليه الروح وانتعش الجسم
ولو طرحوا في فَيء حائط كرمها عليلاً وقد أشفى لفَارقه السقم
ولو جُليت، سرًّا على أكمه غدا بصيرًا، ومن راووقها تَسمع الصم
تهذب أخلاق الندامى، فيهتدي بها لطريق العزم، من لا له عزم
ويكرُمُ من لم يعرف الجود كفه ويَحكم عند الغيظِ، من لا له حلم

وقد اختلف كثيرا في كُنه الخمر التي يقصدها ابن الفارض هنا، لكن هناك العديد من الشواهد التي تؤكد أنه يقصد بهذه الخمر الحب الإلهي وهي أننا نجده يقول في موضع آخر عن أوصاف الحبيب الذي يُحيي الموتى ويُزيل كل هم وغم، فيصفه بصفات ليس لها مثيل، وبكلام ليس له قبيل، ويقول بأنه أعلى ما يتبادر إلى الذهن، وبأنه قديمٌ جدا قبل العالم كله، وأنه موجودٌ قبل الوجود بأسره، فنجده يقول:

تقدم كل الكائنـات حديثـــها قديمًا، ولا شكلٌ هناك، ولا رسم

صفاءٌ ولا ماءٌ، ولطفٌ ولا هواءٌ ونـورٌ ولا نـارٌ، وروحٌ ولا جسم

فالقارئ لهذه الأبياتوهذه الأوصاف الواردة هنا يلاحظ أن ابن الفارض يقصد بالخمر الحب الإلهي أو المولى عز وجل، فما من شيء في الدنيا تناسب أوصافه الأوصاف التي ذكرها ابن الفارض في مواطن عدة في شعره.

كما إن من ابرز ما يُميز سلطان العاشقين أن أبياته وأشعاره كفيلة بكشف المزيد من أسرار الحب الإلهي والتصوف، لأن ابن الفارض له مقام محبة خاص به لا يُنازعه فيه أحد، فهو خير وأصدق تمثيل لهذا المقام بغير منافسة أو اشتراك أو منازعة، وكانت الحياة العلمية

والبيئة الصوفية والمعرفية لم تكن بجديدة على عمر بن الفارض.

ويقول أحمد حسن الزيات في كتابه "تاريخ الأدب العربي" إن ابن الفارض كان يعيش في عصر الأيوبيين، وهو عصرٌ عُرف بإحياء الفكر والثقافة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى الاهتمام بالسياسة، وإحياء العلوم الشرعية، والعناية بالقرآن الكريم، والحديث النبوي، ولتحقيق هذه الغاية النبيلة راح الحكام يشجّعون العلماء، ويتسابقون إلى تقريب الفقهاء والحفّاظ والقرّاء، ذلك العصر عصرُ تنازُعِ عاملين مختلفين في النفوس: التصوف والتقوى، وفي المقابل الفسوق والمجون، وذلك لانحلال الأخلاق وتحكّم الشهوات آنذاك.

واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين: فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان، وابن الفارض نشأ نشأة دينية، ورُبّي تربية صوفية، فلم يكن له بدٌّ من سلوك طريقة القوم في شعره؛ فينظم في شعره إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويُكثر من نعت الخمر وذكر الغزل مريدًا بذلك الذات الإلهية وحبّها وما شابهها من المفاهيم، فكان بذلك مُوجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي.

فالبيئة التي رُبي فيها ابن الفارض وسيلة ودليلاً على تهيئة المناخ

الجيد لأن يكون ابن الفارض فيما بعد سلطانًا للعاشقين ومحبًّا بغير انقطاع أو ملل.

ولقد خلوتُ مع الحبيبِ وبيننا سـرٌّ أرقُّ مـن النسيمِ إذا سرى

وأباح طرفي نظرةً أمَّلـــتها فـغـدوتُ مـعـروفًـا وكـنـت مُـنـكـرا

فدُهِشت بين جماله وجــلاله وغَـدَا لسان الـحـال منِّـي مجهرا

فهذه الأبيات وغيرها كفيلة بأن تُرقي عمر ابن الفارض مرتبة لم يصلها كثيرون غيره من الصوفية، واستحق أن يكون سلطان العاشقين متفردا بها كما تفرد ابن عربي بلقب "سلطان العارفين".

وواصل عمر بن الفارض رحلته وسياحته العلمية والمعرفية في مصر، ولك أن تعرف أنه تعلم الحديث على يدي واحد من كبار محدثي عصره وهو العلامة الشافعي أبو محمد القاسم بن علي بن عساكر الدمشقي، والغريب في أمر شهرة عمر بن الفارض أنه لم يترك لنا من آثار تجربته الصوفية سوى ديوان واحد فقط اشتمل على ست عشرة قصيدة، ولم يعثر له على أية رسالة أو كتاب صغير يمكن أن نتلمس آثار تلك التجربة والرحلة الروحية توضح لنا مذهبه واتجاهه الصوفي، ورغم ذلك يظل أرق من تحدث عن العشق الإلهي.

وكان ابن الفارض لا ينسى طعم حب الله، ويؤكد على أن للحب الإلهي طعم لن ينساه إلا أن يموت، فهو عنده ألذ من أي شيء دنيوي آخر، ولذا اتسع ديوانه ليشمل نصائح ووصايا له يُوصي بها أحبائه أن ينتهجوا حب الله في حياتهم ويجعلون قلوبهم تنبض به لأن الحياة دون هذا الحب الإلهي ما هي إلا موت.

والحب الإلهي رمز في حياة ابن الفارض وأشعاره، وعبر عنه بالخمر لأن الخمر تضعف العقل وتذهبه بعيدًا عن الدنيا، فكذلك الحب الإلهي يأخذ المُحب بعيدًا عن الدنيا وينفصل عن كل الدنايا ولا يرى إلا الله تعالى، وليس في هذا الحب الإلهي ضرر بل كله حُسنٌ وكرم:

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا ومن لم يمت سكرًا به فاته الحزم

على نفسه، فليبْك من ضاع عمــره وليس لـه فيها نصيبٌ ولا سهم

وتقول فائزة عبدالزهرة جامل أن ابن الفارض أحد شعراء الصوفية، الَّذين ذاع صيتهم وانتشرت أشعارهم على ألسنة الناس، أما صلة الصوفي بالشاعر فتقوم على اعتماد كلّ منهما على الحدس الذاتي واستعمال اللغة المجازية، ولكن موضع الخلاف بينهما يكمن في أن الشاعر يجد حقيقة تجربته بالوُلوج في صميم العالم، بينما يجدها

الصوفي بالفناء عن العالم، وعن ذاته أيضًا.

وينبغي معرفة أنَ التصوف هو تلمس المعرفة الحقيقية بالذوق الإيماني، وتجلي النور الإلهي في قلب المؤمن العابد، وهاتان الحالتان لا سبيل للعقل إليهما، وليس هذا أن تهمل قدْر العلم ومكانة العقل، وشعر ابن الفارض يمثل تجربة شعرية ذات أثر مهم وفاعل في الشعر الصوفي، استند في ذلك إلى ملامح خاصة ومنفردة.

ويقول الشيخ مصطفى عبدالرازق في تقديمه لكتاب "ابن الفارض والحب الإلهي" للدكتور محمد مصطفى حلمي إن ابن الفارض لم يسلم كما لم يسلم غيره من الصوفية من طعن الطاعن عليه، وتصدى له كثير من الفقهاء يتهمونه بالكفر والزندقة، لأن المتصوفة لقيت من قديم الدهر عنتًا شديدًا، وذلك جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم، وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيغ، ولقد اضطر ابن عربي لكي يضمن لنفسه السلامة والعافية أن يضع لديوانه "ترجمان الأشواق" شرحًا يُبين فيه مقاصد كلامه ومراميه، ويُظهر ما خفي من معانيه، ويعين ما التبس منها، لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذي أراد.

ويعتبر الحب لدى ابن الفارض مذهبًا أو دينًا لا ينبغي له أن يحيد عنه،

ولا أن يتركه أبدًا، فنراه يقول:

وَعَنْ مَذْهَبِي فِي الحُبِّ مَالِي مَذْهَب وَإنْ مَلْتُ يَوْمًا عَنْهُ فَارَقْتُ مَلّتِي

وَلَوْ خَطرَتْ لِي فِي سِوَاكَ إرَادَةٌ عـَ لَى خَاطِرِي سَهْوًا قَضَيْتَ بِرِدّتِي

ولقد وصل الأمر بابن الفارض أن أطلق على نفسه ملك العشق، وكل العاشقين في كنفه ورعايته، وأنه يحكم عليهم بما يريد، وحكمه نافذ ومُطاع، وأن آية العشق بدأت به وأصبح العشق بستانه الذي ينهل منه الجميع، فتراه يقول:

نَسَخْتُ بِحُبّي آيَةَ الْعِشْقِ مِنْ قَبْلِي فَأَهْلُ الهَوَى جُنْدِي وَحُكْمِي عَلَى اَلكُلّ

كما يُتابع في موضع آخر بقوله إن العاشقين سيُحشرون تحت لوائه يوم القيامة :

يُحْشَرُ العَاشِقُونَ تَحْتَ لِوَائِي وَجَمِيْعُ المِلَاحِ تَحْتَ لِوَاكَا

وتارة أخرى يقول :

وَمُلْكُ مَعَالِي العِشْقِ مُلْكِي وَجُنْدَي الـ مَعَانِي وَكُلُّ العَاشِقِيْنَ رَعِيّتِي

وابن الفارض في أشعاره يُخاطب من يحب أحيانًا بضمير المفرد المذكر أو المؤنث، وتارة أخرى بضمير جمع المذكر أو المؤنث

المخاطب أو الغائب، وهو حين يذكر محبوبته تراه يسميها مرة ليلى، ومرة سلمى، وتارة مي، وتارة أخرى سعاد.

وقد حاول د محمد مصطفى حلمي أن يجد تأويلاً لهذا فاهتدى إلى "أن الذي يحتمل وجهين، أحدهما صوفي والآخر إنساني، أو الذي يحتمل وجهًا واحدًا إنسانيًا يلاحظ عليه الضعف من الناحية الفنية سواء في ألفاظه ومعانيه وأخيلته ونفسه ومبلغ حظه من الانسجام يختلف اختلافًا ظاهرًا عما تمتاز به قصائد الحب الإلهي الخالص من رقة اللفظ، ودقة المعنى، وعمق الخيال.

وانطوى حب ابن الفارض في صورتيه الإنسانية والإلهية على منازع فلسفية، يمكن أن ترد هذه المنازع على كثرتها إلى فكرتين لهما قيمتهما من الناحية الفلسفية: إحداهما فكرة الوحدة التي تنتفي معها الكثرة، والأخرى فكرة الخلق الصادر في عالمي المحسوس والمعقول عن الحب.

ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي في ذلك: "ليس من الإنصاف في شيء أن ينظر إلى ما وصل إليه ابن الفارض في حبه، وعن طريق ذوقه ووجده، نظرة ازدراء تجعل من فتوحاته محض أوهام ومجرد خيالات،

أو إدراكات شخصية لا ضابط لها من العقل ولا غناء فيها.

هل يُمكن هنا الإيمان بأن وحدة ابن الفارض – كما قال – وحدة شهود لا وحدة وجود، أم الموافقة على ما ذهب إليه في عشقه للذات الإلهية وتغزله بها؟! أم هل أن فتوحات ابن الفارض المزعومة ما هي إلا مجرد خيالات لا ضابط لها من العقل؟.

وهنا يشير جوزيف سكاتولين إلى أن هناك قضية أو مسألة أساسية في شعر ابن الفارض تتضارب حولها الآراء، وهذه القضية هي قضية عامة في التصوف الإسلامي، وهي هل كان ابن الفارض من مدرسة ابن عربي التي تُسمى مدرسة "وحدة الوجود؟" أي المدرسة التي تقول بأن وجود العبد يفنى في ربه في النهاية حتى إنه لا يعترف إلا بوجود واحد وهو وجود ربه، أم هل ينتمي إلى مدرسة "وحدة الشهود؟" أي المدرسة التي تقول بأن وعي الصوفي يتلاشى في مشاهدة ربه حتى لا يتبقى له وعي شخصيّ فلا يرى إلا ربه بغير إنكار تميُّز وجوده عن وجود ربه.

وردًّا على هذا التساؤل، يصنف جوزيف سكاتولين دارسي ابن الفارض إلى صنفين: صنف قرأ أشعار ابن الفارض في ضوء فلسفة ابن عربي الصوفية، أي فلسفة وحدة الوجود، فما رأوا فرقًا بين الاثنين إلا في صيغة الكلام، فقالوا إن ديوان ابن الفارض ليس إلا صورة شعرية

لفلسفة وحدة الوجود، وأما الصنف الثاني فقدر رأوْا أن الاتحاد أو الوحدة التي يصفها ابن الفارض في شعره ليست إلا وحدة الشهود، وهو شاعر صوفي وصل إلى الفناء التام في الذات العلية حتى صارت الموجودات منعدمة تمامًا فيما عدا ربه.

ويقول الأستاذ واصف باقي إن ابن الفارض هو أمير الشعر الصوفي، ولم لا وهو يهدر دائمًا:

وما زلت مذ نيطت علي تمائمي أبـــايـع سـلـطـان الـهـوى وأبـايـع

وإني مذ شاهدت فيّ جمـــــاله بـلــوعـة أشـــــواق الـمـحـبـة والـع

أُراني بوادي الحب أرعى جماله ألا في سبيل الحب ما أنـا صانع

صبرت على أهواله صبر شاكر وما أنا في شيء سوى البعد جازع

كل أشعاره هكذا مرشحة بمفردات الحب والجمال والغزل والهيمان، فعلى يديه اشتهر شعر التصوف وقد كون تيارًا فريدًا في الشعر الإلهي.. وكما أسس مدرسة من مريديه عملت تحولاً في دنيا الأدب الصوفي، حيث تأسست هذه المدرسة وتكونت باجتماعها ثلاثة عناصر متآلفة متعاونة وهي:

الأول: عاطفي؛ والذي تحوّل معه الحب العذري النزيه إلى قيمة وإلى

مثل أعلى.

الثاني: فكري؛ وكأنه مُستقى من حكماء اليونان وفلاسفة الرومان.

الثالث: أخلاقي؛ وهو الذروة عندهم فبلغ الثراء بالوصايا والحكم والمعاني العالية بحيث أضحى أغنى تراث أخلاقي وتربوي في حضارتنا، حتى الغزالي المفكر والعالم والحجة تدفقت قريحته بالشعر الصوفي كقوله:

ما بال نفسي تطيل شكواها إلى الورى، وهي ترتجي الله

لو أنها من مليكها اقتربت وأخلصت ودّها لأدناها

أفقرها للورى ولو لجأ إليه من دونهم لأغناها

مختارات من شعر ابن الفارض

أُخفي الهوى ومدامعي تُبديهِ

أُخفي الهوى ومدامـــــعي تُبديهِ وأُمـيـتـهُ وصـبـابـتـي تـُحـيـيـه

وَمُعذبي حُلو الشمـــــائل أهيفٌ قـد جُـمـعـت كـل الـمـحـاسـن فيه

فكأنه بالحُـــسن صورة يوسفٍ وكـأنـنـي بـالـحـزن مـثـل أبـيـه

يامُحرقاً ً بالنـــــار وَجدَ مُحِبه مـهـلاً فـــأن مـدامـعـي تطفيه

أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحـرص عـلـى قـلـبـي فـأنـك فيه

أن أنكر العشاق فيك صـــبابتي فـأنـا الـهـوى وابـن الـهـوى وأبـيـه

تهْ دلالاً فأنتَ أهلٌ لذاكا

تهْ دلالاً فأنـــــتَ أهـــلٌ لذاكا

وتَـحـكّـمْ، فـالـحُـسْـنُ قـد أعـطـاكَـا

ولكَ الأمـرُ فاقضِ ما أنتَ قاضٍ

فـعـلّـي الـجـمـــالُ قـــدْ ولاّكـــا

وتلافي إنْ كانَ فيـــهِ ائتلافي

بِـــكَ، عَـجّـلْ بِـــهِ، جُـعِـلْـتُ فِـداكـا!

وبما شئتَ في هـــواكَ اختبرني

فـاخـتـيـاري مـاكـانَ فـيـهِ رضـاكـا

فعلى كلِّ حـــالةٍ أنـــــتَ مني

بـــي أولـــى إذْ لـــمْ أكـــنْ لـولاكـا

وكفّاني عِزّاً، بِحُبّـــــكَ، ذُلّي،

وخُـضـــوعـي، ولـســـتُ مِـــن أكْـفـاكـا

وإذا ما إليكَ، بالوَصـــلِ، عزّتْ

نِـسْـبـتـي، عِـــزّةً، وَصـــحّ وَلاكـــا

فاتهامي بالحبِّ حســـــبي وأنّي

بـيـنَ قـومـي أعـــــدُّ مـــنْ قـتـلاكـا

لكَ في الحـــــيِّ هالكٌ بكَ حيٌّ

فـي سَـبـيـلِ الـهَـوى اسْـتَـلَـذّ الـهَـلاكـا

عَبْدٌ رِقٍّ، مـــارَقّ يَوْمـــًا لعَتْقٍ

لـــوْ تَـخَـلّـيْـتَ عَـنْـــهُ مـا خَـلاّكـا

بِجـــمالٍ حَجَبْتَهُ بِجـــــلالٍ

هـــامَ واسـتـعـذبَ الـعـذابَ هـنـاكـا

وإذا مـا أمّنُ الرّجـــا مِنْهُ أدْنَا

كَ فـعـنـهُ خـوفُ الـحـجـي أقـصـاكـا

فبإقدامِ رغـــــبةٍ حينَ يغـشا

كَ، بـإحْـجـامِ رَهـبَـةٍ يـخْـشـاكـا

ذابَ قلبـــي فأذنْ لهُ يتمـــــنَّا

كَ وفـــيـــهِ بـقـيَّـةٌ بـرجـاكـا

أومُـــــرِ الغُمْضَ أنْ يَمُرّ بِجَفني

فـكـأنِّـي بـــهِ مـطـيـعـاً عـصـاكـا

فَعسَـــى ، في المَنام، يَعْرِضُ لي

الـوَهْـــمُ فـيـوحـي سـرّاً إلـيَّ سـراكـا

وإذا لمْ تنعـــشْ بـروحِ التَّمنِّي

رمـقـي واقـتـضـى فـنـانـي بقـاكـا

وَحَمَتْ سُنّةُ الهَـــوَى سِنَةَ الغُمْـ

ضِـن جـفـونـي وحـــرَّمـــتْ لـقـيـاكـا

أبقِ لـــــي مقلـــةً لعلِّي يومًا

قـبـلَ مـوتـي أرى بـهـا مـــنْ رآكـا

أينَ منِّي مارمـــــتُ هيهاتَ بلْ أيْـ

ـــنَ لَـعـيْـنـي، بـالـجَـفـنِ، لـثـمُ ثَـرَاكـا

فَبَشيرِي لَوْ جـــــاءَ مِنْكَ بعَطْفٍ

ووُجـــودي فـي قَـبْـضَـتـي قـلْـتُ: هـاكـا

قد كَفى ما جَـرى دَمًا من جُفونٍ

بِـك، قَـرْحَـى ، فـهَـل جَـرى مـا كَفـاكـا

فأجـــرٌ من قِلاكَ، فيك، مُعَنًّى

قـبـلَ أنْ يـعـرفَ الـهـوى يـهـواكـا

هبـــــكَ أنَّ اللَّاحي نهاهُ بجهلٍ

عَـنـكَ، قـل لـي:عـن وَصَـلِـهِ مـن نَـهـاكـا

وإلى عِـــــشْقِكِ الجَمالُ دَعاهُ

فـــإلـــى هـــجـــرِهِ تـــرى مـــنْ دعـاكـا

أتُرى من أفتـــــاكَ بالصّدّ عَنّي

ولِـغَـيـرِي، بـــالـــوُدّ، مَـــن أفـتـاكـا

بانكســـــاري بذلَّتي بخضوعي

بـــافـتـــقـــاري بـفـــاقـتـــي بـغـنـــاكـا

لاتَكِلْنـــــــــي إلى قُوى جَلَدٍ خا

نَ فـإنـي أصـبـحـتُ مـنْ ضـعـفـاكـا

كُنتَ تَجفو، وكانَ لي بعضُ صَبرٍ،

أحـســنَ اللّهُ فـي اصـطـبـاري عـزاكـا

كم صُدوداً، عَسَاكَ تَرْحمُ شكْوا

يَ ولـــوْ بـاســتـمـاعِ قـولـي عسـاكـا

شَنّعَ المُرْجِفُونَ عنكَ بهَـــجرِي

وأشـــــاعـــوا أنـــي ســـلـــوتُ هـواكـا

ما بأحشائِهِمْ عَشـــقْتُ، فأسْلُو

عـنـكَ يـومًـا دعْ يـهـجـروا حاشـاكـا

كيفَ أســـلو ومقلـــــتي كلَّما لا

حَ بُـــرَيْـــقٌ، تَـلَـفّـتَـتْ لِـلِـقَـاكـا

إنْ تنسَّمتَ تحـــتَ ضـوءِ لئامِ

أوْ تـنـسَّـمـتُ الـرِّيـحَ مـنْ أنـبـاكـا

صبتُ نفســـًا إذْ لاحَ صبحُ ثنايا

كِ لـعـيـنـي وفـــاحَ طـيـبُ شـذاكـا

كُلُّ مَن في حِـــماكَ يَهوَاكَ، لكِن

أنـــا وحـــدي بِـكُـلّ مـن فـي حِـماكـا

فيكَ مَعْنًى حَلاكَ في عَينِ عَقْلي

أُلـــفِـــهِ، نـحـوَ بـاطِـنـي، ألـقـاكـا

فقتَ أهلَ الجمالِ حسناً وحسنى

فـبِـهِـمْ فـاقـةٌ إلـــى مَـعـنـاكـا

يحشرُ العاشقـــونَ تحتَ لوائي

وجـمـيـعُ الـمِـــلاحِ تـحـتَ لِـواكـا

ما ثنـــائي عنكَ الضّني فبماذا

يـا مـلـيـحَ الـــدَّلالِ عـنِّـي ثـنـاكـا

لكَ قُرْبٌ مِنّي ببُعـــــــدِكَ عنّي

وحـــنـــوٌّ وجـــدتـــهُ فـــي جـفـاكـا

علّمَ الشَّوقُ مقلتـــــي سهرَ اللَّيْـ

ـلِ، فـصـارَتْ، مِـنْ غَـيـرِ نـوْم، تـراكـا

حبّذا ليلَةٌ بها صـــــدِّتُ إسّرا

كَ وكـــانَ الـسُّـهـادُلـي أشـراكـا

نابَ بدرُ التَّمامِ طيـــفَ محيَّا

كَ لـطـرفـي بـيـقـظـتـي إذْ حـكـاكـا

فَتراءيتَ في سِـــــواكَ لِعَينٍ

بـــكَ قَـــرّتْ، ومـــا رأيـــتُ سِـواكـا

وكذاكَ الخَلـــــيلُ قَلّبَ قَبْلي

طـــرفـــهُ حـيـــنَ راقـــبَ الأفـلاكـا

فالدّياجـــــي لنا بكَ الآنَ غُرٌّ

حـيـثُ أهـديـتَ لـي هـدىً مـنْ ثنـاكـا

ومَتى غِبْتَ ظاهِرًا عن عيـاني

ألـــفـــهِ نـحـــوَ بـاطـنـي ألـفـاكـا

أهلُ بـــــدرٍ ركبٌ سريتَ بليلٍ

فـيـهِ، بـل ســارَ فـي نَـهـارِضـيـاكـا

واقتِباسُ الأنـــوارِ مِن ظاهري

غـيـرُ عـجـيـبٍ، وبـاطِـنـي مـأواكـا

يعبقُ المسكُ حيثما ذكرَ اسمي

مـنـــذُ نـاديـتـنـي أقـبِّـلُ فـاكـا

ويَضوعُ العَبـــيرُ في كُلّ نادٍ، و

وهـــوَ ذكـــرٌ مـعـبِّـرٌ عـنْ شـذاكـا

قالَ لي حســـنُ كلِّ شئٍ تجلّى

بـي تَـمَـلّـى !فـقُـلـتُ:قَـصـدي وراكـا

لي حبيـــــبٌ أراكَ فيهِ معنًّي

غُـرّ غَـيـري، وفـيـهِ، مَـعـنًـى ، أراكـا

إنْ تـــــــولَّى على النفوسِ تولّى

أو تَـجَـلّـى يَـسـتَـعـبِـدُ الـنُّـسّـاكـا

فيهِ عُوّضـــتُ عن هُدايَ ضَلالاً

ورَشـــادي غَـيّـاً، وسِـتـري انـهِـتـاكـا

وحّدَ القَـــــــلبُ حُبَّهُ، فالتِفاتي

لـــكَ شِـــرْكٌ، ولا أرى الإشـــراكـا

يا أخا العـــــذلِ في منِ الحسنُ

مـثـلـي هـــامَ وجـــدًا بـــهِ عـدمـتُ أخـاكـا

لو رأيتَ الـــذي سَبـــــانيَ فيهِ

مِـــن جَـمـــالٍ، ولـــن تَـــــراهُ، سَـبـاكـا

ومتـــــى لاحَ لي اغتَفَرْتُ سُهادي

ولِـعَـيـنَـــيّ قُـــلْـــتُ:هـــذا بِـذاكـا

لا تحسبوني في الهوى متصنِّعًا

لا تحسبوني في الهــوى متصنِّعًا كلفي بكمْ خلقٌ بغيرِ تكلُّفِ
أخفيتُ حبَّكمُ فأخفـــــاني أسىً حتى،لعَمري، كِدتُ عني أختَفي
وكَتَمْـتُهُ عَنّـــي، فلـــــو أبدَيْتُه لَوَجَدْتُهُ أخفى منَ اللُّطْفِ الخَفي
ولقد أقولُ لِمن تَحَـــرّشَ بالهَوَى عرَّضتَ نفسكَ للبلا فاستهدفِ
أنتَ القتيلُ بأيِّ منْ أحــببتهُ فاخـ ترْ لنفسكَ في الهوى منْ تصطفي

نسخْتُ بحُبّي آيةَ العِشقِ من قبلي

نسخْـتُ بحُبّي آيةَ العِشقِ من قبلي،

فـأهـلُ الـهـوى جُـنـدي وحكمـي علـى الـكُـلِّ

وكُلُّ فَتًى يهـــوى ، فإنّـــي إمَامُهُ،

وإنّـــي بَـــريءٌ مِـن فَـتًـى ســامـعِ الـعَـذْلِ

ولي في الهوى عِلْمٌ تَجـــلّ صِفاتُهُ،

ومـنْ لـمْ يـفـقِّـهـهُ الـهـوى فـهـوَ فـي جـهـلِ

ومنْ لمْ يكنْ في عزَّةِ النَّـفسِ تائهًا

بِـحُـبّ الـذي يَـهـوى فَـبَـشّـرْهُ بـالـذّلّ

إذا جادَ أقـــــوامٌ بِمـــالٍ رأيْتَهُمْ

يَـجـودونَ بـــالأرواحِ مِـنْـهُـم بِـلا بُـخـلِ

وإنْ أودعوا سرًّا رأيتَ صــدورهمْ

قَــبــوراً لأســـــرارٍ تُـنَـزَّهُـعـن نـقَـلِ

وإنْ هدِّدوا بالهجــرِ ماتوا مخافةً

وإن أُوعِــدوا بـالـقَـتلِ حـنّـوا إلــى الـقَـتْلِ

لعمري همُ العشَّاقُ عنــدي حقيقةً

على الـجِـدّ، والـبـاقـون منهم على الـهَـزْلِ

هُوَ الحُبّ فاسلمْ بالحشا

هُوَ الحُبّ فاسلمْ بالحشا ما الهَوَى سَهْلُ

فَما اختارَهُ مُضْنًى بهِ، ولهُ عَقْلُ

وعِشْ خاليًا فالحبُّ راحتُهُ عنًا

وأوّلُهُ سُقْمٌ، وآخِرُهُ قَتْلُ

ولكنْ لديَّ الموتُ فيه صبابةً

حَياةٌ لمَن أهوَى، عليّ بها الفَضْلُ

نصحتُكَ علمًا بالهوى والَّذي أرَى

مُخالفتي اخترْ لنفسكَ ما يحلو

فإنْ شِئتَ أنْ تحيا سَعيدًا، فَمُتْ بهِ

شَهيدًا، وإلاّ فالغرامُ لَهُ أهْلُ

فَمَنْ لم يَمُتْ في حُبّهِ لم يَعِـشْ بـــهِ

ودونَـاجتِنـاءَالنّحلِ مـا جنتِ النّحـــلُ

تمسّكْ بأذيالِ الهوى واخلعْ الحيـــا

وخـلِّ سبيلَ النَّاسكينَ وإنْ جلُّـــوا

وقلْ لقتيلِ الحـــبِّ وفَّـيتَ حقَّـــــهُ

وللمدَّعي هيهاتَ مالكحلُ الكحـــلُ

تعرّضَ قومٌ للغـــرامِ ، وأعرضـــوا

بجانبهمْ عنْ صحّتي فيهِ واعتلُّـــوا

رَضُوا بالأماني ، وَابتُلوا بحُظـوظِهِـم

وخاضـوا بحـارَالحبّ،دعـوَى،فمـا ابتلّوا

ما بينَ مُعْتَرَكِ الأحداقِ والمُهَجِ

ما بينَ مُعْتَرَكِ الأحداقِ والمُـهَجِ

أنـــا الـقَـتـيـلُ بـلا إثْـــمٍ ولا حَـــرَجِ

ودَّعْتُ قبلَ الهَوى رُوحي، لما نَظَرَتْ

عيـنـاي مـنْ حسـنِ ذاكَ المـنـظـرِ البهجِ

لِلّهِ أجفانُ عينٍ، فيكَ، ساهِـــرَةٍ

شَـوْقـاً إلـيـكَ، وقَـلْـبٌ، بـالـغَـرامِ، شَـجِ

وأضْلُعٌ نَحِلَتْ كادتْ تُقَوِّمُـــــــها

مِـنَ الـجَـوى، كبِـدي الـحـرّى، مِـنَ الـعَـوَجِ

وأدمعٌ هملتْ لولا التَّنفـــــسُ منْ

نـارِ الـهَـوى، لـمْ أكَـدِ أنـجـو مـنَ الـلُّـجَـجِ

وحبَّذا فيكَ أسقامُ خَفيـــــتُ بها

عنّي تَقومُ بها، عِنْدَ الهَوى حُجَجي

أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مكتئبًا

ولَمْ أقُلْ جَزَعاً:يا أزْمَةُ انْفَرِجي

أهفو إلى كلِّ قلبٍ بالغـــرامِ لهُ

شغلٌ وكلٌّ لسانٍ بالهوى لهجِ

وكُلِّ سَمْعٍ عنِ اللاحي، بهِ صَمَمٌ؛

وكلٌّ جفنٍ إلى الإغفاءِ لمْ يعجِ

لا كانَ وجدٌ بهِ الآماقُ جامدةٌ

ولا غَرامٌ بهِ الأشْواقُ لمْ تَهِجِ

عذِّبْ بما شئتَ غيرَ البعدِ عنكَ

تجد أوفى مُحِبٍ، بما يُرْضيكَ مُبْتَهِجِ

وخذْ بقيَّةَ ما أبقيتَ مِنْ رمقٍ

لا خيرَ في الحبِّ إنْ أبقى على المهجِ

منْ لي باتلافِ روحي في هوى رشأ

حلوِ الشَّمائلِ بالأرواحِ ممتزجِ

منْ ماتَ فيهِ غراماً عاشَ مرتقيًا

ما بينَ أهلِ الهوى في أرفعِ الدَّرجِ

محجَّبٌ لوْ سرى في مثلِ طرَّتهِ

أغنتهُ غرَّتهُ الغرَّا عنِ السُّرجِ

وإنْ ضَلِلْتُ بليلٍ، من ذوائبِهِ، أهدى

لِعيني الهدى، صُبْحٌ منَ البَلَجِ

وإنْ تنفَّسَ قالَ المسكُ معترفًا

لعار في طيبهِ منْ نشرهِ أرجى

أعوامُ إقبالهِ كاليومِ في قصرٍ

ويومُ إعراضهِ في الطّولِ كالحججِ

فإنْ نأى سائراً يا مهجتي ارتحلي

وإنْ دنا زائرًا يا مقلتي ابتهجي

قُلْ للذي لامني فيهِ، وعنّفَني: دعني

وشـأنـي وعـدْ عـنْ نـصـحكَ السَّـمـجِ

فاللّوْمُ لُؤمٌ، ولم يُمدَحْ بهِ أحـــدٌ؛

وهـل رأيـتَ مُـحِـبّـاً بـالـغـرَامِ هُجي

يا ساكِنَ القَلبِ لا تَنظُرْ إلى سكَني

وارْبَـحْ فـؤادَكَ ؛واحـذَرْ فتنةَ الـدّعـجِ

يا صاحبي، وأنا البَرّ الرّؤوفُ، وقد

بـذلـتُ نـصـحـي بـذاكَ الـحـيِّ لا تـعـجِ

فيهِ خلعتُ عذاري واطَّرحـتُ بهِ

قَـبـولَ نُـسـكـيَ، والـمَـقـبـولَ مـن حِججي

وابيضّ وَجهُ غَرامي في مَحَـبّتِهِ،

واسـودَّ وجـهُ مـلامـي فـيـهِ بـالـحـجِ

تَبارَكَ اللّهُ!ما أحلَى شَمَـائِلَهُ،

فـكـمْ أمـاتـتْ وأحـيـتْ فـيـهِ مـنْ مـهـجِ

يهوى لذكرِ اسمهِ منْ لجَّ في عذلي

سمعي وإنْ كانَ عذلي فيهِ لمْ يلجِ

وأرْحَمُ البرقَ في مَسراهُ، مُنتَسِبًا

لِثَغْرِهِ، وهَوَ مُستحْيٍ من الفَلَجِ

تراهُ إنْ غابَ عنِّي كلُّ جارحةٍ

في كلّ مَعنىً لطيفٍ، رائقٍ، بهِجِ

في نغمةِ العودِ والنَّايِ الرَّخيمِ إذا

تألَّقا بينَ ألحانٍ منَ الهزجِ

وفي مَسارِحِ غِزلانِ الخَمائِلِ، في

بردِ الأصائلِ والإصباحِ في البلجِ

وفي مَساقِطِ أنداءِ الغَمامِ، على

بِساطِ نَوْرٍ، من الأزهارِ مُنْتَسِجِ

وفي مَساحِبِ أذيالِ النّسيمِ، إذا

أهْدى إليّ، سُحيرًا، أطيبَ الأرَجِ

وفي الْتِثامَيَ ثَغْرَ الكاسِ، مُرْتَشِفًا

رِيقَ المُدامَةِ ، في مُستَنْزَهٍ فَرِجِ

لم أدرِ ما غُربَةُ الأوطانِ، وهو معي،

وخاطِري، أينَ كَنّا، غَيرُ مُنْزَعِجِ

فالدَّارُ داري وحبِّيَ حاضرٌ ومتى

بدا فمنعرجُ الجرعاءِ منعرجي

ليهنَ ركبٌ سروا ليلاً وأنتَ بهمْ

بسيرهمْ في صباحٍ منكَ منبلجِ

فليَصنعِ الرّكبُ ما شاؤوا بأنْفُسِهم؛

هُمْ أهلُ بدرٍ، فلا يَخشونَ من حَرجِ

يَحقّ عِصياني اللاحي عليكَ، وما

بأضْلُعي، طاعةٌ للوَجْدِ، مِن وَهَجِ

أنظرْ إلى كبدٍ ذابتْ عليكَ جوىً

ومقلةٍ مِنْ نجيعِ الدَّمعِ في لججِ

وارحمْ تعثرَ آمـالي ومرتجـــعي

إلـــى خِـــداعِ تَـمـنّـي الـوَعْـدِ بـالـفَـرَجِ

واعطِفْ على ذُلّ أطماعي بهَلْ وعسَى،

وامـنـنْ عـلـيَّ بـشـرحِ الـصَّـدرِ مـنْ حـرجِ

أهلاً بما لمْ أكنْ أهلاً لموقـــعهِ

قـولِ الـمـبـشِّـرِ بـعـدَ الـيـأسِ بـالـفـرجِ

لكَ البشارةُ فاخلعْ ما عليكَ فـقدْ

ذكـــرتَ ثـمَّ عـلـى مـا فـيـكَ مـنْ عـوجِ

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً...

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الحَبِيبِ مُدَامَةً

سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ

لَهَا البَدْرُ كَأْسٌ وَهْيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا

هِلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

وَلَوْلاَ شَذَاهَا مَا اهْتَدَيْتُ لِحَانِهَا

وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَاتَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ

وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا الدَّهْرُ غَيْرَ حُشَاشَةٍ

كَأَنَّ خَفَاهَا فِي صُدُورِ النُّهَى كَتْمُ

فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي الحَيِّ أَصْبَحَ أَهْلُهُ

نَشَاوَى وَلاَ عَارٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ إِثْمُ

وَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ الدِّنَانِ تَصَاعَدَتْ

وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الحَقِيْقَةِ إلاّ اسْمُ

وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْماً عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ

أَقَامَتْ بِهِ الأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الهَمُّ

وَلَوْ نَظَرَ النُّدْمَانُ خَتْمَ إِنَائِهَا

لأَسْكَرَهُمْ مِنْ دُوْنِهَا ذَلِكَ الخَتْمُ

وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيّتٍ

لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الجِسْمُ

وَلَوْ طَرَحُوا فِي فَيءِ حَائِطِ كَرْمِهَا

عَلِيلاً وَقَدْ أَشْفَى لَفَارَقَهُ السُّقْمُ

وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ حَانِهَا مُقْعَدًا مَشَى

وَيَنْطِقُ مِنْ ذِكْرَى مَذَاقَتِهَا البُكْمُ

وَلَوْ عَبِقَتْ فِي الشَرْقِ أَنْفَاسُ طِيبِهَا

وَفِي الغَرْبِ مَزْكُوْمٌ لَعَادَ لَهُ الشَمُّ

وَلَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفُّ لاَمِسٍ

لَمَا ضَلَّ فِي لَيْلٍ وَفِي يَدِهِ النَّجْمُ

وَلَوْ جُلِيَتْ سِرّاً عَلَى أَكْمَهٍ غَدًا

بَصِيراً وَمِنْ رَاوُوقِهَا تَسْمَعُ الصُّمُّ

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمَّمُوا تُرْبَ أَرْضِهَا

وَفِي الرَّكْبِ مَلْسُوعٌ لَمَا ضَرَّهُ السُّمُّ

وَلَوْ رَسَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ اسْمِهَا عَلَى

جَبِينِ مُصَابٍ جُنَّ أَبْرَأَهُ الرَّسْمُ

وَفَوْقَ لِوَاءِ الجَيْشِ لَوْ رُقِمَ اسْمُهَا

لأَسْكَرَ مَنْ تَحْتَ اللِّوَا ذَلِكَ الرَّقْمُ

تُهَذِّبُ أَخْلاَقَ النَّدَامَى فَيَهْتَدِي

بِهَا لِطَرِيقِ العَزْمِ مَنْ لاَ لَهُ عَزْمُ

وَيَكْرُمُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الجُودَ كُفُّهُ

وَيَحْلُمُ عِنْدَ الغَيْظِ مَنْ لاَ لَهُ حِلْمُ

وَلَوْ نَالَ فَدْمُ القَـوْمِ لَثْمَ فـــدَامِهَا

لأَكْسَـبَـهُ مَـعْـنـى شَـمَـائِـلِـهَـا اللَـثْـمُ

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْـــفِهَـا

خَـبِـيْـرٌ أَجَـلْ عِـنْـدِي بِـأَوْصَـافِـهَـا عِـلْـمُ

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ وَلُطـــــفٌ وَلاَ هَـوًا

وَنُـــورٌ وَلاَ نَـــارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِـسْـــمُ

تَقَدّمَ كُـلُّ الكَـائِـــــنَاتِ حَدِيْثُهَـا

قَـدِيـمًـا وَلاَ شَـكْـلٌ هُـنَـاكَ وَلاَ رَسْـــمُ

وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ ثَـمّ لِحـــكْمَةٍ

بِـهَـا احْـتَـجَـبَـتْ عَـنْ كُـلِّ مَـنْ لاَ لَـهُ فَـهْـمُ

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَا اتّـ

تِـحَـــادا وَلاَ جِـــرْمٌ تَـخَـلّـلَـهُ جِـرْمُ

فَخَمْرٌ وَلاَ كَـــرْمٌ وآدَمُ لِـــي أَبٌ

وَكَـــرْمٌ وَلاَ خَـمْـرٌ وَلِـــي أُمُّـهَـا أُمُّ

وَلُطْفُ الأَوَانِـي فِـي الحَقِـيقَة تَابِعٌ

لِـلُطْفِ الـمَـعَـانِـي وَالـمَـعَـانِـي بِـهَـا تَنْمُـو

وَقَـدْ وَقَعَ التّـــــفْرِيقُ وَالكُلُّ وَاحِدٌ

فَـأَرْوَاحُـنَـا خَـمْـرٌ وَأَشْـبَـاحُـنَـا كَـــرْمُ

وَلاَ قَبْلَـهَا قَبْلٌ وَلاَ بَـــــعْدَ بَعْدِهَا

وَقَـبْـلِـيّـةُ الأَبَـعَـادِ فَـهْـــيَ لَـهَـا حَتْـمُ

وَعَصْرُ المَدَى مِنْ قَبْلِهِ كَانَ عَصْرُهَا

وَعَـهْـدُ أَبِـيـنَـا بَـعْـدَهَـا وَلَـهَـــا اليُتْـمُ

مَحَاسِنُ تَهْدِي المَادِحِينَ لِوَصْفِهَا

فَيَحْسُـنُ فِيهَا مِنْهُمُ النّثْرُ وَالنّـظْـمُ

وَيَطْرَبُ مَنْ لَمْ يَدْرِهَا عِنْدَ ذِكْرِهَا

كَـمُـشْـتَـاقِ نُـعْـمٍ كُـلّـمَـا ذُكِـــرَتْ نُـعْـمُ

وَقَالُوا شَرِبْتُ الإِثْمَ كَـــــلاّ وَإِنّمَا

شَـرِبْـتُ الـتِـي فِـي تَـرْكِـهَـا عِـنْـدِيَ الإِثْـمُ

هَنِيئاً لاهْلِ الدَّيْرِ كَمْ سَكِــرُوا بِهَـا

وَمَــا شَـرِبُـوا مِـنْـهَـا وَلَـكِـنَّـهُــمْ هَـمُّــوا

وَعِنْدِي مِنْهَا نَشْوَةٌ قَبْلَ نَشْـــأَتِي

مَـعِـي أَبَــداً تَـبْـقَـى وَإِنْ بَـلِـيَ الـعَـظْــمُ

عَلَيْكَ بِهَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزْجَهَا

فَـعَـدْلُـكَ عَـنْ ظَـلْـمِ الـحَـبِـيْـبِ هُــوَ الـظُّـلْـمُ

فَدُونَكَهَا فِي الحَانِ وَاسْتَجِــلْهَا بِـهِ

عَـلَـى نَـغَـمِ الأَلْــحَــانِ فَـهْـيَ بِـهَــا غُـنْــمُ

فَمَا سَكَنَتْ وَالْهَمُّ يَوْمًا بِمَوْضِـــعٍ

كَـذلِـكَ لَـمْ يَـسْـكُـنْ مَـعَ الـنَّـغَــمِ الـغَــمُّ

وَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا وَلَوْ عُمْرَ ســـاعَةٍ

تَـرَى الـدَّهْـرَ عَـبْـدًا طَـائِـعًـا وَلَـكَ الـحُـكْـمُ

فَلاَ عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ عَاشَ صَاحِيًا

وَمَـنْ لَـمْ يَـمُـتْ سُـكْـرا بِـهَـا فَـاتَـهُ الـحَـزْمُ

عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ

وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلاَ سَهْمُ

قلبي يحدثني...

قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

رُوحِي فِدَاكَ عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَعْرِفِ

لَمْ أَقْضِ حَقّ هَوَاكَ إِنْ كُنْتُ الّذِي

لَمْ أَقْضِ فيهِ أَسًى وَمِثْلِيَ مَنْ يَفِي

مَا لِي سِوَى رُوحِي وَبَاذِلُ نَفْسِهِ

فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ

فَلَئِنْ رَضِيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي

يَا خَيْبَةَ المَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

يَا مَانِعِي طِيبَ المَنَامِ وَمَانِحِي

ثَوْبَ الْسّقَامِ بِهِ وَوَجْدِي المُتْلِفِ

فَالوَجْدُ بَاقٍ وَالوِصَالُ مُمَاطِلِي

وَالصَّبْرُ فَانٍ وَاللِّقَاءُ مُسَوِّفِي

عَطْفًا عَلَى رَمَقِي وَمَا أَبْقَيْتَ لِي

مِنْ جِسْمِيَ المُضْنَى وَقَلْبِي المُدْنَفِ

لَمْ أَخْلُ مِنْ حَسَدٍ عَلَيْكَ فَلاَ تُضِعْ

سَهَرِي بِتَشْنِيعِ الخَيَالِ المُرْجِفِ

وَاسْأَلْ نُجُومَ الليلِ هَلْ زَارَ الكَرَى

جَفْنِي وَكَيْفَ يَزُورُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ

لاَ غَرْوَ إِنْ شَحَّتْ بِغُمْضِ جُفُونِهَا

عَيْنِي وَسَحَّتْ بِالدُّمُوعِ الذُّرَّفِ

وَبِمَا جَرَى فِي مَوْقِفِ التَّوْدِيعِ مِنْ

أَلَمِ النَّوَى شَاهَدْتُ هَوْلَ المَوْقِفِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ وَصْلٌ لَدَيْكَ فَعِدْ بِهِ

أَمَلِي وَمَاطِلْ إِنْ وَعَدْتَ وَلاَ تَفِي

فَالمَطْلُ مِنْكَ لَـدَيّ إِنْ عـزّ الوَفَا

يَـحْـلُـو كَـــوَصْـلٍ مِـنْ حَـبِـيـبٍ مُسْـعِـفِ

أَهْفُو لأَنْفَـاسِ النّسِيمِ تَعِـــلّةً

وَلِـوجْـــهِ مَـــنْ نَـقَـلَـتْ شَـذَاهُ تَشَـوُّفِـي

فَلَعَلّ نَارَ جَوَانِـــحِي بِهُـبُوبِهـا

أَنْ تَـنْـطَـفِـي وَأَوَدُّ أَنْ لاَ تَنْـطَفِي

يَـا أَهْلَ وُدّيَ أَنْتُمُ أَمـــلِي وَمَنْ

نَـــادَاكُـمُ يَـــا أَهْـــلَ وُدّي قَـدْ كُفِي

عُودُوا لِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِـــنْ الوَفَا

كَـــرَمـــًا فـإِنّـيَ ذَلِـكَ الـخِـلُّ الـوَفِـى

وَحَيَـاتكُمْ وَحَيَاتِكُمْ قَسَـماً وَفِي

عُـمْـرِي بِـغَـيْـرِ حَيَـاتِـكُـمْ لَـمْ أَحـلِـفِ

لَـوْ أَنّ رُوحِي فِي يَدِي وَوَهَـبْتُهَا

لِـمُـبَـشّـرِي بِـقُـدُومِـكُـمْ لَـمْ أُنْـصِـفِ

لاَ تَحْسَبُونِي فِي الهَوَى مُتَصَنِّعًا

كَـلَـفِـي بِـكُـمْ خُـلُـقٌ بِـغَـيْـرِ تَـكَـلُّـفِ

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمُ فَأَخْفَانِي أَسىً

حَـتّـى لَـعَـمْـرِي كِـدْتُ عَـنِّـي أَخْـتَـفِـي

وَكَتَمْتُهُ عَنّي فَلَـــوْ أَبْـدَيْتُهُ

لَـوَجَـدْتُـهُ أَخْـفَـى مِـنَ الـلُّـطْـفِ الـخَـفِـي

وَلَقَدْ أَقُولُ لِمَنْ تَحَرّشَ بِالْهَوَى

عَـرّضْـتَ نَـفْـسَـكَ لِـلْـبَـلاَ فَـاسْـتَـهْـدِفِ

أَنْـتَ الـقَتِيلُ بِـأَيِّ مَنْ أَحْـبَـبْتَهُ

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

قُـلْ لِلْعَذُولِ أَطَلْتَ لَوْمِي طَامـــعاً

أَنّ الـمَـــلاَمَ عَـنِ الـهَـوَى مُـسْـتَـوْقِـفِـي

دَعْ عَنْكَ تَعْنِيفِي وَذُقْ طَعْمَ الْهَـوَى

فَـــإِذَا عَـشِـقْـتَ فَـبَـعْـدَ ذلِـكَ عَـنِّـفِ

بَرِحَ الْخَفَاءُ بِحُبّ مَنْ لَوْ فِي الدُّجَى

سَـفَـرَ الـلّـثَـامَ لَقُـلْـتُ يَـا بَـدْرُ اخْـتَـفِ

وَإِنِ اكْتَفَى غَيْرِي بِطَيْـفِ خَـيَالِهِ

فَـأَنَـا الّـذِي بِـوِصَـالِـهِ لاَ أَكْـتَـفِـي

وَقْفًا عَلَيْهِ مَحَبّتِي وَلِـمِـحْـنَتِي

بِـأَقَـلّ مِـنْ تَـلَـفِـي بِـهِ لاَ أَشْـتَـفِـي

وَهَـوَاهُ وَهْوَ أَلِيّتِي وَكَـفَى بِهِ

قَسَـمًـا أَكَـادُ أُجِـلُّـهُ كَالْمُصْحَفِ

لَوْ قَالَ تِيهًا قِفْ عَلَى جَـمْرِ الغَضَا

لَـوَقَـفْـتُ مُـمْـتَـثِـلاً وَلَـمْ أَتَـوَقّـفِ

أَوْ كَانَ مَنْ يَرْضَى بِخَـدّي مَوْطِئًا

لَـوَضَـعْـتُـهُ أَرْضًـا وَلَـمْ أَسْـتَـنْـكِـفِ

لاَ تُنْكِرُوا شَغَفِي بِمَا يَرْضَـى وَإِنْ

هُـوَ بِـالـوِصَـالِ عَـلَـيّ لَـمْ يَـتَـعَـطّـفِ

غَلَبَ الهَوَى فَأَطَعْتُ أَمْرَ صَبَابَتِي

مِنْ حَيْثُ فِيهِ عَصَيْتُ نَهْيَ مُعَنِّفِي

مِنّي لَهُ ذُلُّ الخُضُوعِ وَمِنْهُ لِي

عِزُّ المَنُوعِ وَقُوَّةُ المُسْتَضْعِفِ

أَلِفَ الصُّدُودَ وَلِي فُؤادٌ لَمْ يَزَلْ

مُذْ كُنْتُ غَيْرَ وِدَادِهِ لَمْ يَأْلَفِ

يَامَا أُمَيْلَحَ كُلّ مَا يَرْضَى بِهِ

وَرُضَابُهُ يَاما أُحَيْلَاهُ بِفِي

لَوْ أَسْمَعُوا يَعْقُوبَ ذِكْرَ مَلاَحَةٍ

فِي وَجْهِهِ نَسِيَ الجَمَالَ اليُوسُفِي

أَوْ لَوْ رَآهُ عَائِدًا أَيُّوبُ فِي

سِنَةِ الكَرَى قِدَمًا مِنَ البَلْوَى شُفِي

كُلُّ البُدُورِ إِذَا تَجَلّى مُقْبِلاً

تَصْبُو إِلَيْهِ وَكُلُّ قَدٍّ أَهْيَفِ

إِنْ قُلْتُ عِنْدِي فِيكَ كُلُّ صَبَابَةٍ

قَالَ المَلاَحَةُ لِي وَكُلُّ الحُسْنِ فِي

كَمَلَتْ مَحَاسِنُهُ فَلَوْ أَهْدَى السَّنَا

لِلبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ لَمْ يُخْسَفِ

وَعَلَى تَفَنُّنِ وَاصِفِيهِ بِحُسْنِهِ

يَفْنَى الزَّمَانُ وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفِ

وَلَقَدْ صَرَفْتُ لِحُبِّهِ كُلِّي عَلَى

يَدِ حُسْنِهِ فَحَمِدْتُ حُسْنَ تَصَرُّفِي

فَالعَيْنُ تَهْوَى صُورَةَ الحُسْنِ الَّتِي

رُوحِي بِهَا تَصْبُو إِلَى مَعْنًى خَفِي

أَسْعِدْ أُخَيَّ وَغَنِّنِي بِحَدِيثِهِ

وَانْثُرْ عَلَى سَمْعِي حُلاَهُ وَشَنِّفِ

لأَرَى بِعَيْنِ السَّمْعِ شَاهِدَ حُسْنِهِ

مَعْنًى فَأَتْحِفْنِي بِذَاكَ وَشَرِّفِ

يَا أُخْتَ سَعْدٍ مِنْ حَبِيبِي جِئْتِنِي

بِـــرِسَـــالَـــةٍ أَدَّيْـتِـهَـا بِتَلَطُّـفِ

فَسَمِعْتُ مَا لَمْ تَسْمَعِي وَنَظَرْتُ مَا

لَـمْ تَـنْـظُـرِي وَعَـرَفْـتُ مَـا لَـمْ تَـعْـرِفِـي

إِنْ زَارَ يَوْمًا يَا حَشَايَ تَقَـــطَّعِي

كَـلَـفًـا بِـهِ أَوْ سَـارَ يَـا عَـيْـنُ اذْرِفِـي

مَا لِلنَّوَى ذَنْبٌ وَمَنْ أَهْوَى مَعِـي

إِنْ غَـابَ عَـنْ إِنْـسَـانِ عَـيْـنِـي فَـهْـوَ فِي

زدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّرا

زدني بفرطِ الحبِّ فيكَ تحـــيُّرا

وارحـــمْ حشـىً بلـظي هـــواكَ تسـعَّرا

وإذا سألتــكَ أنْ أراكَ حقـــيقةً

فـاســمَحْ، ولا تـجـعـلْ جـوابـي:لـن تَـرَى

يا قلبُ!أنتَ وعدتَني في حُبـــهّمْ

صـبـرًا فـحـاذرْ أنْ تـضـيـقَ وتضـجـرا

إنّ الغَرامَ هوَ الحَياة، فَمـــتْ بِه

صَـبّـاً، فـحـقّـكَ أن تَـمـوتَ، وتُـعـذَرَا

قُل لِلّذِينَ تقدّمُوا قَبْلي، ومَـــن

بَـعْـدي، ومَـن أضـحـى لأشـجـانـي يَـرَى؛

عني خذوا، وبيَ اقْتدوا، وليَ اسْمعوا،

وتـحـدَّثـوا بـصـبـابـتـي بـيـنَ الـورى

ولقدْ خلوتُ معَ الحبيبِ وبيـــننا

سِـرٌّ أرَقّ مِـنَ الـنّـسـيـمِ، إذا سـرَى

وأباحَ طرفي نظرةً أمَّلتـــــهـا

فـغـدوتُ مـعـروفـاً وكـنـتُ مـنـكَّـرا

فدهشتُ بينَ جمالهِ وجـــــلالهِ

وغـدا لـسـانُ الـحـالِ عـنـي مـخـبـرا

فأدِرْ لِحاظَكَ في مَحاسِن وَجْـهِهِ

تَـلْـقَـى جَـمـيـعَ الـحُـسْـنِ، فـيـهِ، مُـصَـوَّرا

لوْ أنّ كُلّ الحُسْنِ يكمُلُ صُـــورَةً

ورآهُ كـــانَ مـهـلَّـلاً ومـكـبَّـرًا

أُشاهدُ مَعنى حُسنِكُم، فَيَلَذّ لي

أُشاهدُ مَعنى حُسنِكُم، فَيـــلَذّ لي خضوعي لديكمْ في الهوى وتذللي
وأشتاقُ للمغنى الَّذي أنـــــتمْ بهِ ولـولاكُـمُ مـا شاقَني ذِكْـرُ مَنْـزِلِ
فللّهِ، كَم من لَيلَةٍ قد قَطَـــــعتُها بِلَـذّةِ عيشٍ، والـرّقيبُ بِمَعزلِ
ونقلي مدامي والحبيبُ منادمـــي وأقــداحُ أفْــراحِ المَحَبّةِ تَنجَلي
ونلتُ مُرادي، فوقَ ما كنتُ راجـيًا فـواطَـرَبـا، لـو تَـمّ هـذا ودامَ لي
لَحاني عَذولي، ليسَ يَعرِفُ ما الهوَى وأينَ الشجيّ المُستَهامُ مِن الخَلي
فدعني ومنْ أهوى فقدْ ماتَ حاسدي وغابَ رقيبي عندَ قربِ مواصلي

أرى البُعدَ لم يُخْطِرْ سواكم على بالي

أرى البُعدَ لم يُخْطِرْ سواكم على بالي

وإنْ قَـرّبَ الأخـطـارَ مـن جَسِـدي البالي

فيا حَبّذا الأسقامُ، في جَنْـــبِ طاعَتي

أوامِـــرَ أشـــواقـي، وعِـصْـيـانِ عُـذّالـي

ويا ما أَلَذّ الذّلّ في عِزّ وَصـــــــلِكُمْ

وإن عَـزّ، مـا أحـلـى تَقَطُّـعَ أوصـالـي

نأيتمْ فحالي بعدكمُ ظلَّ عاطـــــــلاً

ومـا هـوَ مِـمّـا سـاء، بـل سَـرّكُـم حـالـي

بَليـتُ بِهِ لَمّا بُلـــــيتُ صَـــــبابَةً

أبـلَّـتْ فـلـي مـنـهـا صـبـابـةُ إبـــلالِ

نصبتُ على عيني بتغميضِ جفنها

لــزَورَةِ زُورِ الـطّـيـفِ، حِـيـلـةَ مُـحـتـالِ

فما أسعَفَتْ بالغُمضِ، لكِن تعَسّفتْ

عـلـيَّ بـدمـعٍ دائــمِ الـصَّــوبِ هـطَّـالِ

فيا مهجتي ذوبي على فقدِ بهـجتي

لِـتَـرْحـالِ آمـالـي، ومَـقْــدَمِ أوْجـالـي

وضِنّي بدَمْعٍ، قد غَنيتُ بِفَيـــضِ

مـا جـرى مـنْ دمـي إذْ طلَّ مـا بينَ أطـلالِ

ومَن لي بأن يَرْضَى الحَبيبُ، وإن

عـلا الـنّـحـيـبُ، فـإبْـلالـي بَـلائـي وبَلْبـالـي

فما كَلَفـــــي في حُبّهِ كُــلفَةً لَهُ

وإنْ جَـلّ مـا أَلْـقَـى مـن الـقـيـلِ والـقـالِ

بقيـــتُ بهِ لمَّا فـــــنيتُ بحبِّهِ

بِـثَــرْوَةِ إيـثـاري، وكَـثْـرَةِ إقـلالـي

رعى اللّهُ مغنىً لمْ أزلْ في ربـــوعهِ

معنَّـي وقـلْ إنْ شـئتَ يـا نـاعـمَ البـالِ

وحَيـــاً مُحَيّا عـــاذِلِ ليَ لم يَـــزَلْ

يُـكَـرِّرُ مِـن ذِكْـرَى أحـاديـثِ ذي الـخـالِ

رَوَى سُنّةً عندي، فأرْوى من الصّدى

وأهـدى الهُدى، فاعجبْ وقد رام إضلالي

فأحببتُ لومَ اللـــؤمِ فيهِ لوْ أنَّنـــي

منـحـتُ الـمـنـى كـانـتْ عـلامـةَ عُـذَّالـي

جهلتُ بأنْ قلتُ اقترحْ يا معـــذِّبي

علـيَّ، فـأجْـلـى لـي، وقـال:اسـل سلسالي

وهَيهاتِ أن أسلو، وفـــي كُلّ شَعْرَةٍ

لـحـتـفـي غـــرامُ مـقـبـلُ أيَّ إقـبـالِ

وقـالَ ليَ الَّـلاحي مرارةُ قـــصدهِ

تـحَـلّـى بـهـا: دَعْ حُـبّـهُ، قُـلـتُ:أحـلـى لي

بذلتُ لهُ روحـــــي لراحـــــةِ قـربهِ

وغيـرُ عَـجيـبِ بَـذْلـيَ الـغـالِ فـي الـغـالـي

فجادَ، ولكن بالبـــــُعادِ، لِشِـــقْوَتي

فيـا خيـبـةَ الـمـسـعـى وضـيـعـةَ آمـالـي

وحانَ لهُ حيي على حـــــينِ غـــــرَّةٍ

ولـــمْ أدرِ أن الآلَ يـذهـبُ بـــالآلِ

تحكَّمَ في جسـمي النُّحـــــولُ فلوْ أتى

لـقـبـضـي رســـولٌ ضـلَّ فـي مـوضـعٍ خـالِ

فلوْ هُمّ باقي السّقمِ بي لاستَعانَ، في

تـلافـي بـمـا حـالـتْ لـهُ مـنْ ضـنـى حـالـي

ولم يَبْقَ مِنّي ما يُناجـــي تَوَهّـــمي

سِـــوى عِـــزّ ذلّ فـي مـهـانَـةِ إجْـــلالِ

ليلى العامرِيّـة

أوَميضُ بَـرْقٍ، بالأُبَيــرق، لاحــا

أمْ، فـي رُبَـى نـجـدٍ ، أرى مِصـبـاحَـا؟

أمْ تِلكَ ليلى العامــرِيّةُ أسْـفَرَتْ

لـيـلاً فـصـيّـرتِ الـمـسـاءَ صـبـاحـا

ياراكبَ الوَجْناءِ، وقّيتَ الــرّدى

إنْ جُـبـتَ حُـزْنًـا، أو طـوَيـتَ بِطاحا

وسَلَكتَ نَعمـانَ الأراكِ، فعُـجْ إلى

وادٍ، هُــنــاكَ، عَـهِـدْتُـهُ فـيَّـاحـا

فبأيمنِ العلمينِ منْ شــرقـيِّهِ

عَــرّجْ، وأمَّ أريــنَــهُ الـفَـوّاحـا

وإذا وَصَلـــتَ إلى ثَنِيّاتِ اللّـوَى

فـانـشـدْ فـــؤادًا بـالأبـيـطـحِ طـاحـا

واقرِ السَّلامَ أهـــيلهُ عني وقـلْ

غـــادرتـــهُ لـجـنـاتـكـمْ مـلـتـاحـا

يا ساكِنِي نَجدٍ ، أما مِن رَحـــمَةٍ

لأســـيـــرِ إلـــفٍ لا يـــريـــدُ ســـراحـا

هَلاّ بَعَثْتُمْ، لِلمَشُـــــوقِ، تحـــيّةً

فـي طـيّ صـافيَـةِ الـرّيـاحِ، رَواحـا

يحيا بها منْ كانَ يحسبُ هجركمْ

مَـزحًـا ويـعـتـقـدُ الـمـزاحَ مـزاحـا

يا عاذلَ المشتاقِ جهـــلا بالَّذي

يـلـقـى مـلـيًّـا لا بـلـغـتَ نـجـاحـا

أتعبتَ نفسكَ في نصيحةِ منْ يرى

أنْ لا يـــرى الإقـــبـــالَ والإفـلاحـا

أقصِرْ، عدِمتُكَ، واطّرحْ من أثخنتْ

أحشاءَهُ، النُّجُلُ العُيونُ، جِراحا

كنتَ الصَّديقُ قبيلَ نصحكَ مغرمًا

أرأيتَ صبّا يألفُ النُّصَّاحا

إنْ رمتَ إصلاحي فإنّي لمْ أردْ

لِفَسادِ قَلبي في الهَوَى، إصْلاحا

ماذا يريدُ العاذلونَ بعذلِ منْ

لَبِسَ الخَلاعَة، واستراحَ وراحا

يا أهلَ ودِّي هلْ لراحي وصلكمْ

طَمَعٌ، فَينعَمَ بالهُ استِرْواحا

مذ غبتمُ عنْ ناظري ليَ أنَّهُ

ملأتْ نواحيَ أرضِ مصرَ نواحا

وإذا ذَكَرْتُكُم أميلُ، كأنّني

مِن طِيبِ ذِكْرِكُمُ، سُقيتُ الرّاحا

وإذا دُعيتُ إلى تناســـي عَهدِكُمْ

ألـفـيـتُ أحـشـائـي بـــذاكَ شـحـاحـا

سقياً لأيَّامٍ مضتْ معْ جـــــيرةٍ

كـــانـــتْ لـيـالـيـنـا بـهـمْ أفـــراحـــا

حيثُ الحمى وطني وسكَّانُ الغضا

سَـكَـنـي، وَوِردي الـمـاءَ فـيـهِ مُـبـاحـا

وأُهَيلُهُ أربي، وظـــلُّ نخـــيلِهِ

طـربـي ورمـلـةُ واديـيـهِ مـراحـا

واهاً على ذاكَ الزَّمانِ وطـــيبهِ

أيَّـــامَ كـنـتُ مـنَ الُّـلـغـوبِ مـراحـا

قسماً بمكَّةَ والمقامِ ومـــنْ أتى

الْـبـيـتَ الـحـرامَ ملبِّـيـاً سـيَّـاحـا

ما رَتَحتْ ريحُ الصِّبا شيحَ الرُّبى

إلاّ وأهْـــدَتْ مـنـكُـمُ أرواحـــا

أبرقٌ بدا من جانب الغور لامعُ

أَبَرْقٌ، بدا منْ جانِبِ الغَوْرِ، لامــعُ

أمِ ارْتَفَعــتْ، عـنْ وجـهِ ليلي، البـراقِعُ

نعمْ أسفرتْ ليلاً، فصارَ بوجهـها

نــهــارًا، بــهِ نــورُ الـمـحـاسـنِ سـاطـعُ

ولمّا تجلّتْ للقلوبِ، تزاحــــمتْ

عـلـى حُسـنـهـا، لـلـعـاشـقـيـنَ، الـمـطـامـعُ

لِطلعتها تَعْنُو البدورُ، ووجْــــهُها

لــهُ تـسـجـدُ الأقــمــارُ، وهــيَ طـوالـعُ

تجمّعتِ الأهواءُ فيها، وحُســـنها

بــديــعٌ، لأنــــواعِ الـمـحـاسـنِ جـامـعُ

سكرتُ بخمرِ الحبِّ في حانِ حَيّها

وفي خمرهِ، للعاشقينَ، منافعُ

تواضَعْتُ ذلاً، وانخِفاضًا لِعزّها

فَشَرّفَ قَدْري، في هواها، التّواضعُ

فإنْ صرتُ مَخفوضَ الجنابِ، فحبُّها

لِقَدْرِ مَقامي، في المحبّةِ، رافِعُ

وإنْ قَسَمَتْ لي أنْ أعيشَ متيّمًا

فشوقي لها، بينَ المحبّينَ، شائعُ

يقولُ نساءُ الحيِّ: أينَ دِيارهُ؟

فقلتُ: دِيارُ العاشقينَ بلاقِعُ

فإنْ لمْ يكنْ لي في حِماهنّ مَوْضِعٌ

فلي في حِمى ليلى بليلي مواضِعُ

هوَى أُمِّ عمرٍو جَدّدَ العُمرَ في الهوَى

فها أنا فيهِ، بَعدَ أنْ شِبتُ iiيافِعُ

ولمّا تراضـــعْنا بِمَـــهْدِ وَلائِـــها

سَقَتْنا حُمَيّا الحُبِّ فيهِ مراضعُ

وألقى علينا القـــربُ منها مَحَبّةً

فهلْ أنتَ، يا عَصْرَ التّراضعِ، راجعُ

وما زِلتُ، مذْ نيـــطَتْ عليّ تَمائمي

أبايِعُ سُلطانَ الهَوَى، وأتابعُ

لقدْ عرَفَتني بالوَلا وعـــرَفتُها

ولي ولها، في النّشأتينِ، مَطالِعُ

وإنّي، مُذْ شاهَدْتُ في جَمـــالها

بِلَوْعَةِ أشْـــواقِ المَحَبّةِ وَالِعُ

وفي حضرةِ المحبوبِ سرّي وسرُّها

معًا، ومَعانيها علينا لوامِعُ

وكلُّ مَقامٍ، في هـــواها، سلَكتُهُ

وما قطَعَتني فيه، عنها، القَواطِعُ

بِوادي بَوادي الحُـبِّ أرْعـى جَمالَها

ألا فـي سبيلِ الـحـبِّ مـا أنـا صانعُ

صبرتُ على أهوالِـهِ صَبرَ شـــاكِرٍ

ومـا أنـا في شئٍ، سوَى البُعـدِ، جـازعُ

عزيزةَ مِصْرِ الحُـــسنِ! إنّا تـجارهُ

وليـسَ لنـا إلاّ الـنُّـفـوسَ بضائعُ

لأرضـكَ فوّزنا بهـا، فتـــصـدّقي

علينـا، فـقـدْ نَـمّـتْ علينا المـدامـعُ

عسى تَجعَلي التّعويضَ عنها قَبـولَها

لِـيَـرْبَـحَـهُ مِـنّـــا مَـبـيـعٌ وبـائِـعُ

خليليّ! إنّـي قدْ عَصـيَتُ عَـــواذِلي

مُـطيعٌ لأمْـــرِ العـامِـريّـةِ، سامـعُ

فقولا لهـا: إنّي مُقيـــمٌ على الهـــوَى

وإنّـــي، لِسُلـطـانِ المحـبّـةِ، طائـعُ

وقولا لها: يا قُرّةَ العـــــينِ! هـــــلْ إلى

لِـقـاكَ سبيلٌ، ليسَ فيهِ iiموانعُ؟

ولي عندها ذَنْبٌ بـــرؤيةِ غـــــيرها

فهـلْ لـي، إلـى ليلى المليحـةِ، شافعُ

سَلا: هلْ سَلا قلبي هَواها، وهـــلْ لهُ

سِواها، إذا اشـتدّتْ عليهِ الوقائعُ؟

فيا آل ليلى! ضيفكمْ ونزيلـــــكمْ

بحيّكمُ، يـا أكـــرمَ الـعُـرْبِ، ضـــارعُ

قِـرَاهُ جَمـــــــالٌ لاجِمـــــالٌ، وإنّـــهُ

بـرؤيـةِ ليلى مُنْـيَـةِ القـلـبِ، قـانـعُ

إذا ما بَدَتْ ليـــلى، فكلّي أعْـــيُنٌ

وإنْ هـيَ ناجتـنـي، فكـلّـي مَـسـامِـعُ

و مِسْكُ حديثي في هَواها،لأهـــــلِهِ

يَضـوعُ، وفـي سَمـعِ الخليّـيـنَ ضائعُ

تجافتْ جُنوبي، في الهــوى، عنْ مضا

جعي، ألا أنْ جفتني، في هَواها، المضاجعُ

وسِرْتُ بركبِ الحُســـنِ بينَ محاملِ

وهَــوْدَجُ ليلى، نورُهــا منــهُ iiساطعُ

ونــادَيْتُ لـــمّا أنْ تبـــدّى جَمالُها

لـعَـمْــرُكَ، يــا جَــمّــالُ، قلـبــيَ قـاطـعُ

فسيــروا على سَيـري، فإنّي ضعيفُكمْ

وراحِلَـتــي، بـيـنَ الــرّواحــلِ، ضــالِـعُ

ومِلْ بي إليـــها، يا دليـــلُ، فإنّنــي

ذليــلٌ لـهــا، فــي تِــيـهِ عِشـقــيَ واقِــعُ

لَعَلّيَ، مِنْ لــيلى، أفـــوزُ بنـــظرةٍ

لـهــا، فــي فـــؤادِ المُسْتهامِ، مــواقــعُ

وألتـــذُّ فيها بالحـــديثِ، ويَشتفي

غليــلُ عليــلٍ، فــي هــواهــا، يُــنــازعُ

فيا أيُّها النّفـــسُ، الّتي قدْ تحـجّبتْ

بـذاتـي، وفيـهـا بَدرُهـا لـي iiطالعُ

لئنْ كنتِ ليـلـى، إنّ قلبـي عامـرٌ

بحـبّـكِ، مجـنـونٌ بوَصْـلِـكِ، طامـعُ

رأى نسخةَ الحسنِ البـديعِ بـذاتِه

تَـلـوحُ، فـلا شـيءٌ سـواهـا يُطـالـعُ

فيا قلبُ شاهـدْ حُسنـها وجَمالها

ففيـهـا، لأسـرارِ الـجَـمـالِ، وَدائـعُ

تنقلْ إلـى حـقِّ اليقـينِ، تنزُّهًا

عـن النّقـلِ، والعقلِ، الـذي هـو قاطعُ

فإحياءُ أهلِ الحبِّ موتُ نفوسِـهمْ

وقـوتُ الـقـلـوبِ العـاشـقـيـنَ مـصـارعُ

وكمْ، بينَ حُذّاقِ الجدالِ، تَنـازُعٌ

ومـا بَـيـنَ عُـشّـاقِ الجَـمـالِ تـنـازعُ

وصاحِبْ بموسَى العَزْمِ خِضْرَ ولائها

ففيهِ، إلى ماءِ الحياةِ، منافعُ

فأنتَ بها قَبلَ الفِراق مُنَبّىءُ

بتأويلِ عِلمٍ، فيكَ منهُ بدائعُ

لقدْ بسطتْ في بحرِ جسمكَ

بَسطةً، أشارتْ إليها، بالوفاءِ، أصابعُ

فيا مُشتَهاها! أنتَ مقياسُ قُدْسِها

وأنتَ بها، في روضةِ الحسنِ، يانعُ

فقَرّي بهِ يا نَفْسُ عينًا، فإنّهُ

يحدّثني، والمُؤنِسونَ هواجعُ

فما أنتِ نفسٌ، بالعُلا، مُطمئنّةٌ

وسِرُّكِ، في أهلِ الشهادةِ، ذائعُ

لقدْ قُلْتَ في مَبدإٍ أَلَسْتُ بِرَبّكمْ

بَلى قدْ شَهِدْنا، والوَلا مُتتابعُ

فيا حبّذا تلكَ الشـــــهادةُ، إنّـــها

تُـــجـــادِلَ عَـــنِّـــي ســـائِـــلـــي، وتُـــدافـــعُ

وأنجـــــو بها يومَ الـوُرودِ، فـــإنّها

لـقـائِـلِـهـا حِـــرْزٌ، مـــنَ الـــنّـــارِ مـانـــعُ

هـيَ العُـرْوَةُ الوُثْقَـى بها فتَمـــسّكي

و حَسْـبـي بهـا أنّـــي إلـــى اللّهِ راجـــعُ

فيا رَبُّ! بالخِـلِّ الحبـــيبِ، بيّنا

رَســولِـكَ، وهـــوَ الســيّـدُ المتواضعُ

أنِلْنا معَ الأحبابِ رؤيـــتكَ،الّتي

إليـهـا تُقـلـوبُ الأولـيـــاءِ، تـســـارعُ

فبَابُكَ مَقصُودٌ، وفَضـــلُكَ زَائِـدٌ

وجُـــودُكَ، مَـوْجـودٌ، وعَـفـوُكَ وَاسِـــعُ

الفصل الرابع

السهروردي

تقدمة

من أشهر الأسماء التي تتقافز إلى سمع القارئ خلال قراءاته ومطالعاته لكتب الصوفية اسم السهروردي، ويتعرض القارئ للعديد من المعلومات عن شخصية/ شخصيات تحمل هذا الاسم، مما يُحدث لديه لبسٌ قد يؤدي إلى رفضه قراءة أي شيء عن هذه الشخصية، لكننا هنا آلينا على أنفسنا أن لا نترك نقطة قد نُدلي فيها بدلْوٍ يُفهم القارئ أي معلومات عن الصوفية، وتُزيل عنه اللبس.

فكثيرًا ما نسمع أن أحد كبار الصوفية اسمه السهروردي، فيحدث لدى الناس لبسٌ بين الصوفي القطب شهاب الدين يحيى السهروردي أبوالفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي والملقب بـ"شهاب الدين"، والذي يلقب بالشهروردي المقتول، وبين صوفيَّين آخرين هما: شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي، مؤلف كتاب «عوارف المعارف» في التصوف، وصاحب الطريقة السهروردية، أما الثالث

فكان اسمه أبو النجي، من هنا تجدر الإشارة إلى أن اسم السهروردي في الصوفية يُطلق على ثلاثة أشخاص مشهورين وليس على شخص واحد؛ فأولهم السهروردي المقتول وهو الذي نبدأ به حديثنا وهو الشخصية الأولى في هذا الفصل وهو "يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، السهروردي: فيلسوف، ولد في سهرورد وسافر إلى حلب، فنسب إلى انحلال العقيدة، وكان علمه أكثر من عقله (كما يقول ابن خلكان) فأفتى العلماء بإباحة دمه، فسجنه الملك الظاهر غازي، وخنقه في سجنه بقلعة حلب.

وقد قال فارس سعد في مقاله المنشور بجريدة العرب اللندنية في العدد رقم ٩٦٣٦ لسنة ٢٠١٤ إن سوء فهم عميق وكبير لاحق المتصوفين في طول التاريخ الإسلامي وعرضه لا سيما ما يخص الأقطاب منهم، كان هناك اتهام أهل الحرف والتفسير الظاهري وأهل السلطان الديني والفقهاء للمتصوفة الحكماء، اختصر الاتهام بأن التصوف امتزج بفلسفاتٍ واتجاهات عقدية خطيرة، مثل القول بالحلول والاتحاد ودعوى العلم اللدني، ووقوعُ بعضهم ببعض بدع العقيدة، والشطح وخلاف ذلك، وكان الاتهام الأوضح والأكبر لأهل التصوف أنهم يخرجون على مذهب أهل السنّة، وقليل منهم من نجا من هذا الاتهام.

ولم تنته هذه الحرب بين فقهاء الدين ورجاله وبين المتصوفة، بين أهل الشرع وأهل القلب، إلى اللحظة، حرب راح ضحيتها كبار أقطاب التصوف والعلم، كان يقف أهل السلطة والسلطان فيها إلى جانب الفقهاء وأهل الشرع خوفًا من تأليبهم الشارع على السلطان بحجة التعاطف مع المتصوفة الخارجين عن الشرع، هكذا في كل مرة يأتي من يحاول منح حرية للعقل يبرز فقهاء السلاطين وعبّاد الحرف وقاصري العلم والعقل، فتندلع معركة بين النور والظلمة تنتهي بإطفاء أصحاب الشعلة لكن أنّى لهؤلاء أن يطفئوا نور الله...

ويتابع كلامه ليقول في نفس المقالة إن السهروردي شهاب الدين قد استطاع الجمع بين العلم والذوق بين العقل والقلب، فكأنما جمع أفلاطون مع هرمس، فيقول السهروردي:

قل لأصحابٍ رأوني ميّتاً ... فبكوني إذ رأوني حزَنا

لا تظنّوني بأني ميّتٌ ... ليسَ ذا الميّتُ والله أنا

أنا عصفورٌ وهذا قفصي ... طرتُ منهُ فتخلّى رَهنًا

ومن أبدع ما للسهروردي من أفكار عرفانية قوله: "عندما أزال ترتيب العقل عنه، رفع عنه الكون والمكان، ناظرًا لمقام الخلة، ظهر له العيان،

فطوي له المكان" من رسالة "لغة موران"، وقوله عن الوجد: "اعلم أن الواجد يشعر بسابقة فقد، فمن لم يفقد لم يجد". وكتب: "المحبة من لوازم المعرفة، وإن كانت المعرفة قليلة، وكل معرفة توجب محبة وإن كانت قليلة، فإذا كملت النفس بها فذلك نور على نور، والمحبوب من يكون لنفسه فطنة وحدس قوي ينال دون تعب عظيم ما لا ينال غيره".

وقال الإمام الصفدي المشهور في كتابه الوافي بالوفيات "السهروردى المقتول الشافعي محمد بن حبش بن أميرك شهاب الدين أبو الفتوح السهروردى الحكيم المقتول بحلب"، وذكر الصفدي في كتابه هذا أن صلاح الدين رضي الله عنه أمر ابنه الظاهر غازي أن يقتله في حلب، ومثل ذلك ذكره الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء وقال فيه هو "الفيلسوف السيماوي المنطقي، شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، من كان يتوقد ذكاءً، إلا أنه قليل الدين.

وقد قال ابن خلكان: وكان يُتهم بالانحلال والتعطيل، ويعتقد مذهب الأوائل، واشتهر ذلك عنه، وأفتى علماء حلب بقتله، وذكر مثل ذلك قاضي القضاة ابن خلكان في كتابه – وفيات الأعيان.

وأما عن شيخ الصوفية المشهور عالم أهل السنة الصوفي فهو شخص

آخر واسمه الشيخ شهاب الدين السهروردى قدوة أهل التوحيد شيخ العارفين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد بن التيمى البكرى الصوفى رضى الله عنه ولد سنة تسع وثلاثين وخمس مئة بسهرورد وقدم بغداد، وصحب عمه أبا النجيب وتفقه وتفنن وصنف التصانيف وانتهت إليه تربية المريدين وتسليك العباد ومشيخة العراق ولم يخلف بعده مثله "العبر في خبر من غبر للإمام الذهبي.

وقال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء" السهروردي الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوحد الصوفية شهاب الدين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي الصوفي ثم البغدادي، صحب عمه الشيخ أبا النجيب ولازمه وأخذ عنه الفقه والوعظ والتصوف، وصحب قليلاً الشيخ عبد القادر.

وقال ابن النجار: وكان شهاب الدين شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله، والتسليك، قرأت عليه كثيرا، وصحبته مدة، وكان صدوقًا نبيلاً، صنَّف في التصوف كتابًا شرح فيه أحوال القوم، وحدث به مرارًا - يعني "عوارف المعارف".

وقال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته، صاحب مجاهدة وإيثار وطريق حميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنه، وقد قال الذهبي : ألبسني خرق التصوف شيخنا المحدث الزاهد ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصاري بالقاهرة، وقال: ألبسنيها الشيخ شهاب الدين السهروردي بمكة عن عمه أبي النجيب".

وقال الإمام ابن الملقن في طبقات الأولياء شهاب الدين السهروردى عمر بن محمد بن عمويه السهروردى أبو عبد الله. أحد السادات "، وقال الإمام العلامة ابن كثير في البداية والنهاية "الشيخ شهاب الدين السهروردي صاحب عوارف المعارف

عمر بن محمد بن عبد الله شهاب الدين أبو حفص السهروردي شيخ الصوفية ببغداد كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة، وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيرا".

وفي طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد الشيخ شهاب الدين أبو حفص القرشي التيمي البكري

السهروردي شيخ شيوخ العارفين بالعراق في زمانه وصاحب عوارف المعارف، وفي وفيات الأعيان للإمام ابن خلكان قال شهاب الدين السهروردي أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله، كان فقيهًا شافعي المذهب شيخًا صالحًا ورعًا كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله وعقد مجلس الوعظ سنين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، وعلى وعظه قبول كثير وله نفس مبارك وله تواليف حسنة منها كتاب "عوارف المعارف" وهو أشهرها، وتوفي في مستهل المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ببغداد، رحمه الله تعالى".

وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي الشيخ شهاب الدين السهروردي قدوة أهل التوحيد وشيخ العارفين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله"

وأما الشخص الثالث فهو أيضا أحد مشايخ الصوفية الكبار وهو "الشيخ الإمام العالم المفتي المتفنن الزاهد العابد القدوة شيخ المشايخ، أبو النجيب عبدالقاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي الشافعي الصوفي الواعظ، شيخ بغداد، أثنى عليه السمعاني كثيرًا،

وقال: حضرت عنده مرات، وانتفعت بكلامه، وكتبت عنه، وقال عمر بن علي القرشي: هو من أئمة الشافعية، وعلم من أعلام الصوفية... شرع في دعاء الخلق إلى الله، فأقبل الناس عليه، وصار له قبول عظيم، وأفلح بسببه أمة صاروا سرجا"

وأبو النجيب هذا هو عم أبي حفص السابق قدس الله أرواحهما، وترجمته موجودة في وفيات الأعيان والشذرات والطبقات ، وهذا ما لم نتناول سيرته هنا في هذا الكتاب، إذ سيقتص الأمر هنا على الشخصيتين السابقتين.

فغالبًا ما يحصل لبس عند الناس من اشتراك اسم العائلة – السهروردي – واللقب – شهاب الدين، فالمقتول هو شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي لكن اسمه – يحيى بن حبش، والعارف القدوة شيخ الصوفية المشهور هو شهاب الدين أبو حفص، واسمه عمر بن محمد.

ترجمة السهروردي المقتول

هو أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم، والمعروف بشهاب الدين السهروردي، ٥٤٩-٥٨٧ هـ / ١١٥٤ - ١١٩١ م ولقبه السهروردي نسبة لبلدة سهرورد وهي بلدة قريبة من زنجان، في أذربيجان، في شمال غرب بلاد فارس، طلب العلم باكرًا في أصفهان، ثم في ديار بكر، ثم بلاد الشام، واستقر في حلب، وهي في إمرة الملك الظاهر، ابن صلاح الدين، قرأ شهاب الدين السهروردي الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة المراغة (آذربيجان).

وانتهى السفر بالسهروردى إلى الشام، حيث أقام في مدينة حلب ابتداء من سنة ٥٧٩ هـ، وكانت آنذاك تحت إمرة الملك الظاهر ابن صلاح الدين. ونزل في المدرسة «الحلوية»، فباحث الفقهاء وناظر العلماء، وأدهشهم ببيانه وحجته، وظل في المدينة حتى وافته المنية، وفيها كتب

أهم أعماله، التي كادت تُفقَد لولا إخلاص تلامذته له، الذين تتبعوا كل ما ينتجه حتى صنفوا منه نحو ٤٩ كتابًا ما بين منثور ومنظوم، وفي حلب كتب أهم أعماله" حكمة الإشراق"، وكتاب "اللمحات"، وكتاب "التلويحات"، وكتاب "المقاومات"، وكتاب "المطارحات"، إلى عشرات الكتب الثانوية والرسائل، وقد أصدر صلاح الدين الأيوبي أمرًا بقتله وهو ابن ثمانية وثلاثين عامًا، بعد أن رماه خصومه من علماء حلب وأعدائه من العامة بتهمة الكفر والخروج عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد حاول كثيرون منهم ابن صلاح الدين نفسه إنقاذه من القتل؛ إلا أن خصومه من علماء حلب أصروا على تنفيذ أمر قتله، نظرًا لخوضه في فلسفة الدين كغيره من الصُّوفة المجتهدين في أزمنة لم تكن مستعدة بعد لفهم كُنه كلامهم ومدلول ألفاظهم التي تختلف عما هو مألوف لدى العلماء في عصورهم.

ويقول سبط ابن الجوزي: "إن صلاح الدين كان مبغضًا لكتب الفلسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة، فهل تكفي البغضاء سببًا يُقتل به الناس"، وقد قال الله تعالى: "مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا" (سورة المائدة، الآية ٣٢).

وقد كان السهروردى ضحية عصره، فالقرن السادس الهجري لم

يكن زمن تسامح، على النقيض من القرون التي خلت، بل كان عصر صراعات سياسية ومذهبية، سيطر فيه الأشاعرة، وتراخى الفكر المعتزلى، وساد فيه أهل الرواية على أهل الدراية، وأتباع المنقول على أصحاب المعقول، وحمل الفقهاء بشدة على الفلاسفة، وجاءت الأوضاع السياسية لتغذى هذا التعصب، فالعالم الإسلامي كان موزّعًا بين الخلافة العباسية السنية، والخلافة الفاطمية الشيعية، وكان البويهيون الشيعة قد هيمنوا على مقاليد الأمور في إيران وكردستان والعراق (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ)، وأبقوا على الخلافة العباسية في الظاهر بينما تحكموا في مقاليدها في الباطن، فلما اشتد ساعد السلاجقة الأتراك المعتنقين للمذهب السني، سارع العباسيون إلى الاستعانة بهم في مواجهة البويهيين. وكان من الطبيعي أن يبحث السلاجقة عن أيديولوجية لمواجهة تلك التي كانت تشكل إطارًا لأعدائهم، بذلك برزت أهمية الخط الأشعري.

ما التهم التي كانت سببًا رئيسًا في قتل السهروردي؟ لا يخفى على الجميع أن التهم التي اتُّهم بها السهروردي كانت منصبة على تبنيه لأفكار القرامطة؛ وهي جماعة إسماعيلية معادية لدولة صلاح الدين الأيوبي، وفي ظل هذه الأجواء جاء السهروردى إلى حلب ليجد أمامه

الزنكيين، أتباع السلاجقة، يتحكمون في الأمر، بينما ضغط آخر سلاطينهم نور الدين زنكى على واليه في مصر صلاح الدين الأيوبي لإلغاء الخلافة الفاطمية، واتخاذ المذهب الشافعي بتوجهه الأشعري مذهبًا رسميًّا للدولة.

لهذا نظر الفقهاء والحكام بعين الريبة إلى أفكار السهروردى وأحالوها إلى الدعاوى الباطنية. وما زاد الطين بلة أن السهروردى كان مأخوذًا بفورة الشباب، معتدًّا بذاته، واثقًا من علمه، شجاعًا في طرح أفكاره إلى حد التهور، فتحدى الفقهاء في سائر المذاهب، وعجزهم، واستطال على أهل حلب، وصار يكلّمهم كلامَ من هو أعلى قدرًا منهم، فتعصّبوا عليه، لاسيما أن طموحه كان بلا حدود إذ يقول: «لا بدّ أن أملك الأرض». وأشار الشيخ سديد بن رقيقة إلى هذا الأمر فقال عن السهروردى: «كان يتردد عليّ، وبيننا صداقة، وكان الشيخ فخر الدين يقول لنا: ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد أحدًا مثله في زماني، إلا أني أخشى عليه، لكثرة تهوّره واستهتاره وقلة تحفّظه، أن يكون ذلك سبباً لتلفه".

وقال فخر الدين المارديني نفسه في هذا الشأن: «لما جاء شهاب الدين السهروردى إلى حلب، وناظر بها الفقهاء، ولم يجاره أحد،

فكثر تشنيعهم عليه، فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين، ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام، فتكلم معهم بكلام كثير، وبان له فضل عظيم وعلم باهر، وحَسُن موقعه عند الملك الظاهر، وقرّبه، وصار مكينًا عنده، مختصًّا به، فازداد تشنيع أولئك عليه، وعملوا محاضر بكفره، وسيّروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين، وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك، كذلك إن أُطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد، وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك».

وكان من جملة ما دار في المناظرة بين الفقهاء والسهروردى ما أورده الأصفهاني حيث قال:

- الفقهاء: أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبيًّا. وهذا مستحيل.

- السهروردى: ما حد لقدرته؟! أليس القادر إذا أراد شيئًا لا يمتنع عليه؟

- الفقهاء: بلى.

- السهروردى: فالله قادر على كل شيء.

- الفقهاء: إلا على خلق نبي فإنه مستحيل.

- السهروردى: فهل يستحيل مطلقًا أم لا؟!

- الفقهاء: كفرت!

وهو ما فسره أعداء السهروردي لصلاح الدين الأيوبي بأن هذا معناه أن نبوة سيدنا محمد ليست الخاتمة، وأن هناك نبيًّا آخر سيأتي بعده، وهذا ما لم يكن يقصده السهروردي إطلاقًا، لأنه كان يقصد أن قدرة الله غير محدودة، وأنه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويبيّن من هذه المناظرة أن السهروردي فرّق بين النقل والعقل، بين (الإمكان التاريخي) و(الإمكان العقلي)؛ فليست هناك استحالة مطلقة تعطل القدرة الإلهية، وليس ثمة اعتراض في الوقت نفسه على صحة النص الديني القاضي بأن النبي محمدًا خاتم الأنبياء، أما الفقهاء فقد تمسّكوا بحرفية النص الديني، وأحسب أنهم كانوا أعجز من التحليق في الآفاق الفكرية والفلسفية التي كان السهروردي ينطلق منها.

وتم هذا الاستدراج للسهروردى فيما كان صلاح الدين الأيوبي في حاجة ماسة إلى توحد عناصر دولته مترامية الأطراف في مواجهة أعدائها من الفرنجة والسلاجقة وغيرهما، بينما كان فيه الفقهاء يزدادون

ضيقا من السهروردى، فزادوا في اتهامهم له، ودسوا ضده عند الملك الظاهر، فاستدعاه وعقد له مجلسًا من الفقهاء والمتكلمين يباحثونه ويناظرونه، فإذا هو يَظهرُ عليهم ويُظهرُ فضله وعلمه وقوة حججه أمام الملك، فلم يكن من الملك إلا أن زاد إقباله عليه وإكباره له وإعجابه به فاشتد ضيق الفقهاء، فكتبوا إلى صلاح الدين نفسه يحذرونه من خطر السهروردى على عقائد الناس وأيديولوجية الدولة التي تقف على حواف الخطر، ويقال إن صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر بحلب كتابًا بخط القاضي الفاضل يقول فيه: «إن هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أنه يُطلَق، ولا يبقى بوجه من الوجوه». واستفتى الظاهر في أمر السهروردى فقهاء حلب فأفتوا بقتله.

وهكذا نرى أن نقمة العلماء والفقهاء على السهروردي لم يكن بسبب الاختلاف الفكري فقط، بل لأنه كشف أمام الملك الظاهر جهلهم أيضًا، ونافسهم على مجالسة الملك وصداقته، وقد علموا- ولا ريب – أن السهروردي إذا تمكّن من قلب الملك فسيخسرون مناصبهم ونفوذهم، فقرروا كما أوضح فخر الدين أن يقضوا عليه ليس فكريًّا فقط، وإنما أن يقتلوه جسدًا وفكرًا.

وفي مقالة بعنوان "السهروردي المقتول: جدلية الروحي والسياسي في

تاريخ المسلمين" تم التأكيد على أن حياة السهروردي على قصرها فيمكن أن تتميز فيها ثلاثة أطوار: طور النشأة الأولى والإقامة في سهرورد، وطور الأسفار والتحصيل، وطور الاستقرار والنهاية.

الطور الأول: ولعل كل ما يُعرف عن حياته في الطور الأول منها هو أنه ولد في سهرورد وأنه قضى حياته الأولى في تلك البلدة القريبة من "زنجان" من أعمال "أذربيجان" وهنالك تلقى ثقافات دينية سواء إسلامية أم غير ذلك، وعقلية بحثية وتصوفية ذوقية.

الطور الثاني: فهو لم يستقر به مقام كونه محبًّا للأسفار، فتنقل من بلد إلى بلد، يلقى أجناساً شتى من العلماء والحكماء فيأخذ عن أولئك علمهم وعن هؤلاء حكمتهم، ويصحب الصوفية ويجالسهم ويأخذ نفسه بالتجريد وسلوك طريقهم في الرياضة والمجاهدة وفيما وصل إلى الكشف والمشاهدة، وقد تحدث "الشهرزوري" (وهو تلميذ السهروردي المخلص وخير من كتب ترجمته وجمع مصنفاته) عن السهروردي من ناحية، وعلى لسانه هو من ناحية أخرى حديثاً نتبين منه على أي وجه قضى شيخ الإشراق الطور الثاني من أطوار حياته، حيث قال الشهرزوري: كان قدس الله روحه كثير الجولان والطوفان في البلدان شديد الشوق إلى تحصيل مشارك له في علومه، ولم يحصل

له، فقال في آخر (المطارحات): وهو ذا قد بلغ الشهرزوري: كان قدس الله روحه كثير الجولان والطوفان في البلدان شديد الشوق إلى تحصيل مشارك له في علومه، ولم يحصل له.

فقال في آخر (المطارحات): وهو ذا قد بلغ سني إلى قرب ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم، ولم أجد من عنده خبراً عن العلوم الشريفة ولا من يؤمن بها – وكان رحمه الله غاية في التجريد ونهاية في رفض الدنيا يحب المقام بديار بكر، وفي بعض الأوقات يقيم بالشام وفي بعضها بالروم.

وقد أظهرنا الشهرزوري على بعض العناصر التي تتألف منها ثقافة السهروردي الفلسفية والتصوفية، فذكر أنه سافر في صغره في طلب العلم والحكمة إلى "مراغى" وأنه اشتغل بالحكمة على (مجد الدين الجيلي) وأنه سافر إلى نواحٍ متعددة، وصحب الصوفية، واستفاد منهم، وحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد ثم اشتغل بنفسه حتى وصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهايات مكاشفات الأولياء

ومن هنا يتبين لنا أن الثقافة التي تهيأت للسهروردي كانت ذات

طابعين: أحدهما طابع علمي، والآخر طابع عملي. فقوام العلمي: الفقه والأصول والكلام والحكمة النظرية، وقوام العملي: التصوف وما فيه من أعمال الرياضة، وأحوال الإرادة، وهي عند الصوفية الخلص سبيل السالك إلى تصفية نفسه وتنقية قلبه وجلو بصيرته، بحيث يصبح أهلاً لتلقي الأنوار وتجلي الحقائق والأسرار، فقد كان يبدي احتقاراً لكل مرغبات السلطان أو الأبهة الدنيوية، وكان في بعض الأحيان يلبس ثوباً واسعًا طويلاً وعمامة زاهية الألوان، وأحيانًا كان يبدو على العكس من هذا، في ثياب مهلهلة، ومرارًا ثالثة، كان يقنع بارتداء خرقة الصوفية.

قد روى (ابن رقيقة) حادثة طريفة فقال: كنت أنا وإياه نتمشى في جامع "ميافاقين" وهو لابس جبة مضربة زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجليه زربول، ورآنا صديق لي فأتى إلى جانبي، وقال: ما جئت تماشي إلا هذا "الخربندة" فقلت: اسكت، هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي، فتعاظم قولي وتعجب ومضى، وهذا النوع من عدم الاكتراث للاعتبارات الاجتماعية كان يقوم عنده على استقلال ذاتي مطلق.

الطور الثالث: على أن حياة التجوال في الطور الثاني التي كان يحياها السهروردي حيث انتهى الطور الثاني وبدأ الطور الثالث في حل وترحال

حتى انتهى إلى الشام،وأقام في مدينة حلب (٥٧٩هـ) ونزل في المدرسة "الحلوية"، فباحث الفقهاء وناظر أولئك وهؤلاء، وأفحمهم جميعًا بحجته وبراعته، وكان من ذلك ما كان من ضيق الفقهاء واتهامهم له، مما دعا الملك الظاهر بن صلاح الدين (صاحب حلب في ذلك الحين) إلى استدعائه، وعقد له مجلساً من الفقهاء والمتكلمين يباحثونه ويناظرونه، فإذا هو يَظهرُ عليهم ويُظهرُ فضله وعلمه وقوة حججه للملك الظاهر، فلم يكن من الملك إلا أن زاد إقباله عليه وإكباره له وإعجابه به فاشتد ضيق الضيقيين، وامتد حنق الحانقين، وإرجاف المرجفين حتى بلغ صلاح الدين، الذي صور له الفقهاء السهروردي بصورة المفسد لعقيدة الملك الظاهر ولعقائد الناس، وما فتئ الفقهاء يلحون على صلاح الدين لتشنيعهم على السهروردي، وبأنه إذا أبقى عليه أفسد اعتقاد الملك، وإذا أطلقه أفسد أية ناحية سلك، فلم يجد صلاح الدين بداً من الكتابة إلى ابنه كتاباً يأمره بقتل السهروردي، ويشدد عليه في ذلك ويؤكده،

واختُلف في طريقة قتل السهروردي؛ فذكر بعضهم أنه خُيِّر في كيفية قتله، فاختار أن يموت جوعًا، فمُنِع عنه الطعام حتى مات، ومنهم من ذهب إلى أنه قُتِل بالسيف، وآخرون أنه أُحرِق، وبعضهم قال إنه خُنِق

بوتر، لكن لا توجد رواية صحيحة يمكن الاعتماد عليها تثبت كيفية قتله. وتضاربت الروايات كذلك عن المكان الذي أعدم فيه، أكان في حلب أم في مصر؟ غير أنهم اتفقوا على تاريخ الإعدام الذي كان سنة ١١٩١م.

وكان لاختلاف السهروردي عن أقرانه من علماء السنة أثرٌ كبيرٌ في تحويل قلوب خصومه عليه وتحويل الأمر إلى شأن سياسي قاطع، مما جعلهم يعجلون في التخلص منه خوفًا من شهرته التي تخطت شهرتهم وأطماعهم، وتوفي وترك لنا إرثًا كبيرًا من الكتب بلغت حوالي ٤٩ كتابًا معظمهم في التصوف وأشهرها "كلمة التصوف"، و"مقامات الصوفية"، و"مؤنس العشاق"، و"رسالة أصوات أجنحة جبرائيل"، و"لوامع الأنوار"، و"الواردات الإلهية"، و"لوامع الأنوار"، و"الغربة الغريبة" وغيرها.

يتخذ السهروردي من الحلاج أستاذًا له، وكان يدعوه ب "أخيه"، وعلى شاكلة الحلاج يسير السهروردي؛ إذ يُضمن كتبه توجيهات ورؤى ونصائح صوفية والتي تتضح جليًّا في كتابه "كلمة التصوف" إذ يقول:

هناك أمورٌ كتمانها أوْلى من نشرها، وإذا ضبطتَّ نفسك عن الانشغال بالزائد على مُهمّ بدنك الضروريّ، واستكملت بالعلم؛ أُوتيت كثيرًا من الفضائل، وعليك بالتسابيح والأوراد، وقطع الخواطر الرديئة، فإنك إن

قطعْتها نجوْتَ منها، وأكْثِر الدعاء في أمر آخرتك، واسأل الله تعالى ما يبقَى معك أبدًا... لا ما يزُول، ولا تتكلم قبل الفكر، ولا تتعجب بشيءٍ من حالك، وعليك بقراءة القرآن مع وجدٍ وطربٍ وفكرٍ لطيف، واقرأ القرآن كأنه ما أُنـزِل إلا في شأنك فقط، واجمع هذه الخصال في نفسك فستكون من المُفلحين".

الحب الإلهي في شعر السهروردي

يلقب شهاب الدين السهروردي عادة بـ"الصوفي القتيل"، وعن فلسفة السهروردي قال حسين مروة: "النظريات الإشراقية عند السهروردي المقتول نموذج حيٌّ للتداخل بين الفلسفة العقلانية (المشائية في شكل خاص) وبين فلسفة التصوف، إضافة إلى مصادر الفكر الإشراقى المتعددة (الزرادشتية، الفيثاغورية، الأفلاطونية، والهرمسية) في إطار الإسلام العام، هذا وإن من النصوص الأصلية التي يبدو أن السهروردى كان مستوعبًا إياها بوعي جيد موضوع «العالمية» الذي يقوم عليه تاريخ الفكر الفلسفي، بمختلف أشكاله وتجلّياته، في مختلف بيئاته وأزمنته، وإنه بهذا الاستيعاب وهذا الوعي بنى مذهبه التصوفي الإشراقي، لذلك فإن «الحركة الإشراقية، مذ ظهرت في إطار التصوف الإسلامي وجدت في السهروردى المقتول منظمًا لنظريتها المتكاملة".

ويحكي لنا مقال "السهرودي المقتول: جدلية الروحي والسياسي في تاريخ المسلمين" عن مذهب السهروردي في حكمة الإشراق قائلاً، فما من شك في أن آثار السهروردي الكثيرة إن دلت على شيء فهي تدل على ما كان عليه ذلك الحكيم الإشراقي من ثقافة فلسفية واسعة وحكمة إشراقية رائعة، وعلى ما كان يمتاز به من نظر عقلي دقيق وذوق صوفي رقيق، وليس من شك في أن كتابه الموسوم "حكمة الإشراق" هو المرآة الصادقة التي تتجلى على صفحاتها عناصر مذهبه وخصائص عقله وذوقه، ذلك لأن هذا الكتاب هو أجمع مصنفاته وأشملها لمذهبه وللعناصر الإشراقية التي يتألف منها هذا المذهب وأدلها على المعاني الحقيقية التي ينزع إليها.

ويتبين هذا كله إذا عرفنا أن كتاب حكمة الإشراق ينقسم إلى قسمين: قسم تناول فيه السهروردي (المنطق) عنوانه: (ضوابط الفكر) وجعله في ثلاث مقالات: الأولى: في المعارف والتعريف، الثانية: في الحجج ومبادئها، الثالثة: في المغالطات، وبعض الحكومات "آلية التحكيم" بين أحرف إشراقية وبين بعض أحرف مشائية، وجعل القسم الأول من القسم الثاني مثابة التمهيد إذ عرض فيه لأمور هي عنده مقدمات لمطالب في القسم الثاني والذي عنوانه "الأنوار الإلهية ونور الأنوار

ومبادئ الوجود وترتيبها" وهو قسم خصصه للأنوار الإلهية وقد جعله في مقالات خمس:

١- في النور وحقيقته، ونور الأنوار وما يصدر عنه أولاً.

٢- في ترتيب الوجود.

٣- في كيفية فعل نور الأنوار القاهرة وتتميم القول في الحركات العلوية.

٤- في تقسيم البرازخ وهيئاتها وتركيباتها وبعض قواها.

٥- في المعاد والنبوات والمنامات.

فطالب الحكمة عنده لابد أن يكون على علم تام بالمنطق والفلسفة والتصوف، ولابد أن يتعاون فيه العقل والذوق، إذ العقل الذي يفكر وحده دون أن يكون له مؤيد من الذوق، ليس من الثقة فيه والاطمئنان إليه بحيث ينتفي فيه كل شك وتزول عنه كل شبهة، وآية هذا كله في مذهب السهروردي في حكمة الإشراق، هي أن هذا المذهب في جملته وتفاصيله جمع أو ازدواج وتزاوج بين الفلسفة والتصوف، أو بين الحكمة البحثية والحكمة الذوقية، ولعل أول ما يدل على أن مذهب السهروردي في حكمة الإشراق أقيم على دعائم من العقل والذوق معاً هو ما يحدثنا به السهروردي نفسه في مقدمة كتابه المذكور من أن ما حصل له لم

يحصل بالفكر بل كان حصوله من أمر آخر، ثم طلب الحجة عليه حتى، لو قطع النظر عن الحجة مثلاً، ما كان يشككه فيه مشكك لأن ما يذكره من علم الأنوار، وجميع ما يبنى عليه يساعده عليه كل من سلك سبيل الله عز وجل.

ولم يكن السهروردى ببعيد عن تناول موضوع الحب الإلهي المُنزه عن المادية في شعره، شأنه شأن معظم المتصوفة في عصره وفي غير عصره، فنجد السهروردي قد نَظَمَ أبياتًا في الحب الإلهي في نظم شعري صاف، إذ نظم في العشق الإلهي قصائدَ عديدة على النحو التالي:

أَبـــدًا تَحـــنُّ إِلَيـــكُمُ الأَرواحُ وَوِصـــالُـكُـم رَيـحـانُـهـا وَالـــراحُ
وَقُلوبُ أَهلِ وِدادكم تَشتـــاقُكُم وَإِلـــى لَـذيـذ لـقـائـكـم تَـرتـاحُ
وَارَحمـــةً للعاشِـــقينَ تَكـلّفوا سـرّ الـمَـحـبّـةِ وَالـهَـوى فَـضّـاحُ

***

أهل الهوى قسمان: قسم منهمو كتموا، وقسمٌ بالمحبة باحوا
فالباحئون بسرهم شربوا الهوى صرفاً فهزهموا الغرام فباحوا

والكاتمون لسرهم شربوا الهوى مـمـزوجـةً فـحَـمـتْـهـمـو الأقـــداحُ

***

بِالسرِّ إِن باحوا تُباحُ دِمـــاؤُهم وَكَـذا دِمـــاءُ العـاشِـقـيـنَ تُـبـاحُ

وَإِذا هُم كَتَموا تَحَدّث عَـــنهُم عِـنـدَ الـوشـاةِ الـمَـدمـعُ السَـفّـاحُ

أَحبابنا ماذا الَّذي أَفـــسدتمُ بِجفائكم غَـيـر الـفَـسـادِ صَـلاحُ

خَفضَ الجَناح لَكُم وَلَيسَ عَلَيكُم لِلصَبّ في خَفضِ الجَناح جُناحُ

وَبَدَت شَواهِدُ للسّقامِ عَلـــيهِمُ فـيـهـا لِـمُـشـكـل أمّـهـم إِيـضـاحُ

فَإِلى لِقاكم نَفسهُ مُرتـــاحةٌ وَإِلـــى رِضـاكُـم طَـرفـه طَـمّـاحُ

عودوا بِنورِ الوَصلِ مِن غَســـقِ الدُّجى فَالهَجرُ لَيلٌ وَالوصالُ صَباحُ

***

صافـاهُمُ فَصَفـــوا لَهُ فَقُلوبهم فـي نُـورِهـا المِشكاةُ وَالمِصباحُ

وَتَمَتّعوا فَالـــوَقتُ طابَ لِقُـربِكُم راقَ الـشّـراب وَرَقّـتِ الأَقـداحُ

يا صاحِ لَيسَ عَلى المُحبِّ مَلامَةٌ إِن لاحَ فـي أُفـق الـوِصـالِ صَباحُ

لا ذَنبَ لِلعُشّاقِ إِن غَلَـبَ الهَـوى كِتمـانَهُم فَنما الـغَـرامُ فَباحوا

سَمَحوا بِأَنفُسِهم وَما بَخِلوا بِها لَمّا دَروا أَنّ السَّماح رَباحُ

وَدعاهُمُ داعي الحَقائقِ دَعوة فَغَدوا بِها مُستَأنسين وَراحوا

رَكِبوا عَلى سنَنِ الوَفا وَدُموعهُم بَحرٌ وَشِدّة شَوقهم مَلّاحُ

وَاللَّهِ ما طَلَبوا الوُقوفَ بِبابِهِ حَتّى دعوا فَأَتاهُم المفتاحُ

لا يَطربونَ بِغَيرِ ذِكر حَبيبِهم أَبَداً فَكُلُّ زَمانِهم أَفراحُ

حَضَروا وَقَد غابَت شَواهِدُ ذاتِهم فَتَهَتّكوا لَمّا رَأوه وَصاحوا

أَفناهُم عَنهُم وَقَد كشفَت لَهُم حجبُ البقا فَتَلاشتِ الأَرواحُ

فَتَشَبّهوا إِن لَم تَكُونوا مِثلَهُم إِنَّ التَّشَبّه بِالكِرامِ فَلاحُ

قُم يا نَديم إِلى المدامِ فَهاتها في كَأسِها قَد دارَتِ الأَقداحُ

مِن كَرمِ أَكرام بدنّ ديانَةٍ لا خَمرَة قَد داسَها الفَلّاحُ

هيَ خَمرةُ الحُبِّ القَديمِ وَمُنتَهى غَرض النَديم فَنعم ذاكَ الراحُ

وَكَذاكَ نوحٌ في السَّفينة أَسكَرَت وَلَهُ بِذَلِكَ رَنَّةً وَنِياحُ

وَصَبَت إِلى مَلَكوتِهِ الأَرواحُ وَإِلى لِقاءِ سِواه ما يَرتاحُ

وَكَأَنَّما أَجسامهُم وَقُلوبهُم في ضَوئِها المِشكاةُ وَالمِصباحُ

مَن باحَ بَينَهُم بِـــذِكرِ حَـــبيبِهِ دَمــهُ حــلالٌ لِـلسّـيـوفِ مُـبـاح

ونَظَمَ قصيدة أخرى على نفس الطريقة والمذهب المختلف والمتميز عن العديد من شعراء عصره، فأنشد يقول:

كُلّ يَومٍ يَـروعُني مِنـــكَ عَـتب أَيّ ذَنـبٍ جَـنـاهُ فيكَ الـمُحبُّ

إِن تَكُن أَحدَثت وشــاتي حَديث بِسـلـوّي هَــواك حَشـاي كـذبُ

وَضُلوعي لَها هَـــــواك ضُـلوعا بَـل وَقَـلـبـي لَـهـا الـمَحبّة قَلبُ

مُتّ مِن جَـــورِ ســادَة قَد أَحَلّوا قَتلَ مَن لا لـهُ سِوى العشقِ ذَنبُ

صارَ لي في هَـــواهُ رُتبـــة ما حـازَهـا فـي هَـواهـم قَـطُّ صَـبُّ

عَبراتٌ تَهمي وَجِســـمٌ نَحـــيلٌ وَفُـــؤادٌ عَـلـى الـتَّـقـاطـعِ يَصبو

وَضُلوعٌ مِنَ الجَـوى واهـــيات وَدُمـــوعٌ بِـذائِـبِ الـقَـلـبِ سكبُ

يا سَميري وَلَم أَقُل يا سَمـــيري قَـط إِلّا أَجـابَ عِشـق وَحُـبُّ

هَل لـــــداء الهَوى سَمـعت دَواء هَل لِمَيت الغَرام في الحُبّ طبُّ

بَينَ جِسمي وَالسَّقم سلم وَبَينَ ال جفنِ وَالـنَّـوم عِندَما صَدّ حَربُ

مَن مُجيري مِن ظالِم وَلي القَـلـ ـب لَـهُ الـيَـوم فيـهِ قَـتلٌ وَنَـهـبُ

جاءَ لِلنّـــــاسِ فتنة بِـــخدودٍ نـارهـا فـي قُلوبنـا لَيسَ تَخبـوا

إِنَّ عَيني لِشمس وَجهِـــكَ شَرق مـا لِـدَمعـي سِـوى الـجفـن غَـربُ

وفى إحدى قصائده بيتٌ يشبه ما سبق أن نظمته رابعة العدوية في العشق الإلهي، والتي أشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب:

وَلَولاكُم ما عَرَفـــــنا الهَوى وَلَـــولا الـهَـوى مـا عَـرفـنـاكُـم

وهذا العشق أزلي، مستقر في الأعماق، في الحشايا والخلايا والضلوع، إنه عشق مرتبط بالوجود، ومن دونه العدم والصمت واللا شيء:

أَقسَمتُ بِصَفو حُبِّكُم في القدم مـا زَلّ إلـى غَيـرِ هَـواكُـم قَدَمـى

قَد أَمزج حُبَّكُم بِلَحـــمي وَدَمى قَطعي صلتي وَفى وُجودي عَدَمي

وثمة قصيدة أخرى عن النور الغامر الذي يملأ القلب بحب الخالق الأعظم، صورها في بساطة عبر التجسيد والتمثيل:

لِأَنوارِ نورِ اللّه في القـلب أَنوارُ وَللسرّ في سرّ المُحبّين أَسـرارُ

وَلمّا حَضَرنا للشّـــرابِ بِمجلسٍ وَخـفّ مِـن عـالـم الغَيـب أَسـرارُ

وَدارَت عَلَينا لِلمَـــــعارف قَهوة يَطوفُ بِها مِن جَوهرِ العَقلِ خمارُ

فَلَمّا شَرِبناها بِإِقـــــراه فمها أَضـاءَ لَنا مِنها شُموس وَأَقـمـارُ

وَكاشَفنا حَتّى رَأَيناهُ جَهرَةً بِأَبصار صِدقٍ لا يُواريهِ أَستارُ

وَخالَفنا في سكرِنا عِندَ نَحونا قَديمٌ عَليمٌ دائمُ العَفوِ جَبّارُ

سَجَدنا سُجودًا حينَ قالَ تَمَتّعوا بِرُؤيَتنا إِنّي أَنا لَكُم جارُ

ولغة السهروردي في شعره لغة فلسفية روحانية يمتاز بها عن الكثير من شعراء التصوف، ومن أبرز سماتها البساطة وجزالة اللفظ وعذوبة المعنى ورقته، وجرسها الموسيقي والإيقاعي الجميل والذي ساعد في استخدامها في العديد من الأغاني سواء قديمًا أو حديثًا، ويتضح ذلك جليًّا في الأبيات التالية:

يا مَليحًا قَد تَجلّى فيهِ أَهلُ الحَيّ هاموا

سِيَما لَمّا تَحلّى وَحَلا فيهِ الغَرامُ

قُلتُ لَمّا لاحَ يجلى وَانجلى عَنّي الظَلام

هَكَذا العَيشُ وَإِلّا فَعَلى العَيشِ السَلامُ

حَبَّذا لَمّا سَقاني صَفوَ كَأسِ الحُبِّ صِرفا

وَحَباني بِالتَدانِي وَانثَنى جيدًا وَعطفا

*****

مُبعدٌ في القَلـبِ حَـــلا وَجَلـــــــى عَـنّـي الـظَـلام

هَكَـــذا العَيـــش وَإِلا فَـعَـلـى الـعَـيـشِ الـسَـلام

يا خَليّ البـــالِ هَـــلّا تَـدخـل الـحـان وَتَـعـشـق

إِنّ لَيـــل الصـــدّ وَلّى وَصَـبـاحُ الـوَصـلِ أَشـرَق

وَمقـــامُ الحَـــبِّ جَلّ لا يُـضـاهـيـهِ مَـقـامُ

هَكَـــذا العَيـــشُ وَإِلّا فَـعَـلـى الـعَـيـشِ الـسَـلامُ

*****

أَحنّ لِذكـراهُ إِذا ما ذَكَـــرتُهُ وَتَنـهـل عَـبـراتٌ تَفيض غُروبها

حَنينُ أَسيرٍ نازحٍ شـــدّ قَـيدهُ وَأَعـوال نَفسٍ غـابَ عَنها حَبيبها

*****

آيات نبوَة الهَوى بي ظَهَـــرَت قَلبي كَتَمت وَفي زَماني اِشتَهرت

هَذي كَبدي إِذا السَماء اِنفَطَرَت شَـوقًا وَكَـواكِـب الـدُمـوع اِنـتَـثَـرَت

*****

قَد كنتُ أَحذَر أَن أَشقى بِفُرقَتِكم قَد شَقيتُ بِها لَم يَنفَعِ الحَذَرِ
المَرءُ في كُلّ يَومٍ يَرتَجي غَده وَدونَ ذَلِكَ مَخبوء لَهُ القَدرُ
القَلبُ يَأمَلُ وَالآمالُ كاذِبة وَالمَغشي يَلهو وَفي الأَيّامِ مُعتبرُ

*****

وَمِمّا شَجاني أَنَّها يَومَ وَدّعَت تَوَلَّت وَماءُ العَينِ في العَينِ حائرُ
فَلَمّا أَعادَت مِن بَعيدٍ بِنَظرَةٍ إِلَيّ اِلتفاتًا أَسلَمَته المَحاجرُ
اليَوم أَيقَنتُ أَن الحبَّ مُتلِفةٌ وَأَنّ صاحِبهُ منّي عَلى خَطرِ
كَيفَ الحَياة لِمَن أَمسى عَلى شَرَفٍ مِنَ المَنيّةِ بَينَ الخَوفِ وَالحَذَرِ
يَلومُ عَينَيهِ أَحياناً بِذَنبِهُما وَيَحملُ الذَّنبَ أَحياناً عَلى القدرِ

*****

أَفي كُلِّ يَومٍ نَظرَةٌ ثُمّ عَبرةٌ لِعَينيك يَجري ماؤُها يَتَحدّرُ
مَتى يَستريحُ القلبُ إِمّا مُجاور حَزين وَإِمّا نازِحٌ يَتَذَكّرُ

*****

تَوَلَّت بِهجـــــةُ الدُّنـــــيا فَـــكُـــلُّ جَـديـــدهـــا خَـلـــقُ

وَخانَ النـــــّاسَ كُلّـــــهُم فَـمـــا أَدري بِـمَـــن أَثـــقُ

رَأَيتُ مَعـــــالِمَ الخَيراتِ ســـــدَّت دونَـــهـــا الـــطُّـــرقُ

فَلا حَســـــــبٌ وَلا نَسَب وَلا ديـــــن وَلا خـــلـــقُ

فَلَست مُصـــــــدّق الأَقوامِ فـــي شَـــيءٍ وَلَـــو صَـــدَقـوا

*****

بِكُلِّ صُبـحٍ وَكُلِّ إِشـــــراق أَبـكـي عَـلَـيـكُـم بِـدَمـع مُشتـاقِ

قَد لَسَعت حيّة الـــهَوى كَبدي فَـــلا طَـبـيـب لَـهـا وَلا راقـي

إِلّا الحَبيب الَّذي شـــغفت بِهِ فَـــإِنَّـــهُ رقـيَـتـي وَتـريـاقـي

*****

هَبَّت عَلي صَـــــبا تَكاد تَقول إِنّـي إِلَـيـكَ مِـن الحَبيبِ رَسـولُ

صَرَّفت أَخباري فَقُلـــت أحبّها فـي قِصَّـتي طـول وَأَنـــتَ مُـلـوكُ

*****

قَد بَقينا مُذَبذبـــينَ حَيارى نَـطـلُـبُ الـوَصـلَ مـا إِلَـيـهِ سَبيلُ

فَدعاوى الهَوى تَخـــفّ عَلَينا وَخِـــلاف الـهَـوى عَـلَـيـنـا ثَقيلُ

*****

شَوقي يَجـــــلُّ عَنِ الوَسائل وَهـــوَى يـنـزّه عَـن مُـمـاثِـل

شَوقي يُجـــــدّدهُ الزَّمـــان إِلَـيـــكَ لا نَـحـوَ الـمَـنـازل

بُشّـــــرتُ أَنّك قاتِـــلي يـا حَـبَّـذا إِن كُـنـتَ قـاتـل

زَوّد فُـــــؤادي نَظـــــرَة مِـن حُسـنِ وَجـهِـكَ فَـهـوَ راحِـل

روحي فِـــــداء مُبَـــشِّري إِن صَـحَّ أَنَّـــكَ لـي مُـواصِـل

مُستَشـــــفِعٌ بِوَســـــائلٍ وَأَلَـــذّ مِـن إِحـــدى الـوَسـائـل

سَهَـــــري لِغَيـــركَ ضائِعٌ وَتَـيـمّـمـي بِـسِـــواكَ بـاطِـل

*****

بَيني وَبَينَـــكَ في المَوَدّةِ نِسبَةٌ مَكتومَة عَـن سـرّ هَـذا الـعـالَـمِ

نَحنُ اللّذان تعارَفَـت أَرواحُنا مِـن قَـبـلِ خَـلـق اللّه طـيـنَـةَ آدمِ

*****

ما عَلى مـــَن باحَ مِن حَـــرَجٍ مِـثـل مـا بـي لَـيـسَ يَـنـكـتِـمُ

زَعَمـــوا أَنَّني أُحـــــبِّكُم وَغَـــرامـــي فَـــوقَ مـا زَعَـمـوا

*****

عَلى العَقـــــيق اِجتَمـــعَنا نَـحـــنُ وَســـــودُ الـعـيـونِ

أَظـــــنّ مَجـــنونَ لَيـلى مـــا جـــنّ بَـعـضَ جُـنـونـي

إِن مُـــتّ وَجـــدًا عَلَيـهم بِـــأَدمُـــعـــي غَـسَـلـونـي

نوحوا عَلَـــــيَّ وَقُـــولوا هَـــذا قَـتـيـل الـعُـيـونِ

أَيا عُيـــونـي عيـــــونـي وَيـــا جُـفـونـي جَـفـونـي

فَيا فُـــؤادي تَصـــــبّر عَـلـى الَّـــذي فـارَقـونـي

*****

قِف بِنا يا سَعد نَنزل ها هُنا فَـأثـيـلات الـنَّـقـا مـيـعـادُنـا

وَابتغِ لي عـــــبرةً أَبكي بِها فَـدُمـوعـي نَـفَـذَت بِـالـمُـنـحَـنى

هَذِهِ الخيفُ وَهـــاتيكَ مُنى فَـتَـرفَّـق أَيُّـهـا الـحـادي بِـنـا

وَاِحبـــِس التَّدليجَ عَنّا ساعَةً نَـنـدُب الـحَـيَّ وَنَـبـكـي الـوَطَـنـا

أَهلُ مَكّةَ هَكَـــــذا مـــكّتكم كـلّ مَـن حَـجَّ إِلَـيـهـا فُـتِـنـا
قَتَلت سُمـــــركمُ ســـــادَتنا لَـسـتُ أَعـنـي بِكُم سُـمـرَ القَنـا
كُلُّ مَن آمـــل شَيـــئاً نـــالَهُ يَـومَ عـيـدٍ فـي مُـنـى إِلا أَنـا
قُلتُ يا صـــيّاد قَلبـــي حـــلّهُ حـرمَ الصّيد عَلى مَـن في منى
قال مَن تَعـــني وَقَـد أَبـــرَزَ لي مِـن خبا البُـرقـعِ وَجـهًـا حَسَنا
قُلتُ إِيّاكَ فأَومـــأ خَـــــجَلا قـالَ وَالـصَّـيـاد مَـن قُـلـت أَنـا

*****

بانوا وَأَضحى الجِسمُ مِن بعدِهِم مـا تُـبـصِـرُ الـعَـيـنُ لَـهُ فيّا
يا أَسَفـــي مِنهـــمُ وَمِن قَولِهُم مـا ضَـــرَّكَ الـفَـقـدُ لَـنـا شيّا
بِأَيّ وَجـــــهٍ أَتَلَقّـــاهُم إِن وَجَـدونـي بَـعـدَهُـم حَيّا

*****

إليْكَ إشاراتي، وأنتَ الذى أَهْوَى وأنتَ حَديثى بين أهل الهوَى يُرْوَى
وأنتَ مرادُ العاشقين بأسْـرهِمْ فطُوبَى لقَلْبٍ ذابَ فيكَ من البَلْوَى
مُحِبُّوك تاهُوا فى الهوى وتوَلّهوا وكلٌّ امرئٍ يصبو لنحو الذى يهَوَى

ولَمّا وردنا ماءَ مَـــدْيَنَ نستقي على ظمَإٍ مِنّا إلى منهل النجوَى

نَزَلْنا على حَيٍّ كِـــرَامٍ، بيوتُهمْ مقدّسةٌ لا هندُ فيها ولا عُلوَى

ولاحَتْ لنا نارٌ على البعد أُضْرِمَتْ وجدنا عليها من نحب ومن نهوى

سقانا وحَيّانا فأحـــيا نفوسَـــنا وأسْكرَنا من خير إجلاله عَفْوَا

مُدَامًا عليها العهدُ ألا يُسَقّها سوى مخلصٍ فى الحبّ خالٍ من الدّعوى

مزَجْنا بها التقوَى لتقــوى قلوبُنا فيا مَنْ رأى خمرًا يُمازجُها التقوى

فَهِمْنا، وهِمنا فى مُدامةِ وَجْـدِنا وسِرْنا نَجُرُّ الذيلَ من سُكْرنا زَهْوَا

شَرِبْنا فَبُحنَا فاسْتُبِيحَتْ دِماؤنا أيُقْتَلُ بَـوّاحٌ بِسِـرّ الـذى يهوَى؟

وأما عن شهاب الدين أبو حفص السهروردي فكما ورد في "سير أعلام النبلاء" للإمام الذهبي فهو أحد علماء أهل السنة والجماعة، ومن أعلام التصوف في القرن السابع الهجري، ومؤسس الطريقة السهروردية الصوفية، وصاحب كتاب "عوارف المعارف، وهو «الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوحد الصوفية، وقال عنه ابن النجار «كان شهاب الدين شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله.

وفي حوار له مع "الجزيرة نت" يقول الكاتب العراقي حميد المطبعي إن مؤسس الطريقة الصوفية السهروردية هو أبو حفص عمر بن محمد السهروردي الملقب شهاب الدين، والذي يعتبر حجة في التصوف، وأصدر عددًا من الكتب عن الصوفية، ويقول أيضًا: "لعل الطريقة السهروردية في التفسير تتميز بمدى فهم وإدراك مُلم يُدركه السلف

الصالح، فحين تذهب السهروردية للخلاص من مفاسد الدنيا، والتمسك بآيات الله الكريمة، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، إنما تدعو إلى الزهد والعمل من أجل الآخرة"، وأضاف أن "الطريقة السهروردية من هذا المنظور تُحيي ما أنزل الله على عباده من آياتِ بيِّنات".

وأما عن نسب أبو حفص شهاب الدين السهروردي فيذكر الدكتور عمار جيدل في بحثه بعنوان "بواعث المحبة ووظائفها عند الصوفية: أبو حفص شهاب الدين السهروردي أنموذجًا" نسبه، إذ يقول: هو يحيى أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله ابن عمويه شهاب الدين القرشي السهروردي البغدادي (٥٣٩هـ-٦٣٢هـ) التيمي البكري، فقيه شافعي، مفسر، واعظ، مشارك في علوم شتى، ولما بلغ من العمر ستة أشهر قُتل أبوه – رحمه الله – فنشأ في حجر عمه أبي النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ، قدم الشيخ من سهرورد إلى بغداد، وهو شاب، وصحب الشيخ أبا محمد عبدالقادر الجيلي، ورأى جملة من الشيوخ، وحصَّل طرفًا صالحًا من الفقه والخلاف، وحدّث ببغداد، ومكة ودمشق.

ويستمر ليقول إنه من كبار صوفية الأمة الإسلامية على مشرب أهل

السنة، المشرب الذي يركّز على المسألة الأخلاقية في التصوف، وفق مسالك الزهاد المتقدمين، تنسب إليه أشهر الطرق في القرنين السادس والسابع الهجريين، عُرِفت بالطريقة السهروردية، وتُعْرف ككثير من الطرق الصوفية بالسعي إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، ذلك أنّ التصوف عنده "طريق جامع بين الشريعة والحقيقة"، ويمثّل السمة العامة للتصوف الأخلاقي المشتهر والمنتشر في الأوساط السنية.

اجتمع فيه الأخذ بالواسطة كثير من أعلام التصوّف، فتأثّر بالسراج الطوسي (٣٧٨هـ) صاحب كتاب "اللمع"، وبأبي طالب المكي (٣٨٦هـ) صاحب كتاب "قوت القلوب"، وبالقشيري (٤٦٥هـ) صاحب كتاب "الرسالة"، وبأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) في كتاب "إحياء علوم الدين"، وأخذ مباشرة عن خاله وشيخه أبي نجيب السهروردي (٥٦٣هـ)، الحجة السند الرئيس في المشرب الأخلاقي، والشيخ عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ)، وأبي محمد القاسم بن عبد البصري (٥٨٠هـ).

اشتهر بالانتماء إلى التصوف والكتابة فيه، لهذا شاع بكتابه الموسوم بـ"عوارف المعارف"، كما كانت له مساهمات في مجموع العلوم

الإسلامية، فمن مؤلفاته: "أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى"، و"حلية الفقير الصادق في التصوّف"، و"رسالة السير والطير"، و"جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب"، و"زاد المسافر وأدب الحاضر"، وفضلا عن مشاركته في مختلف ميادين العلوم الإسلامية، فقد كتب في نقد الفلسفة اليونانية كتابه "رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية".

وجاء في "سير أعلام النبلاء" للإمام الذهبي أن ابن النجار :قال عن السهروردي إن أباه أبو جعفر تفقه ببغداد على أسعد الميهني ووعظ، قال لي ابنه قتل أبي بسهرورد، ولي ستة أشهر، كان ببلدنا شحنة ظالم فاغتاله جماعة، وادعوا أن أبي أمرهم، فجاء غلمان المقتول ففتكوا بأبي، فوثب العوام على الغلمان فقتلوهم، وهاجت الفتنة فصلب السلطان أربعة من العوام، فكبر ذلك على عمي أبي النجيب، ولبس القباء وقال: لا أريد التصوف، حتى استرضي .

ثم قال ابن النجار: وكان شهاب الدين شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله، والتسليك، صحب عمه وسلك طريق الرياضات والمجاهدات، وقرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع ثم لازم الخلوة والذكر والصوم إلى

أن خطر له عند علو سنه أن يظهر للناس ويتكلم، فعقد مجلس الوعظ بمدرسة عمه، فكان يتكلم بكلام مفيد من غير تزويق، ويحضر عنده خلق عظيم، وظهر له القبول من الخاص والعام واشتهر اسمه، وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا، ووصل به خلق إلى الله، وصار أصحابه كالنجوم، ونفذ رسولا إلى الشام مرات، وإلى السلطان خوارزم شاه ، ورأى من الجاه والحرمة ما لم يره أحد، ثم رتب بالرباط الناصري، وبرباط المأمونية، ورباط البسطامي، ثم أنه أضر وأقعد، ومع هذا فما أخل بالأوراد، ودوام الذكر وحضور الجمع في محفة، والمضي إلى الحج، إلى أن دخل في عشر المائة وضعف فانقطع .

قال: وكان تام المروءة، كبير النفس، ليس للمال عنده قدر؛ لقد حصل له ألوف كثيرة، فلم يدخر شيئا، ومات ولم يخلف كفنا، وكان مليح الخَلْق والخُلُق، متواضعًا كامل الأوصاف الجميلة. قرأت عليه كثيرا، وصحبته مدة، وكان صدوقًا نبيلاً، صنَّف في التصوف كتابًا شرح فيه أحوال القوم، وحدَّث به مرارًا - يعني " عوارف المعارف " - .

وفي العديد من الكتب والأبحاث والمقالات التي تحدثت عن شخصية السهروردي نجد أنه منذ صباه تلقى تعليمه عن طريق الإطلاع على

مزيج من الثقافات الإسلامية وغيرها، يعتمد بعضها على إعمال العقل، وبعضها على التذوق، وكان السهروردى كثير الأسفار، وفى ترحاله التقى علماء وحكماء ومتصوفة كثيرين، وفى مطارحاته نقل عنه تلميذه الشهرورى قوله عن هذه المرحلة من عمره: «قد بلغ سني إلى قرب ٣٠ سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم».

ثم قال: «سافر في صغره في طلب العلم والحكمة إلى مراغى، واشتغل بالحكمة على مجد الدين الجيلى، ثم سافر إلى نواحٍ متعددة، وصاحَبَ الصوفية، واستفاد منهم، وحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد ثم اشتغل بنفسه حتى وصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهايات مكاشفات الأولياء.

قال ابن النجار في كتابه "المُستَفَاد" إن السهروردي كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وطريقة التصوف، وإليه انتهت الرئاسة في تربية المريدين، وتسليك طريق العبادة والزهد في الدنيا، كان رحمه الله شيخ شيوخ العراق في زمانه، واحتلَّ منزلة عظيمة عند الخليفة الناصر لدين الله، وأصبح مقصد الناس، وظهر له قبولٌ عظيم من الخاص والعام، واشتُهر اسمه وقصده المريدون.

يقول الأستاذ الدكتور عبدالله بن صالح البراك في بحث بعنوان "الإمام السهروردي وآراؤه الاعتقادية" أن السهروردي سَلِمَ من كثيرٍ مما وقع فيه متصوفة عصره من بدع وانحرافات، يظهر هذا جليًا في المصنفات العقدية التي ألّفها في بيان عقيدة أهل السنة، إضافةً لكونه إمام من أئمة الصوفية في عصره، وألفَّ في ذلك كتابه المشهور "عوارف المعارف" الذي هو عمدة المتصوفة، وقد وصفه العلماء بأنه من المتابعين للسنة، المقتفين آثار الرسول صلى الله عليه وسلم.

وتوفي شهاب الدين في بغداد في أول ليلة من سنة ٦٣٢ هـ، ودُفن فيها، وبني على قبره منارة

الفصل الخامس
مقتطفات من شعر الصوفية

عبدالقادر الجيلاني

ذي الوسيلة

وَلَما صَفَا قَلْبي وَطَـــابَتْ سَرِيرَتِي

وَنَـادَمَـنِـي صَـحْـوِي بِـفَـتْـحِ الْبَصِـيـرة

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللّٰه مَوْلَـــــى الْوِلاَيَةِ

وَقَـدْ مَـنَّ بِـالـتَّـصْـرِيـفِ فِـي كُـلِّ حَـالَـةِ

سَقَانِي إِلهِي مِنْ كؤوس شَـــــرَابِهِ

فَـأَسْـكَـرَنِـي حَـقَـاً فَـهِـمْـتُ بِسَـكْـرتِي

وحَكَّمَنِي جِمْع الدِّنَانِ بِمَا حَـــوَى

وَكُـــلُّ مُـلُـوكِ الْـعَـالـمِـيـنَ رَعِـيَّـتـي

وَفِي حَانِنَا فادْخُلْ تَرَ الْكَأْسَ دَائِرًا

وَمَـــا شَـــرِبَ الـعُـشَّـاقُ إلاَّ بَـقِـيَّـتِـي

رُفِعْتُ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْحُبَّ فِي الْوَرَى

فَـقَـرَّبَـنِـي الْـمَـوْلَـى وَفُـــزْتُ بِـنَـظْـرَةِ

وَجَالَتْ خُيُولِي فِي الأَرَاضـــِي جَمِعَها

وَزُفَّـــتْ لِـيَ الْـكَـاسَـاتُ مِـنْ كُـلِّ وِجْـهَـةِ

وَدُقَّتْ لِي الْرَايَاتُ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَا

وَأَهْـــلُ السَّـمَـا والأَرْضِـــ تَـعْـلَـمُ سَـطْـوَتِي

وَشَاءُوسُ مُلْكِـــي سَارَ شَرْقاً وَمَغْرِبًا

فَـصِـرْتُ لأَهْـلِ الْـكَـرْبِ غَـوْثـاً ورَحْـمَـةِ

فَمَنْ كَانَ مِثْلِي يَدَّعِي فِكُـــمُ الْهَوَى

يُـطَـاوِلُـنِـي إنْ كَـانَ يَـقْـوَى لِـسَـطْـوَتِي

أَنَّا كُنْتُ فِي الْعُلْيَا بِنُور مُحـــــَمَّدٍ

وَفِـي قَـابَ قَـوْسَـيْـنِ اجْـتِـمَـاعُ الأَحِـبَّـةِ

شَرِبْتُ بِكَاسَـاتِ الغَرَامِ سُلاَفَةً بِهَا

انْتَعَشَت روحِـي وَجِسْـمِي وَمُهْجَتِي

وَصِرْتُ أَنَا السَاقِي لِمَنْ كَانَ حَاضِرًا

أُدِيـــرُ عَـلَـيـهِـمْ كَـــرَّةً بَـعْـدَ كَـــرَّةِ

وَقَفْتُ بِبَابِ اللهِ وَحْـدِي مُوَحِّـــدًا

وَنُـودِيتُ يَـا جِيـلاَنِيَ ادْخُـلْ لِحَضْرتِي

وَنُوديتُ يَا جِيـلاَنِيَ ادْخُلْ وَلا تَخفْ

عُطيتُ اللوا مِـنْ قَبْلِ أَهْـلِ الحَقِيقَةِ

ذِرَاعِيَ مِنْ فَوْقِ السَّـــــمَواتِ كُلَّهَا

وَمِـنْ تَحْتِ بَطْنِ الحُوتِ أَمْـدَدْتُ رَاحَتي

وَأَعْلَمُ نَبْـتَ الأَرضِ كَمْ هـــــوَ نَبْتَةٌ

وَأَعْـلَـمُ رَمْـلَ الأَرْضِـــ عَـدًّا لِـرَمْـلَـةِ

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اللهِ أُحْصـــــي حُـروفَهُ

وأَعْـلَـمُ مَـوْجَ الْـبَـحْـرِ عَـدًّا لِـمَـوْجَـةِ

وَمَا قُلْتُ هَذَا القَوْلَ فَخْـــرًا وإنَّمَا

أَتَـى الإِذْنُ حَتَّى تَعْرِفُوا مِنْ حَقِيقَتِي

وَمَا قُلْتُ حَتَّى قِيلَ لِي قُلْ وَلاَ تَخَفْ

فَـأَنْـتَ وَلِـيِّي فِـي مَـقَـامِ الْـوِلاَيَـةِ

أَنَا كُنْتُ مَعْ نُوْحٍ أُشَاهِدُ فِي الْـوَرَى

بِـحَـارًا وَطُـوفَـانـاً عَـلَـى كَـفِّ قُـدْرَتِـي

وَكُنْتُ وَإِبْراهِيمَ مُلْقَىً بِنـــــارِهِ

وَمَـا بَـرَّدَ الـنِّـيـرانَ إلاَّ بِـدَعْـوَتِـي

وَكُنْتُ مَعَ اسْمَعِيلَ في الذَّبْحِ شاهِدًا

وَمَـا أَنْـزَلَ الـمَـذْبُـوحِ إلاَّ بِفُتْيَتِي

وَكُنْتُ مَعَ يَعْقُوبَ فِي غَشْـوِ عَيْنِهِ

وَمَـا بَـرِئَـتْ عَـيْـنَـاهُ إلاَّ بِتَفْلَتِي

وَكُنْتُ مَعَ إِدْرِيسَ لَمَّا ارْتَقَـى الْعُلا

وَأُسْـكِـنَ فِـي الْـفِـرْدَوْسِ أَحْسَـنَ جَنَّـةِ

وَكُنْتُ وَمُوسَـــــى فِي مُنَاجَاةِ رَبِّهِ

وَمُوسَى عَصَاهُ مِنْ عَصَايَ اسْتَمَدَّتِ

وَكُنْتُ مَعَ أَيُّوبَ في زَمَنِ الْـــــلا

وَمَـــا بَـرِئَـتْ بَـلْـوَاهُ إلاَّ بِـدَعْـوَتِـي

وَكُنْتُ مَعَ عِيسَى وَفِي الْمَهْدِ ناطِقًا

وَأَعْـطَـيْـتُ دَاوُداً حَـــلاوَةَ نَـغْـمَـتِـي

وَلِي نَشَأَةَ فـــي الْحُبِّ مِنْ قَبْلِ آدمِ

وَسِـرِّي سَـرَى فِـي الْـكَوْنِ مِـنْ قَـبْـلِ نَشْأَتِي

أَنَا الذَّاكِرُ المَذْكُورُ ذِكْراً لِذَاكـــرٍ

أَنَـا الشـاكِرُ المَشْـكُورُ شُـكْـراً بِنِعْمَتِي

أَنَا الْعَاشِقُ الْمَعْشُوقُ فِي كُلِّ مُضْمَرٍ

أَنَـا السَّـامِـعُ الْـمَـسْـمُـوعُ فِـي كُـلِّ نَـغْـمَـةِ

أَنَا الْوَاحـــــدُ الْفَرْدُ الْكَبِيرُ بِذَاتِهِ

أَنَـا الْـوَاصِـفُ الْـمَـوْصُـوفُ عِـلْـمُ الطَّرِيقَةِ

مَلَكْتُ بِلاَدَ اللَّهِ شَرْقاً وَمَغـــــرِبًا

وَإِنْ شِـئْتُ أَفْـنَـيْـتُ الأَنَـــامَ بِلَـحْـظَـةِ

وَقَالَوا فَأَنْتَ الْقُطبُ قُلْتُ مُشـــاهدُ

وَنَـــالٍ كِـتَـابَ اللهِ فِـي كُـلِّ سَـاعَـةِ

وَنَاظِرُ مَا فِي اللَّوْحِ مِنْ كُلِّ آيـــــةٍ

وَمَـا قَـدْ رَأَيْـتُ مِـنْ شُـهُـودٍ بِمُـقْـلَـتِـي

فَمَن كَانَ يَهْوَانَا يَجِي لِمَحـــــلِّنَا

وَيَـدْخُـلْ حِمَـى السَّـادَاتِ يَـلْـقَ الْغَنِيمَة

فَلاَ عَالِمٌ إِلاَّ بِعِلْمِـــــــيَ عَـالِمٌ

وَلاَ سَـالِـكٌ إِلاَّ بِـفَـرْضِـي وَسُـنَّـتِـي

وَلاَ جَامِعٌ إِلاَّ وَلِـي فـــــيهِ رَكْـعَةٌ

وَلاَ مِـنْـبَـرٌ إِلاَّ وَلِـي فِـيـهِ خُـطْـبَـتِـي

وَلَوْلاَ رَسُولُ اللهِ بِالْعَهْدِ ســـــابِقٌ

لأَغْـلَـقْـتُ أَبْـوَابَ الْـجَـحِـيمِ بِعُـظْـمَـتِـي

مُرِيدِي لَكَ الْبُشْرَى تَكُونُ عَلى الْوَفَا

وَإِنْ كُنْتَ فِي هَمٍّ أُغِثْكَ بِهِمَّتِي

مُرِيدِي تَمَسَّكْ بِي وَكُنْ بِيَ وَاثِقًا

لأَحْمِيكَ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَكُنْ يَا مُرِيدِي حَافِظًا لِعُهُودِنَا

أَكُنْ حَاضِرَ الْمِيزَانِ يَوْمَ الْوَقِيعَةِ

وَإِنْ شَحَّتِ الْميزَانُ كُنْتُ أَنَا لَهَا

بِعَيْنِ عِنَايَاتٍ وَلُطْفِ الْحَقِيقَةِ

حَوَائِجُكُمْ مُقْضِيَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِي

أَرِيدُكُمُو تَمْشُون طُرْقَ الْحَمِيدَةِ

وَأَوْصِيكُمُو كَسْرَ النُّفُوسِ فإنَّها

مَرَاتِبُ عِزٍّ عِنْدَ أَهْلِ الطَّرِيقَةِ

وَمَنْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِتَكَبُّرٍ

تَجِدْهُ صَغِيراً فِي عُيُونِ الأَقِلَّةِ

وَمَنْ كَانَ فِي حَالاتِهِ مُتَواضِـــــعًا

مَــعَ اللهِ عَــزَّتْــهُ جَـمـيـعُ الْـبَـرِيَّـةِ

*****

مَا فِي الصَبابَةِ مَنْهَلٌ مُسْتَــعْذَبُ

إلاّ وَلِــي فِـيــهِ الْأَلَــــذُ الأَطْـيَـبُ

أَوْ فِي الْوِصَالِ مَكَانَهُ مَخْصــوْصَةٌ

إلاَّ وَمَـنْـزِلَـتِـي أَعَــــزُّ وَأَقْــــرَبُ

وَهَبَتْ لِيَ الأَيّامُ رَوْنَقَ صَفْــــوِهَا

فَـحَـلَـتْ مَـنَـاهِـلُـهَـا وَطَــابَ الْـمَـشْـرَبُ

وَغَدَوْتُ مَخْطُوباً لِكُلِّ كَرِيـــــــمةٍ

لاَ يَـهْـتَـدي فِـيـهَـا الـلَّـبِـيـبُ فَـيَـخْـطُـبُ

أَنَا مِنْ رِجَالٍ لاَ يَخَافُ جَلِيــسُهُمْ

رَيْــبَ الــزَّمَــانِ وَلاَ يَــرى مَـا يَـرْهَـبُ

قَوْمٌ لَهُمْ فِي كُلِّ مَجــــــدٍ رُتْبَةٌ

عُـلْـويَّـةٌ وَبِـكُـلِّ جَـيْـشٍ مَـوْكِـبُ

أَنَا بُلْبُلُ الأَفْرَاحِ أَمْلأُ دَوْحَـــــهَا

طَـرَبًـا وَفِـي الْـعَـلْـيَـاءِ بَـازٌ أَشْـهَـبُ

أَضْحَتْ جُيُوشُ الحُبِّ تَحْتَ مَشِيئَتِي

طَـوْعًـا وَمَـهْـمَـا رُمْـتُـهُ لاَ يَـعْـزُبُ

أَصْبَحْتُ لاَ أَمَلاً ولاَ أُمْنِـــــيَّةً

أَرْجُـــو وَلاَ سَـــوْعُـودةً أَتَـرَقَّـبُ

مَا زِلْتُ أَرْتَعُ فِي مَيَادِينِ الرِّضَـــا

حَـتَّـى بَـلَـغْـتُ مَـكَـانَـةً لاَ تُـوهَـبُ

أَضْحَى الزَّمَانُ كَحُلَّةٍ مَرْقُـــومَةٍ

نَزْهُو وَنَحْنُ لَهَا الطِّرَازُ المُذْهَبُ

أَفَلتْ شُمُوسُ الأَوَّلِينَ وَشَمْـــسُنَا

أَبَـــداً عَـلَـى فَـلَـكِ الْـعُـلَـى لاَ تَـغْـرُبُ

*****

رُفِعَ الحَجْبُ عَنْ بُدُورِ الجـــــمَالِ

مَـرْحَـبًـا مَـرْحَـبًـا بِـأَهْـلِ الـجَـمَـالِ

مَلَكُونِي بِحُبِّهِمْ وَرَضُـــــوا عَـنْ

عَـبْـدِ رِقٍّ فَـسُـدْتُ بَـيْـنَ الـمَـوَالِـي

عَامَلُونِي بِلُطْفِـهِمْ فِي غَرَامِـــي

فَـحَـلَـى فِـي بَـصَـائِـرِ الـنَّـاسِ حَـالِـي

فَرَّحُونِي بِصَـــــرْفِ رَاحِ هَوَاهُمْ

فَـتَـرَبَّـيْـتُ فِـي حُـجُـورِ الـــدَّلَالِ

إِنْ أَرَادُوا الصـــدُّودَ يَفْنَ وُجُودِي

رَحَـمُـونِـي وأَنْـعَـمُـوا بـالـوِصَـالِ

وَإِذَا مَا ضَلَلْتُ عَنـــــهُمْ هَدُونِي

هَـكَـذا هَـكَـذَا تَـكُـونُ الـمَـوالِـي

سَادَتِي سَادَتِي بِحَـــــقِّي عَلَيْكُمْ

إِنَّـــنِـــي عِـــنْـــدَكُـــمْ عَـــزِيـــزٌ وَغَـــالِ

مَا بَقَى لِي حَبِيبُ قَلْبِ سِـــــوَاكُمْ

مَـــاتَ وَهْـــمِـــي بِـــكُـــمْ وَبَـــانَ خَـيَـالِـي

بِحَيَاتِي عَلَيْكُـــمُ يَا سُقـــــاتِي

رَوِّقُـــوا الـــكَـــأْسَ إِنَّ حِـــبِّـــي مَـــلاَلِـــي

وَأَدِيرُوا الكُئُوسَ بَيْنَ النَّـــــدَامَى

فَـــجَـــمِـــيـــعُ الأَنَـــــامِ سَـــكْـــرَى بِـــحَـــالِـــي

عبدالغني النابلسي

ما كل من ذاق الصبابة مغرم

ما كل من ذاق الصـــــبابة مغرم من لم يذق طعم المحبة ما مرس

أنا يا سعاد بحـــبل ودك واثق لن انس ذكرك في الصباح وفي الغلس

يا جنة للعاشـــــــــقين تزخرفت جودي بوصل فالمتيم ما أأتنس

أنيت، قالت : كم تأن ؟ أجـــبتها هـذا أنيـن مـفـارق بـالـموت حس

قالت: وما يشفـــــيك؟ قلت اللقاء قالت أزيدك بالوصال، فقلت بس

فتبسمت عجـــــبا وقالت لن ترى وصلي فذاك أمر من أخذ النفس

تقرأ سعاد بضـــــــد ما أقرأ أنا أقرأ ألم نشرح ،، فتقرأ لي عبس

جس الطبيب مفاصـــلي ليداويني فـبـكـى عـلـي رحـمـة حـيـن جس

مالي شفاء يا سعـــــاد لعلتي إلا الـصـلاة عـلـى الـمـؤيـد بالغلس

ابن الخيمي

"حسبي علوا"

يا مطلبًا ليس لي فـــــي غير أربُ إليك آل التقصِّي وانتهى الطلبُ

وما أراني أهـــــــلاً أن تواصلني حسبي علـوًّا بـأنـي فيـك مكتئبُ

*****

لكن ينازعُ شـــــوقي تارةً أدبي فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ

ولستُ أبرح في الحالين ذا قلق نـام وشـوقٍ لـه فـي أضـلعي لهب

*****

ومدمعِ كلمـــا كفكـفت صَيـــبَّهُ صونًا لذكرك يعصيني وينسكبُ

ويدَّعي في الهوى دمعي مقاسمتي وجديوحزنيويجريوهومختضبُ

كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا يـزالُ فـي ليلـهِ للنجـمِ يرتقبُ

*****

يا صاحبي قد عدمت المسعدين فسا عدني على وَصَبي لا مَسَّكَ الوصبُ

باللّه إن جزتَ كثبـــــاناً بذي سَلَمٍ قفْ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكثبُ

ليقضي الخدُّ من إجراعـــها وطرًا في تُربها ويـؤدي بعض ما يجبُ

*****

وملْ إلي البان من شرقّي كاظـمة فلي إلـى البان من شرقيِّها أربُ

وكلما لاح معنـــى من جمـــالهم لـباه شـوقٌ إلـى معنـاه منتسبُ

أظلُّ دهري ولـــي من حبهم طربٌ ومن أليم اشتياقي نحوهم حَرَبُ

*****

للّه قومٌ بجـــرعاء الحـــي غُيُبُ جنـوا علـيّ ولـما أن جنـوا عتبوا

يا ربِّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟ وأنهم غصبوا عيشي فلِمَّ غضبوا؟

هم العُرَيْبُ بنجدٍ مُذْ عـــــرفتهمُ لـم يبقْ لـي معهم مـالٌ ولا نَشَبُ

شاكون للحرب لكن من قدودهـــمُ وفاتراتُ اللحاظِ السمرُ والقضبُ

فما ألموا بحـــــــيٍّ أو ألمّ بهـــمْ إلا وغـادروا على الأبيات وانتبهوا

عاهدتُ في زمـن البطحاء عهدي هـوى إليهم وتمـادتْ بيننا حِقَبُ

فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا لكن لغيري ذاك العهدَ قد نسبوا

*****

من منصفي من لطيفٍ منهم غَنِجٍ لـدنِ الـقـوام لإسـرائيـل ينتسبُ

مُبدِّلِ القول ظلماً لا يفـــــي بموا عيد الوصال ومنه الذنبُ والغضبُ

تُبينُ لثغتُهُ بالـــــراء نسبَـــــته والمينُ منه بزور الوعدِ والكذبُ

*****

موَحدٌ فيـــرى كل الوجـــــود له ملكًا ويبطل ما يأتي به النسبُ

فعن عجائبه حدِّثْ ولا حـــــــرجُ ما ينتهي في المليح المطلقِ العجبُ

بدرٌ ولكن هلالاً لاح إذ هـــــو بالـ ورديٍّ من شفق الخدين منتقبُ

*****

في كأس مبسمه من حلو ريقته خـمـرٌ ودُرٌ ثـنـايـاه لـهـا حَـبَـبُ

فلفظة أبدًا سكران يســـمعنا من مغرب اللحن ما يُنسي به الأدبُ

تجنى لواحظه فينا ومنـــــطقه جناية تجتني من مرها الضربُ

*****

حلو الأحاديث والألحاظ ساحرها تُلقى إذا نطقَ الألـواحُ والكتبُ

لم تبقِ ألفاظه معنىً يرق لـــــنا لقد شكتْ ظلمه الأسعارِ والخطبُ

فداؤه ما جرى في الدمع من مهجٍ وما جرى في سبيل الحبِّ محتسَبُ

*****

ويح المتيَّم شامَ البرقَ من إضـــم فهـزّه كاهـتـزاز البـارق الـحَـربُ

وأسكن البرقَ من وجد ومن كـلفٍ فـي قلبه فهو فـي أحشـائه لهبُ

وكلما لاح منه بـــارقٌ بعـــــثت مـاء المدامع من أجفانه سُحبُ

وما أعادت نسيماتُ الغويـــــر له أخبار ذي الأثل إلا هـزّه الطربُ

واهاً له أعرضَ الأحبـابُ عنه وما أجدتْ رسائله الحُسنى ولا القربُ

*****

بالأثل لنا حديـــث وجـــد طابـا عـاهـدت علـى صحته الأحبـابـا

أصبحت به مستغنـــــيا مشتغلا مـا أعـرف إنسـانـا ولا أنسـابـا

*****

جزعت لأن جيش الـــــروم وافى ومثلى ليس يجزع فـي الخطوب

وما جزعى لشـــيء غير أنـــــي أخـاف مـن الـعدو على الحبيب

*****

يا مذهـــــبين بجســـــــمي وذاهـــبـــيـــن بـقـلـبـي

مالـــــــي على البـــــعد إلاّ إرســـــال دمـعـي وكـتـبـي

وحـــــــق ما كـــان منـكم مـــن طـيـب وصـــل وقـــرب

لـــــولا هـــــواكم حيـــاتي قـضـيـت بـالـبـيْـن نـحـبـي

*****

ما أشـــــوقتي ولم أزل مقتربا مـا زادنـــي الـدنـو إلا طلبا

جاد الأحبـــــاب بالتداني ورضوا بالوصل ومـا شكواي إلا الرقبا

*****

لم تـــوف أشـــواقي ولا لوعاتي حـق الـهـوى لـكـم ولا عـبـراتـي

مع أن أيسر ما عدمـــت بلوعتى روحـي وأهـون مـا وجـدت مماتى

يا من يعز وصـــــالهم أن يشترى بـنـفـائـس الأمـــوال والـمـهـجـات

جهد الصبابة في هواكـــم سلوة ونـهـايـة الـبـلـوى مـن الـلـذات

وفوات جسم الصب آفات الضنى في حبكم من أعظم الآفات

فسقام جسمي في هواكم صحتي ال كبرى وموتي فيه عين حياتي

*****

إذا ما بثثت الشوق يا عز فاعلموا بأن يسير الشوق يعجز عن بثي

تجدد لي الأشواق في كل ساعةٍ على بالي البالي ومصطبرى الرث

وانفث أشكو فرقة فيطبها بأخرى كأن البين يطرب من نفثي

*****

ماذا أبث إليكم مما غدا حكم الزمان به علي وراحا

أأقول أنى قد بكيتم دما حتى كأن بمقلتي جراحا

أو أنني ألقى الركائب أو أسشيم البرق أو أتنسّم الأرواحا

شوقي إليكم فوق وصفي والصبا به فوق أن أشتاق أو أرتاحا

*****

يا من أدار بحسنه المعبود صهباء وصل في كؤوس صدود

ملأت محاسنك الوجود محاسنا لم يبق قلب فيك غير عميد

يا من دعانى قبل أوجـــد حسنه فقضى جمال وجوده بوجودى

إني بحسنك قد حييـــت وإنني سأموت من شوق عليك شديد

وإذا رضيت بان أمـوت هوى فقد أحييتنى يا مبدئى ومعيدى

أضحى جمالك مفرطا وصبابتى لورودها فمتى يكون ورودي

ولقد رأيت ميـــاهها لكـــنها رؤيا صدٍ عن ذوقها مصدود

أمعذبي بـــدلاله ومنعـــمي بجماله وبهائه المشهود

إن كنت في يوم العذاب معاتبى فمتى أفوز بيومه الموعود

لى من جمالك حسن وعد يرتجى ومن الدلال علي حسن وعيد

خطوات ذكرك لا تفارق خاطري وجمال حسنك لم يزل مشهودى

واذا نطقت فأنت مقصودى وان أصمت فحين فناي في مقصودى

لولاك لم ينض المســاق مطيتى ولما أنست بموحشات البيد

ولما حبست على معـــالم رامة نضوي أسائل صامت الجلمود

ولعى بغزلان الصـــريم قضى به ولهى عليك وموقفى بزرود

فى كل وقـــت لى هوى متجدد لغريب حسن لاح فيك جديد

خفيت به ذاتى وأظهر صـــبوتي فتبين المعدوم بالموجود

شهدت لى الاشجان فيـــك بأنني فان فقد ثبت الفنا بشهود

غلب الغرام على رسومى فاعجبوا لغرامي الموجود في مفقود

*****

يا أهـــــل ودى وانـــــهى قصدى وانـــس مـــرادي

بنتم فوجـــــــدي عليـــكم بـــاق لـــيـــوم المعـاد

وحـــقّ طيـــــب التـــلاقي وحســـن عـهـد الـــوداد

لم يعـــــرف الصـــبر عنكم ولا الـــهـــدو فـــؤادي

ان كان قلبـــي ســـــلاكم فـــلا ارتـــوى منـه صـادي

وان أردت ســـــواكـــم فـــلا بـلـغـت مـــرادي

ما أمـــــلك المـــيل عنكم يـــا مـالـكـيـن قـيـادي

حاشـــــاكم أن تضـــــيعوا فـيـكـم جـمـيـل اعـتـقـادي

*****

ما ضرّ من مـــلك فؤادي بأسره لو لم يضع بعض الجميل بهجره

فيضم شمل جمـــــــيله وجماله ويـجـوز حـب مـحـبـه مـع أجـره

مالي أبوئه الفؤاد جمـــــــــيعه ويـطـيـره بـصـدوده مـن وكـره

بدر له في كل قلـــــب منـــزل متـحـجـب مـن عـزه عـن سـرّه

يا ليتـــــــه إذ كان قلبـى بيته لـو كـان يـبـرد بـالـرضـا مـن حره

لم أســـمه بالشمس حيث طلوعه مـا كـان الا فـي دجـنـه شـعـره

منح الغزال ملاحـــــة من لحظه وكسـا الـغـزالـة خلعة مـن بشره

وأقام في قلـــــبي وأوقـــد ناره فـيـه ورد فـقـيـره عـن بـرّه

تدعو محـــــــاسنه ويزجر صده قد حرت في اذن الحبيب وزجره

يممت خيرا من وصـــــال جماله ويـــزيـــد الـــعـــذول بـســره

يا عاذلـــي ما أنت إلا مـــــذنب لـكـن أتـيـت بشـافـع مـن ذكـره

*****

ضاع في آثـــــارهم قلـــبي فلا مـعـهـم قـلـبـي ولا قـلـبـي مـعـي

عـــــاذلي عذلك من يســـــمعه ولـئـن كـنـت سـمـيـعـا مـن يعى

ملأوا قلبي وعيـــــــنيّ فما لـسـواهـم فـيـهـمـا مـن مـوضـع

وأحاديثهـــــم ما تـــــركت لسـواهـم مـوضـعـا فـي مسمعى

بى هوى يعجز رضوى حمل ما حـمـلـت مـنـه حـنـايـا أضـلـعـي

وغـــرام شهو الواشـــــى به قـبـل دعـــواى وغـيـري يـدعـي

*****

بالرغم مني أن تنأى الديار بكـم وان يـفـرق شـمـل كـان مجتمعا

وان تعود ديار الإنس موحـــــشةً وأن يكون طريق الوصل منقطعا

لم يبق غيركم مني سوى طمعني فيكم ويـا ليته يبقى لـي الطمعا

أصبحت أقنع بالآمال بعـــــدكم والصب إن هو لم يعط الرضا قنعا

ما لاح بـــرق ولا هبّت يمانـــية إلا تعـاظـم خـرق الـوجـد واتسعا

ولا شدا طائر إلا وضـــعت يدي على فـؤادي أظـن القلب قد وقعا

يا من يراعيه قلبي كلـــما نظرت عيناي أو سمعت أذنـاي مستمعا

الحسن منك بدا معـــناه ثم غدا مفرقا في الورى لكن لك اجتمعا

أقررت عيني إذا ما زلت أشهد أن كل الـمـرائـي جمالا منك مظبعا

إن تنظر العين إلا أنت لا نـظرت وإن دعا السمع إلا منك لا سمعا

وعنك إن بردت أحشاي لا بـردت ودونك الطرف أن يهجع فلا هجعا

فقرى إليك غنى والشغل عنك عنا والعذل فيك إلى طيب الغرام دعا

وقد بلغت بحبّي فيك منزلةً جلالها عن حضيض النطق قد رفعا

يا جامع الشمل حقا للمتـيم أن يفنى سرورا بأن الشمل قد جمعا

*****

لولا هواكم ما شاقـــــني طلل بالخيف نـاء عـن مقلتي شاسع

كلا ولولا بـــــروق بشـــركم مـا راقنـى بـارق الغضـا اللامـع

لا نال قلـــبي الذي يـــؤمله إن كـان يـومـا بـغيـركم قـانـع

هذا جمـــــال الحبيب مقتدر صـيّـر كـل امـــرئ لـه طـائـع

*****

أعرفـــت ما ألقـــاه بعدك قـرب الـعـواذل لـي وبـعـدك

والقـــلب خلـــف لى الجوى والـوجـد ثـم أقـــام عـنـدك

والبـــعد لم يقـــــنع به حـتـى ضـممـت إلـيـه صـدّك

ونسيـــت عـــهد مـــودّتي وأنـــا الـذي لـم أنـس عـهـدك

وتواتـــرت خدمـــــــــــي إليـــ ك فلـم تـجـب حـاشـاك عـبـدك

إني أعـــــــيذ من الجـــــــفا والـــغـــدر يـــا مـــولاي ودك

*****

لم يضن بحبّي لك جسمي البالـي يـا صـحّـة جسمي ونـعـيـم الـبـال

بل حبّك صحتي ولكن غرضـــــي في سقمي أن أخفى عن العذال

*****

وعزوا إلى أن لم تصلهم رسـائلي ولـو وصلت مـا أقنعتني الرسائل

أملاك أمري أنني متوســـــــل بـأنـي مـن كـل الـرسـائـل عـاطـل

وان حياتي أن أمـوت بحـــــبكم وعيشي في أن الضنى لي منازل

وبر فـؤادي أن يـــذوب بحـــره وراحـة طرفي أن يرى وهو هامل

خليلى قد اقترت من طيب وصلهم وعندي من الشوق الأليم حواصل

تعلّل بأخبار الزمان الذي مضـــى إذ العيش غض والحبيب مواصل

وساعة اخذ العهد إذ أنا عاشـــق هـنـاك ومـعـشـوق ومـصـغ وقـائـل

وما بيننا إذ ذاك شيء مكـــــدّرٌ ومـا بيننا إلا الـهـوى والتواصل

قرأنا ســـور الســـــلوا ن عـنـكـم وحـفـظـنـاهـا

وآيـــات الهـــــوى لما مـحـونـاهـا نـسـيـنـاهـا

ليالـــي صـــــدكم عنا شـكـرنـاهـا ونـمـنـاهـا

ولو مـــــر بنـــا فيـــها بـكـم طـيـف سـهـرنـاهـا

وأقـــــوال اللـــواحي قد سـمـعـنـا وأطـعـنـاهـا

وأما أدمـــــع العـــين فـلـلـقـلـب رددنـــاهـــا

فأطفـــــأنا بـــها نـــارا لـكـم كـنّـا وقـدنـاهـا

صباباتـــي لكـــم قد كا ن فـــي قـلـبـي مـعـنـاهـا

فقد أقـــــفر من معـــنى صـــبـابـاتـي مـغـنـاهـا

فكـــــونوا كيفـــما شئتم فـــأهـــواكـــم بـلـونـاهـا

وقد نلـــــنا من الســـلـ ـــوة أقـصـاهـا وأدنـاهـا

*****

شوقي إليكم مثل وجدي فيكم أبـدا يـزيـد حضـرتـم أو غبتم

والقلب أصبى ما يكون لوصلكم والجسم أضنى والمدامع سجّم

وحقكم لم يطف دمـــــعي لا ولا بـرد الصبا نـاراً بقلبي تضرم

كلا ولا سكن الذي هو ســـــاكن في القلب من قلق الحنين اليكم

وأنا الذي لم يسـله ما يفـعل الـ أحـبـاب فيـه ومـا تـقـول الـلـوّم

يا من يقربني التـذكر والنـــهى عـنهم وتبعدنى المهامه عنهم

ومن انتهى طلبــي اليهم وانتهى فـــالآن مـالـي مـطـلـب إلاّ هـم

كليّ لكم متــوجه ويصـــــدّني إجـلالـكـم عـن أن أقـول إليـكم

فالشوق يحبرني وقدري حابسي والـقـلـب ينجد والـجـوارح تتهم

*****

أترى لداء صبــابتي ابـــــلال ولـذلـك الـصـدر الـصـدى بـلال

هيهـــات كل دواء وجـــد بعدكم داء لـــدىّ وكـــل مـــاء آل

أمسي وأصبـــح آيسًا من صحتي وصـــلاحـي الـعـوّاد والـعـذال

واسوّدت الأيام بعـــدكم أســـىً فـلـذا لـيـالـي الـمُـسـتـهـام طـوال

أمخيمـــين بذي الأراك وواردى مـاء هـنـاك إلـيـه يـهـدى الضال

إن كان عن ميت الكرى غبتم ففي حـيّ الـصـبـابـة أنـتـم نـزال

وعلى الحقيقة ما يزل تعطـــشي أبـــدًا ولـــو أنّ الـغـرام وصـال

ما زلت صبّا في الدنوّ وفي الأسى متـشـوقـا لـكـم ولـسـت أزال

ويزيدني لكم تعالـــــــيل المنى شـــوقـاً فـمـن آلامـــي الآمـــال

وأكاد شوقا أن أطير إليـــــــكم لـكـن عـلـيَّ مـن الـجـوى أثـقـال

ويضيق بي رحب الفضـــاء وإنني مـمـا نـحـلـت كـأنـمـا أنـــا آل

ولئن بقيت فلا يحادث ســـــلوة حـاشـا غـرامـي يـعـتـريـه كـلال

فلقد خفيت عن العيـــــون فإنما أنـا في الظنون لدى الأنين خيال

يا ساكني البلد الحرام تحـــــية مـن مـغـرم لـدنـوّكـم يـحـتـال

عودوا لموطنكم الذي من بـعده مـاء الـحـيـاة مـن الـجـفـون مـذال

للّه ذاك العيش مرّ فمـــــا حلت مـن بـعـده حـال لـنـا أو مـال

*****

عيسى البيانوني

جمالُكُمُ لقدْ مَلأ الوُجـــــودا فـهـامَ الـعـارفـونَ بـهِ شـهـودا

وعقلي غـــاب مَن لي أنْ يعودا تَـنـاهَـبَـهُ الـتَـوَلُّـهُ والـشُـجـونُ

جنوني في محبَّتكم فُنونُ

غدوتُ بفضـــلِكم لكُمُ جليسا وقُـمْـتُ لأهـلِ وِدِّكُـمُ رئيسـا

لموتى حُبِّكُمُ قد صِرتُ عيسى فـإحـيـاءُ الـقـلـوبِ بـكـم يـهـونُ

جنوني في محبَّتِكم فُنونُ

*****

هِمْ بالحبيبِ محـمدٍ وذويهِ إن الـهـيـامَ بـحـبـه يُـرضـيـهِ

إنْ مات جسمكَ فالهـوى يُحييه جسـدٌ تـمـكّـنَ حـبُ أحـمـدَ فيه

تاللّه إن الأرض لا تُبليه

طوبى لِمن هو في المحبة صـبُّهُ لـمَ لا ومـولاهُ الـكـريـمُ يُـحـبـهُ

في القبر حاشا أن يُضـامَ مُحِبُّهُ أوَ كـيـفَ يـأكـلـه الـتـراب وحُـبُّـهُ

في قلبه ومديحهُ في فيهِ

مِنْ بُعدِهِ روحي أشـاعت أنَّها أنـا لستُ أصغي للعذولِ وإن نهى

يا عاشقاً ذات الحبيب وحسنَها أكثرْ عليه من الصلاةِ فإنّها

هي نورُ قبركَ عندما تأويه

يا رب عـبدٌ قد أتى بِفعاله وبـذلـه قـد مـدّ كـفّ سـؤالـهِ

وأتى حبيـبكَ طامعًا بنواله عـبـدٌ تـوسـل بـالـنـبـي وآلـه

فبحقهمْ يا رب لا تخزيه

*****

حبيـب اللّه للـكون ابتداء لـه الـخُـلُـق الـمـعـظـمُ والـبـهـاءُ

وقد عـمّ الوجودَ ندىً وجودًا وفـيـه قـطّ مـا خـاب الـرجـاءُ

شُغِفتُ بحـبّه مذ كنت طفلاً وشِـبْـتُ وليس للـحُـبّ انقضاءُ

يُضاعَفُ حبُه في القلب يومًا فـيـومًـا والـمـحـبّ لـه الـهـنـاءُ

حبيبـــي إنّ داء البعد أضنى فـــؤادي حيـنـمـا عـــزّ الـــدواءُ

فأنقذني حبيبـــــي منْ بِعادٍ بـــه قـــد زاد كـربـي والـعـنـاءُ

*****

الحبّ أشرفُ ما حوتهُ أضالعُ والعُمْرُ إلا في المحـــبة ضـــائعُ

لا يشغلنّك شاغلٌ عن حبّ من بدرُ الســماء له عُبَيــدٌ طائـعُ

يممْ حمى أعتـــــابه بتـذلل والثم ثـــراهُ وأنت بـــاكٍ خاشعُ

وحياتِه أنـا مغرمٌ في حـــــبـهِ وبفضلـه في كـلّ آن طـامـعُ

لولا رجائي أن أفـــــوزَ بقربه لأبادني ســـهمُ البعـــادِ الصادعُ

نورٌ من النور القديم قد انجلى فـرْدٌ لأشـــتات المعـالي جـامعُ

عبدالرحمن الشاغوري

قلبي لِعِـــزِّكَ يخشَـــعُ ولـــكَ الـــجَـــوارحُ تَـخْـضَـــعُ

يا مَن وَعَـــتْهُ مَسامِـــعي فـــي كـــلِّ صَـــوْتٍ يُـسْـمَـعُ

يا مَنْ رأَتْـــهُ بَصيـــرتي فـــي كـــلِّ نُـــورٍ يَـسْـطـــعُ

في الشمـــسِ إمّا أَشـــرَقتْ والـــبـــدرِ إمّـــــا يَـطْـلـعُ

في كلِّ وَجْـــهٍ مُشْـــــرقٍ نَـضِـــرٍ تَـجَـلّـى الـمُـبْـــدِعُ

في الـــزَهرِ يَبْسِم للنَـــدى وأَريـــجُـــهُ يَـتَـضـــــوَّعُ

في كلِّ غُصْـــنٍ مُزْهِـــرٍ فـــوق الـــرُبـــا يَـتـرعْـــــرعُ

في الطَيرِ يَغـــدو جائـــعًا ويَـــــروحُ إمّـــا يَـشْـبَـــعُ

فَتَـراهُ يَشْـــدو داعـــيًا فـــوق الـغُـصـــونِ يُـرَجِّـــعُ

كلُّ دَـــرى تَسْبـــيحَـهُ ولِـــربِّـــهِ يَـتَـضَـــرَّعُ

أبو العباس المرسي

فطرة النفس

إن كنت سائلنا عن خالص المنن وعن تآلف ذات النفس بالبدن

وعن تشبثها بالحظ مذ ألـــفت أدرانها فغدت تشكو من العطن

وعن بواعثها بالطبع مائلةً تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجن

وعن حقيقتها فى أصل معدنها لا ينثى وصفها منها إلى وثن

وعن تنزلها فى حكمها ولها علم يفرقها فى القبح والحسن

فاسمع هديت علومًا عز سالكها ع لى البيان ولا يغررك ذو لسن

قصداً إلى الحق لا تخفى شـــواه دها قامت حقائقها بالأصل والفنن

يا سائلى عن علوم ليس يدركها ذو فكرة بفهومٍ لا ولا فطن

لكن بنور على جامعٍ خـــمدت له العقول وكل الخلق فى وسن

خذها إليك بحق لســـت جاهله والأمـــر مـطـلـع والـحـق قـيـدنـى

على الحقيقة خذ علم الأمـور ولا تحجبك صورتها فى عالم الوطن

ففطرة النفس سر لا يحيط به ع قـل تـقـيـد بـــالاوهـــام والـــدرن

لكنها برزت بالحكم قائـمة حتى تـأـلـفـهـا الـسـكـان بـالـسـكـن

وكى يقال عبيد قائمون بما ألقى مـن الأمـر قـبـل الـخـلـق والـمـحـن

والنفس بين نزولٍ فى عوالـــمها كـــآدم ولـــه حـــواء فـــى قـرن

والروح بين ترقٍّ فى معارجـــها وهـى الـمـوافـق للتعريف والمنن

من الحجاب دنت أنوارها فبـدت نـورًا تـنـزل بـيـن الـمـاء والـدمـن

مثالها فى العلا مرآة معـــــدنها ألطافها خفية كالسر فى العلن

زيتونة زيتها نور لصاحبها قامت حـقـائـقـهـا بـالأصـــل والـقـنـن

ونار دعوتها ماء لشـــاربها مدت هـدايـتـهـا فـى الـكـون والـكـبـن

والكل أنت بمعنى لاخفاء به والنـ ور يـحـجـبـه كـالـمـاء فـى الـلـبـن

والعبد محتـــجب فى عز مالكه دقت معارفه فى الدهر والزمن

سمنون المحب

بكيتُ ودمع العــين للنفس راحة ولكن دمع الشوق ينكى به القلبُ

وذكرى لما ألقاه ليس بنـــافعي ولـكنـه شـيء يهيـج بـه الـكرب

فلو قيل لي من أنت قلت معـذب بنـار مـواجيـد يضـرمهـا العتب

بليت بمن لا أستطـيع عـــتابه ويعتبنى حتى يُقـال لـي الذنب

*****

كان لي قلـــــبٌ أعـــــيش به ضـــــاع مـنّـــي فـــي تـقـلـبِـه

رب فارددہ علـــــــيّ فـــــقد ضـــاق صـــدري فـــي تطلبـه

وأغـــث ما دام بي رمـــــــقٌ يـــا غـيـــاثَ الـمـســتـغـيـثِ به

*****

وكان قلبي خاليًا قبل حـــبكم وكـان بذكر الخلق يلهو ويمزحُ

فلما دعا قلبي هواك أجـــــابه فلستُ أراه عـن فنـانـك يـبـرحُ

رُميت ببين منك إن كنــت كاذبًا إذا كنت في الدنيا بغيرك أفرح

وإن كان شيءٌ في البلاد بأسرها إذا غبت عـن عيني بعيني يلمحُ

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل فلستُ أرى قلبي لغيرك يصلحُ

*****

أفديكَ بل قلّ أن يــفديك ذو دنفٍ هل في المذلّة للمشتاق من عار

بي منك شوقٌ لو أن الصخر يحمله تفطّر الصخر عن مستوقد النار

قد دبّ حبّك في الأعضاء من جسدي دبيب لفظى من روحي وإضماري

ولا تنفّست إلا كنت مع نفـــــسي وكل جارحة من خاطري جاري

*****

تجرّعت من حاليه نعمى وأبؤسا زمان إذا أمضى عزاليه أُحتسى

فكم غمرة قد جرعتني كؤوسها فجرعتها من بحر صبري أكؤسا

تدرعت صبري والتحفت صروفه وقلت لنفسي الصبر أو فاهلكي أسى

خطوب لو أن الشم زاحمن خطبها لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

أنت الحبيب الذي لاشك في خـلد منه فـإن فقدتك النفس لم تعش

يا معطشى بوصال أنت واهــبه هل فيك لي راحة إن صحت واعطشى

*****

شغلت قلبي عن الدنيا ولذتــها فـأنـت والـقـلـب شـيء غير مفترق

وما تطابقت الأحــداق من سنة إلا وجدتك بين الجفن والحدق

*****

أنا راض بطول صـــــدك عني لـيـس إلا لأن ذاك هـواكـا

فامتحن بالجفا صبـــــري على الـــوُد ودعـنـي مـعـلـقـا بـرجـاكـا

*****

ولو قيل طأ في النار أعـــــلم أنّه رضىً لك أو مدن لنا من وصالكا

لقدّمتُ رجلي نحـــــوها فوطئتُها ســرورا لأنـي قـد خـطـرتُ ببالكا

أحمد البدوي

أنا الملثم سل عني وعن همـــمي ينـيبك عـزمـي بمـا قلـتـه بفمي

مذ كنت طفلا صغيرا نلـت منزلة وهمتي قد علت من سالف القدمى

إذا دعاني مريدي وهو في لجــج من البحار نجا من سطوة العدم

لك الهنا يا مريدى لا تخف أبدا

واشطح بذكرى (مـا) بين البـان والعلم

أنا السطوحي واسمي أحمد البدوي

فحل الـرجـال أمـــام الـقـوم فـي الـحـرم

أنا السطوحي أنا السلطان أنا العطاب

لـيـس الـتـخـلـي عـن الأتـبـاع مـن شيمي

أبو الحسن الششتري

إذا لم يكنْ مَعْنى حديثك لي يُدْرَى

فـلا مُـهْـجْـتـي تُـشْـفـىَ ولا كَـبـدي تُـروَى

نَظرتُ فلم أنْظر ســـِواكَ أحـــبُّهُ

ولَـــولاكَ مـا طَـاَب الـهَـوى لِـلَّـذي يَـهـوى

ولَّما اجْتلاَك الفكرُ في خَلوة الرّضا

وغـيّـبـت قـال الـنـاس ضَـلـت بـي الاهْـوا

لَعمرُك ما ضَلَّ المحـــــبُّ وَما غَوى

ولـكَّـنـهـمْ لـمَّـا عـمُـوا أخـطـئـوا الـفـتـوى

ولو شَهدوا معنى جمَـــــالِكَ مثْلما

شـهـدْتُ بعينِ القلبِ مـا أنـكـروا الـدَّعـوى

خلعت عِذاري في هَـــــواك وَمنْ يكنْ

خليعَ عِــذارِ فـي الـهـوى سَـرَّهُ الـنـجـوى

وَمزقتُ أثواب الوقارِ تَهتكا عليـــــكَ

وطــابــت فــي مـحَـبـتـكَ الْـبـلـوَى

فما في الهَوى شكوىَ ولو مُزِّق الحَشَا

وَعــارٌ على العُشاق فـي حُبِّكَ الشَّكوى

*****

يَا حاضـــــرًا في فُؤادي بِـالـفـكـرِ فِـيـكـمْ أطـيـبُ

إِنْ لمْ يزُرْ شخـصُ عيني فـالـقـلـبُ عِـنـدي يـنُـوبُ

مَا غِبتُ لَكِنَّ جِـــسْمي مـــن الـنُّـحـول يـــذوبُ

فَلمْ يَجدْني عـــــذولٌ وَلاَ رآنِـــــي رَقِـيـبُ

وَلوْ دَرَى الدَّهْـــرُ عَنِّي جَـــاءت إِلـــيَّ شـعُـوبُ

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ غَـــــرامٍ فَـسَـلـهُ عَـنِّـي يِـجُـيـبُ

*****

طَابَ نُقْلِـــــــي وَشرَابي وحَـــبـــيـــبـــي اعـــتـــنـــابـــي

فاعْذَرُوني يا صِـــــحابِي فـــي سُـــجُـــودِي واقْـــتـــرابِـــي

خمـــــرةٌ رَاقَ شَـــــذاهَا كـــلُّ نُـــورٍ مِـــن سَـــنـــاهَـــا

قَامَ سَاقِـــيها سَقَـــــاهَا أَجْـــعَـــلَـــوهَـــا احـــتِـــسَـــابِـــي

أنَا سَكْـــــرانُ مِـــن هَواهُ لَـــيْـــسَ لـــي راحٌ ســـواهُ

كلَّمَا نَادَيْـــــتُ يا هُـــو كـــان لَـــبَّـــيْـــكَ جَـــوابـــي

*****

كُلّ حَدّ لُو نصـيب من الدُّنيا وهَـــــواكْ لِـــي نـصـيـب

يا حَيـــــتِي وأَنْتَ في ذاتِي حـــاضِـــرٌ لا تَـغِـيـب

أَنْتَ أَسْكَرْتنـــي على سُكْرِي مِـــن لـــذيـــذِ الـشَّـــراب

ثُمَّ خاطَبْتَنـــي كـما تدْرِي فـــفـــهِـــمْـــتُ الْـخِـطـاب

ثُمَّ شاهَدْتُ وجْـــهَكَ الْبَدرِي عِـــنْـــدَ رفْـــعِ الْـحـجَـاب

ثُمَّ صَيَّرْتَـــــني رَقيب ذاتِي كُـــنْـــتَ أَنْـــتَ الـرَّقـيـب

يا حَيـــــتِي وأَنْتَ في ذاتِي حـــاضِـــرٌ لاَ تَـغِـيـب

أُدْخُلِ الْحـــــان وشاهِد الْمعْنَى لِـــتـــنـــالَ الأمـــــــان

كَيْ تَرانِي بينَ الدّنـــــانِ عاكِفا شـــاخِـصـــاً لـلْـدِيـان

وسقانِي ساقِي الْمـــُدام دَوْرِي قـــبْـــلَ دَور الـــزَّمـــان

أنْتَ تَدْري مَن كـانَ ســـــاقِينا الْـــقَـــريـــبُ الْـمُـجِـيـب

يا حَياتِي وأنْـتَ في ذاتِـــــي حـــاضِـــرٌ لاَ تَـغـيـب

أنا مِنْ فَيْـــض فضْـلِ ساداتِي نِـــلْـــتُ أعْـــلَـــى الـــرّتَـــب

وعَلى قدْرِ همـــّةِ الطَّالـــــب ســـيـــكُـــونُ الـــطَّـــلَـــب

ثُمَّ قَضَيْتُ سايـر أوْقاتِـــــي بـــالْـــفـــرَحْ والـــطَّـــرَب

وسَمِعْتُ الْخِـــطابَ مِنْ ذاتِـــي مِـــــنْ مـــكـــانٍ قـــريـــب

يا حَياتِـــــي وأنْتَ في ذَاتِـــي حـــاضِـــرٌ لاَ تَـغِـيـب

*****

ســـــألوا الريـــــــــاحْ إنْ الـتـقـوا أحـبـاب قلبي

ودمـــــــعي جـــــــراحْ تـجـردْ عـلـى خـدِّي ونـهـدي

لو صـــبت جنـــــاحْ قلبي يـصـبـرْ مِـــنْ شـــدةِ تعبي

لا صـبرَ لي كـــــــيف الـصـبـر والـجـسـم نـاحـل

يا سيـــــــدي يحقّ لي نب كـي عـلـى بـعـد الـحـبـايـبْ

يا سيـــــــدي هُم ســادتي وأنـــا إلـيـهـم مـفـتـقـرْ

يا سيـــــدي من وحشـتي بَـدَّلـتْ نـومـي بـالـسـهـر

يا سيـــــدي من فـــرقتي نـبـكـي عـلـى بـعـد الـحـبـايـب

لا صبـــــــــــرَ لي كيف الصبر والجسم ناحلْ

يا سيـــــــــدي يحق لي نبـكي عـلـى بـعـدِ الـحـبـايـب

*****

سُلُـــوِّيَ مكروهٌ وحُبكَ واجبٌ وشـوقِي مقيمٌ والتَّواصلُ غائبُ

وفي لوح قلبي من وِدَادكِ أسطرٌ وَدمعي مِدادٌ مثل ما الحسن كاتبُ

وقارىء فكري لِلمحَاسِـــن تاليًا على دَرْس آيات الجمالِ يواظبُ

أُنَزِّهُ طَرفي في سماء جَمالكـمْ لِثاقب ذِهنـي نَجمُها هـو ثاقبُ

حَديثُ سواكَ السمع عنهُ محَّرمٌ فَكُلِّيَ مسلوبٌ وحسنكَ سالبُ

يقولونَ لي تبْ عن هوى من تُحبُّهُ فقلتُ عن السلوان إنِّـيَ تائبُ

عَذابُ الهوى عذبٌ على كل عَاشِق وإن كان عندَ الغير صعبٌ وواصبُ

*****

قد لاَحَ لِـــيَّا مـــــنِّي سِـــــر بَـــدَا عـجِيـــــب

حـــــتَّى رأيْـــتُ أنِّي عَـــن حـضْـــرتـي لا نَـغـيـب

أنا ما زِلْـــتُ حاضـــرْ حـاضِـــر فـــي كـــلِّ حـيـن

عيْنـــــي إليَّا ناظـــر نـــاظِـــر طُـــولَ السِّـنـيـن

والحـــــق فِيَّا ظاهـــرْ ظـــاهـــر لِـــــذِي يـقـيـن

من قـــــالَ أنا وإنِّـــي قـــد أوفـــــي بـالْـمَـغـيـب

إن قـــــيلَ هـــذَا عَـنِّي قـــد أحْـــــرَم الـنَّـصـيـب

منهُ يا قَـــوم ولْـــدِي ولْـــــدِي يـــا قـــوْم آنـــا

أوَ تَـــدْروا مَن هُـــو جدَّي جـــــدَّي سَـبـقـتـوا أنـــا

أنا ما زِلْـــتُ وحْـــدِي وحْـــدي مـــا زِلْـــتُ أنـــا

ومن حَكَـــمْ بعَيْـــني أخْـــطـــا ولـــم يُـصـيـبْ

قُلُّوا إليـــــكَ عَـــنِّي مـــا أنْـــتَ لـــي نَـسـيـبْ

يا من يـــرَانِي شـــــفْعَا ... الـــشَّـــــفْـــعَ بـــيَ ظـهـرْ

رُدَّ الوُجُـــــودْ جَمـــعا ... فـــالْـــفَـــرْقُ فـي الـصُّـــوَرْ

واحْـــكُم بهـــذا قَطْعَا ... أنـــــا مـــالِـــي أخَـــــرْ

مَـــــلأتُ كلَّ أيـــــنِ ... ولـــمْ نَـــــزَلْ مُـجـيـبْ

لكلِّ مـــــن هـــو مَـدْني ... مـــن حـضْـــرتـي قـريـبْ

إن كُـــنت ممـــن تَحقَّقْ ... فِـــي الْـــكَـــوْن قَـــوْلَ كُـــونْ

صِـــحْ في الوُجُـود مُطْلق ... خـفـى عَـــنِ الْـعُـيـونْ

نُور الحقـــيقة يشـرقْ ... وســـــرَّهـــا مـصُـــونْ

لَمْ قطْ يســـعْهَا أيْنـــي ... ولاَ لـــهـــا مَـغِـيـبْ

وقد وسِـــعْها كَوْنـــي ... وغَـــيْـــرِي قـد حُـجِـيـب

لاَ تحْسِـــبوني نَبْـــلاَ ... أن نـسْـكُـنُ الـقُـبـورْ

ســـرَّ ما زَالَ يُجْـــلاَ ... فـي بُـسْـتـان الـصُّـدورْ

والحـــضْرة بيـــا أوْلَى ... مـــا بَـيْـنَ بَـنـيـن وحـورْ

وهـــذا هُ فـــي ظَنِّي ... وَقَـصْـــدي لاَ يَـخِـيـبْ

الهـــــــوى فتـــــنِي اللّهُ لـــــه طـبـيـبٌ

صاحـــــــبي فنـــادِي الـصـــلاةُ عـلـى الـغـريـب

ســـــاداتي فـــؤادي ضـــــاع فـــي حـمـاكـم

بـــــــالله ارحـــــموا مـــن مـــزقـــوا هـــواكـم

وارحـــــــموا مُعـــنَّى مـــالـــوا سِـــواكـــمْ

مسكـــــين المـــعنّى مـــالـــو ســـوى الـحـبـيـب

صاحـــــــبي فنـــادِي الـصـــلاة عـلـى الـغـريـب

سيـــــدي أنت أعـــلم بـــــالـــــذي ألاقـــــي

سيـــــدي طال وجـدي فـــيـــكَ واحـــتـــراقـــي

سيـــــدي لازمـــتني لـــوعـــةُ اشـــتـــيـــاقـي

قلبـــــي قـــد تمـزقْ فـــي هـــوى الـحـبـيـبٌ

صاحـــــــبي فنـــادي الـصـــلاة عـلـى الـغـريـب

المراجع:

- القرآن الكريم
- الأحاديث القدسية، بلا تاريخ، بيروت، دار المعرفة.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٨، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٦.
- ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج بلا تاريخ، صفة الصفوة حققه محمود فاخوري، بيروت، دار المعرفة.
- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت.
- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- ابن الفارض، عمر بن علي، ديوان، تحقيق :د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ابن القيّم الجوزيّة، طريق الهجرتين وباب السعادتين، المكتبة العصريّة، بيروت، ٢٠٠٣.
- ابن القيّم الجوزيّة، محبّة الله، تحقيق يوسف علي بديوي، اليمامة

للطباعة والنشر، دمشق وبيروت، ط٣، ٢٠٠٥.

• ابن الملقن، طبقات الأولياء، ط٢، تحقيق نور الدين شريبة، دار المعرفة، ١٩٨٦.

• ابن المنظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، علق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٨م.

• ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط٢، (د.ت).

• ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ط١، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود ورفاقه، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.

• ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م.

• ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، د. ت، حققه حسان عباس: بيروت، دار صادر.

• ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، مج٢، دار الثقافة، بيروت.

• ابن رشيق القيرواني، أبي علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، قدم له وشرحه: صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

• ابن زروق، قواعد التصوف، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة.

• ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ط مطبعة حسان مصر.

• ابن كثير، البداية والنهاية، ط٣، تحقيق د. أحمد أبو ملحم ورفاقه، مج٦، ج١١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

• ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

• أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، معاني الحروف، تحقيق: د. عبد الفتاح إسماعيل، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.

• أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون ندوات أكاديمية المملكة المغربية، حلقة وصل بين الشرق والغرب: أكادير:١٩٨٦، السفر الثاني عشر، من مطبوعات الأكاديمية.

• أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:١، ج١.

• أبو حامد الغزالي، المقصد الأسى، شرح أسماء الله الحسنى، القاهرة ط:٢، د.ت، مطبعة السعادة.

• أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

• أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق محمد على قطب المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط:١،سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

• أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط١، سنة ١٤٠٩ هـ /١٩٨٩ م.

• أبو رحاب، حسان، الغزل عند العرب،دار المناهل، بيروت، ١٩٨٣ م.

• أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، طبعة ليدن، ١٩٦٠م.

• أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥م.

• أبو نصر السراج: اللمع، طبعة دار الكتب الحديثة ١٩٦٠م.

• أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٦م.

• أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

• أبي نواس، الحسن بن هاني، ديوان، شرحه وقدم له: علي العسيلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي، ١٩٩٧م.

• أحمد أمين: ظهر الإسلام، المجلد الثاني، ٣-٤، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١٩٦٩.

• أحمد بن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ط مصطفى البابي الطبعة الثالثة ١٩٨٢م.

• أحمد سالم عبيد الشمري، لغة الشعر عند الشريف المرتضى (رسالة ماجستير)، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ٢٠١٢م.

• أحمد علي زهرة: الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة، دار نينوى ٢٠٠٤م.

• الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، دار القلم، ١٩٦١م.

• أمين، أحمد، ظهر الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي، ٢٠٠٤م.

• بنيعيش محمد، الموضوعية والذاتية بين الغزالي وابن تيمية، الخليج العربي، ط:١، سنة ١٤٢١ هـ /٢٠٠٠م.

• التسقباني، إبراهيم أحمد، د. ت، القاهرة، سلسلة كتب التصوف الإسلامي.

• تسيهر أجناس كلود، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة يوسف مرسي محمد، وجماعته، ط٢، القاهرة مصر، بدون تاريخ.

• جامل، فائزة عبدالزهرة، النداءُ والاستفهامُ في دِيوانِ ابن الفَارض: دراسة في أسلوبه، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الرابع عشر، العدد ٢٠١١/٤.

• جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: د.سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

• جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري،النجوم الزاهرة في

ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، د.ت.

• جودة نصر، عاطف، الرمز الشعري عند الصوفيه، دار الأندلس، بيروت، د. ت.

• جودت فخر الدين وحسن عبدالله: الغزل، دار المناهل، بيروت، د. ت.

• جوهري، أبي نصر اسماعيل بن حماد، الصحاح، اعتني به خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م

• حاوي، إيليا، فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

• حربي نعيم محمد الشبلي، أحمد سالم عبيد الشمري، لغة الشعر عند ابن الفارض، قصيدة (نظم السلوك) أنموذجًا، جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الإنسانية.

• حسان عبد الكريم، التصوّف في الشعر العربي، نشأته وتطوّره حتى آخر القرن الثالث الهجري، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٥٤م.

• الحلاج، الديوان يليه كتاب الطواسين، صنعه وأصلحه كامل بن

مصطفى الشيبي، ط١، منشورات الجمل، ألمانيا، ١٩٩٧.

• الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

• الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: بهيج عزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م.

• خفاجي محمد عبد المنعم، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٨٠.

• الخوانسارني الأصبهاني، روضات الجنات، تحقيق أسد الله اسماعيليان، ج٣ مكتبة اسماعيليان، طهران، ١٩٧٠.

• خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

• د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧١م.

• د. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٢م.

• د. إبراهيم مدكور (مشرف): الكتاب التذكاري شيخ الإشراق

شهاب الدين السهروردي في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤ م.

• د. إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط٣، د. ت.

• د. احمد مطلوب، فنون بلاغية، البيان والبديع، دار الجون العلمية، الكويت، ط١، ١٩٧٥م.

• د. الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

• د. السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية، دار النهضة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

• د. جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط:I، ١٩٧٠ وط:II، ١٩٧٣.

• د. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج١.

• د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر، ط ٢.

• د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

• د. عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، بدون تاريخ.

• د. عاطف تامر، الغزالي بين الفلسفة والدين، رياض ريس للكتب، بيروت، لبنان.

• د. عبد الحليم محمود، المجموعة الكاملة لمؤلفات –المنقذ من الضلال- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط:٢، سنة ١٩٨٥.

• د. عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، من البداية حتى نهاية القرن الثاني، ط١، سنة١٩٧٥

• د. عبد الفتاح صالح نافع، عضوية الموسيقى في النص الشعري، مكتبة الأردن، الزرقاء، ط١، ١٩٨٥م.

• د. عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٥م.

• د. عدنان حسين العوادي، لغة الشعر الحديث في العراق منذ القرن العشرين ومطلع الحرب العالمية الثانية، دار الحرية للطباعة،

وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٥م.

• د. علي جميل مهنا: الأدب في ظل الخلافة العباسية، الطبعة الأولى ١٩٨١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

• د. محمد علي أبو ريّان: أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٨ م.

• د. محمود عبد اللّه الجادر، شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دراسة تحليلية، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.

• د. محمود محمد علي محمد: المنطق الإشراقي عند شهاب الدين السهروردي، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.

• د. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، بغداد، ط٢، د. ت.

• د.أبو العلا عفيفي، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، ط١ سنة: ١٩٦٣.

• د.أحمد الشرباصي، الغزالي والتصوف الإسلامي، طبع بمطابع

مؤسسة دار الهلال.

• د.محمود حمدي زقزوق، الموسوعة الإسلامية العامة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م

• الديار بكري، تاريخ الخميس، ج٢، دار صادر، بيروت.

• ديوان ابن الفارض، تحقيق عبد الخالق محمود، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعية، القاهرة، د. ت.

• ديوان ابن الفارض، شرحه وقدم له / مهدي محمد ناصر الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.

• ديوان الحلاج، صنعه وأصلحه أبو طريف الشّيبي، منشورات الجمل، بيروت، ١٩٩٧.

• الذهبي، العبر في خبر من غبر، ط١، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.

• الذهبي، تاريخ الإسلام، ط١، تحقيق د.عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ١٩٩٢.

• الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق علي عمر البجاوي، مج١، دار المعرفة، بيروت.

• الرسائل الجامعية

• زمن الشعر، ادونيس، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

• الزيات، أحمد حسن. د. ت، تاريخ الأدب العربي، ط ٢٤، بيروت: دار المعرفة.

• سامي، سحر، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م.

• السبكي، تاج الدين أبو بكر نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تحقيق محمود محمد الطناحي، عين الباب الحلبي، ط:١،ج٦ –الطبقات الشافعية الكبرى.

• السلمي، طبقات الصوفية، ط٢، تحقيق نور الدين شريبة، دار الكتاب النفيس، حلب، ١٩٨٦.

• السهروردي: اللمحات في الحقائق، تحقيق وتقديم الدكتور محمد علي أبو ريّان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨ م.

• الشعراني، الطبقات الكبرى، ط١، ضبطه وصححه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

• ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة بيروت، ١٩٩٩م.

• الطّوسي، اللّمع في تاريخ التصوّف الإسلامي، ضبطه وصحّحه كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلميّة.

• عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الإلهي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٨، ط٤.

• عبد الرزاق الكاشاني، كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر، تحقيق أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

• عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، اسطنبول، ١٩٥٤م.

• عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيريّة في علم التصوّف، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد، دار الخير، دمشق وبيروت، ط١، ١٩٨٨.

• عبدالفتاح بن عمار، لماذا قتل السهروردي (١١٥٥ ـ ١١٩١م) الجزء الأول، ٢٠١٣، www.maqalaty.com.

• عجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م

• عريب القرطبي، صلة تاريخ الطبري، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٧.

• عصام محفوظ، السهروردي القتيل يضجُّ: فمن يصغي؟ تتجسَّد نظريته لأنه غالباً يسندها بإبداع، ١٩٩٣، www.maaber.org.

• عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧ م.

• عيسى عبد القادر، حقيقة التصوف، عمان، المطبعة البهية ط٤، ١٩٨١.

• غازي، محمد جميل، الصوفية والوجه الآخر، إعداد عبدالمنعم الجداوي، مجلة "تعاون الفلاحين" العدد الرابع، دار التعاون للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، شبكة الدفاع عن السنة، ٢٠٠٠.

• غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

• غانم جواد رضا، الغزل السياسي في العصر الأموي، مطبعة جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٣م.

• فارس سعد، السهروردي عالم شاب قتله الفقهاء غيظا من علمه، جريدة العرب، نُشر في ٠٢/٠٨/٢٠١٤، العدد: ٩٦٣٦.

• الفراهيدي، خليل بن أحمد، ترتيب كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.ق.

• فرخ، عمر، التصوف في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،١٩٨١م.

• فيصل، شكري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة،١٩٥٩م.

• كامل الشيبي، الحلاج موضوعاً للآداب والفنون العربية والشرقية قديماً وحديثاً، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٧٦.

• الكتاب، عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه، د. اميل يعقوب، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت،

ط١، ١٩٩٩م.

•الكلاباذي، أبو بكر محمد، التعرف لمذهب أهل التصوف، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠.

• ماسينيون، المنحنى الشخصي لحياة الحلاج شهيد الصوفية في الإسلام، في كتاب: شخصيات قلقة في الإسلام، عبد الرحمن بدوي، ط٣، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨.

• ماسينيون، حياة الحلاج بعد موته، ترجمة أكرم فاضل، مجلة المورد، مج١، العددان ٣-٤، بغداد، ١٩٧٢.

•ماهر الشيال، السهروردي: قتيل الناصر صلاح الدين، ٢٠١٤، www.elbadil.com

• مبارك، زكي، التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، دار المصري، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د ت.

• محمد أحمد درنيقة، معجم شعراء الحب الإلهي، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٣م، ط٢.

• محمد بن أحمد المالكي، الدر الثمين، والمورد المعين، ج ٢، ١٩٥٤ م.

• محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق وتعليق: د. طه الحاجري، محمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، القاهرة، ١٩٥٦م.

• محمد بنعمارة: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠١م.

• محمد رضا مبارك، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٣م.

• محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

• محمد فاروق النبهان، مبادئ الفكر الصّوفي، مكتبة دار التراث، حلب، ط١، ٢٠٠٥.

• محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ٢٠٠٣.

• محمد منصور، إبراهيم، الشعر والتصوف، دار الأمين، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٩٩م.

• محمود عبد القادر، الفلسفة الصوفية في الإسلام، بيروت، دار الفكر العربي، د.ت.

• المقرب ابن عصفور، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٦م.

• النيسابوري: عقلاء المجانين، ترجمة ميمونة، طبعة دمشق، سوريا، ١٩٢٤م.

• الهجويري، كشف المحجوب، ترجمة د.إسعاد قنديل، دار النهضة بيروت، ١٩٨٠م.

• اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط١، وضع حواشيه خليل المنصور، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩

• موقع ويكيبيديا - موقع الصوفية - موقع أدباء الشام - موقع الدكتور يوسف زيدان- موقع أدب- موقع الشيخ فياض العبسو والعديد من المواقع الاخرى التي اعتمدت عليها في البحث حول مادة الكتاب.

الفهرس

الاهداء ٥

وقفة ٩

الفصل الأول: الصوفية دين الحب ١١

الصوفية: مفهومها، حقيقتها ٢١

الصراع بين الصوفية والسلفية ٤٧

ظاهرة اتهام أئمة التصوف ٦٩

الحب: مفهومه، أهميته، الحب الإلهي ٨٣

الحب الإلهي المجرد عن المادية ٩٣

الفصل الثاني: الحسين بن منصور الحلاج ١٢١

الأدب الصوفي ١٢٣

ترجمة الحسين بن منصور الحلاج ١٣٢

الحب الإلهي في منهج الحلاج ورسالته ١٥٣

مختارات من شعر الحلاج ١٦٢

الفصل الثالث: سلطان العاشقين ابن الفارض ٢٠٧

ترجمة عمر بن الفارض ٢٠٩

الحب الإلهي عند ابن الفارض ٢١٩

مختارات من شعر ابن الفارض ٢٣١

الفصل الرابع: السهروردي ٢٨٩

ترجمة السهروردي المقتول ٢٩٩

الحب الإلهي في شعر السهروردي المقتول ٣١٣

ترجمة أبو حفص السهروردي ٣٢٩

الفصل الخامس: مقتطفات من شعر الصوفية ٣٣٧

المراجع ٣٨٣

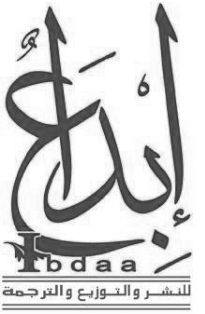

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com